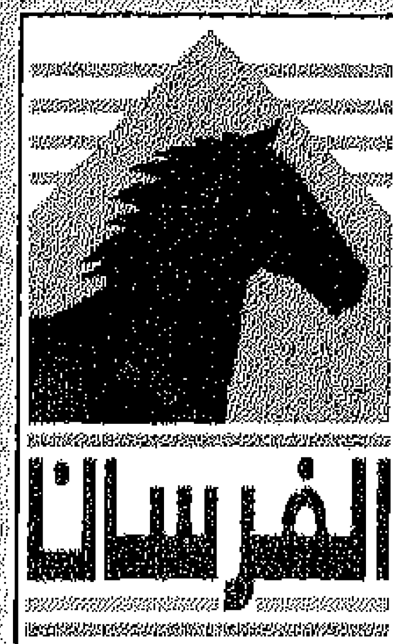
عادل حمودة

بنات مارينا

نساء الفساد والموساد



إهـــــــداء٢٠٠٨

أسرة المرحوم الأستاذ/ محمد إدريس

جمهورية مصر العربية

بنات مارينا

نساء الفساد والموساد

بنـات مارينـــا

نسـاء الفسـاد والموسـاد

الطبعة الأولى: يونية ١٩٩٩
رقم الإيـــداع: ٥١٥٩ / ٩٩
الترقيم الدولى: 977 / 5930 / 05 / 7

تصـــميم الغلاف: شاهر وهبه
المراجعة اللغـوية: السيد عبد المعطى
الجمع التصـويرى: جى. سى. سنتر
الطـــــباعة: دار الياس العصرية



٦٧ شارع العروبة - هليوبوليس ١١٣٦١ - القـاهـرة.
تليفون وفاكس: ٤١٧٢٠٢٨(٢٠٢) - ٤١٧٢٠٢١(٢٠٢)

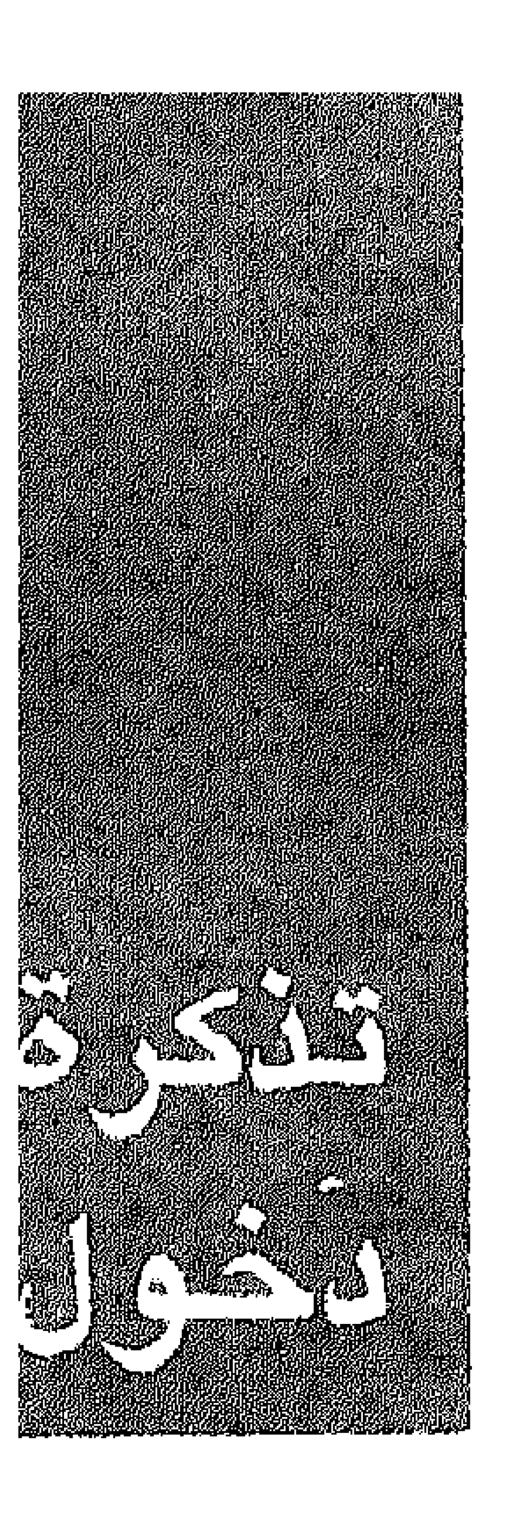
عادل حمودة

بنات مارينا

نساء الفساد والموساد



الفرسان للنشر



عبقريـــة المــكان ..
وعشــوائية الإنسان

عادة ما يصنع الإنسان قوالبه.. وليست القوالب هى التى تصنع الإنسان.. فالقوالب الجاهزة.. والأثواب الجاهزة.. والأفكار الجاهزة.. أشياء لا تطيقها أجساد المتحررين.. وعقول الموهوبين.. والذين لا يطيقون الأحكام المسبقة.. الشائعة.. التى تشبه قوالب الجبس.. وقوالب الطوب.. وأعمدة خرسانة الأسمنت.

إن هذه القاعدة تنطبق على كل شىء فى الحياة.. من مفهوم الإرهاب إلى مفهوم الحب.. ومن رؤيتنا للسلطة إلى رؤيتنا للثروة.. ومن أسلوب تعاملنا مع المرأة إلى أسلوب تعاملنا مع الحكومة.. فى كل الأحوال يجب تعديل أثواب التفكير.. بحيث تكون أثوابنا العقلية.. عصرية.. وعملية.. وواقعية.. ومدروسة.. ومريحة.. إننا لا نطالب أبداً بإلغاء الأثواب القديمة التى ترتديها أفكارنا وأحكامنا.. لأن هذا معناه العرى العقلى الكامل.. ولكن كل ما نطالب به هو تعديل هذه الأثواب.. بحيث تكون.. مرنة.

فى التاريخ.. قصة شهيرة.. وقعت بالقرب منا.. فقد وقع قرصان متواضع الحال فى قبضة الإسكندر الأكبر.. الذى سأله فى غضب:

- كيف تجرؤ على إزعاج البحر.. وإزعاج العالم بأسره؟

أجاب القرصان:

- لأننى أفعل ذلك بسفينة صغيرة أصبح لصاً وقرصاناً ومجرماً وسفاحاً.. ولكن.. لأنك تفعل ذلك بأسطول كبير.. تصبح إمبراطوراً.. وملكاً.

جواب القرصان الساخر.. البارع.. يغير مفهومنا عن القرصنة.. والإرهاب.. فلو دافعت دولة صغيرة عن حقها فى الحرية.. أصبحت دولة إرهابية.. ولو فعلت ذلك دولة عظمى.. وصفت بالدولة التى تحقق العدالة المفقودة فى العالم.

هذا مثال على ضرورة أن تكون أثوابنا العقلية.. مرنة.. ومريحة.. وألا تكون أحكامنا جاهزة.. وقاطعة.. لا تقبل النقض والاستئناف.

وهناك.. مثل آخر.. هو مارينا.

إن مارينا هى حديث الناس فى مصر كل صيف.. وهو حديث لا يتسم بالود.. وإن كان لا يبتعد عن الواقع.. لكنه فى الحقيقة لا يكشف كل الواقع.. وإنما

يكشف مناطق الظلال.. متجاهلاً بقع الضوء.. وعندما تكون الصورة مجرد ظلال.. وخالية من الضوء.. لا تكون صورة.. وإنما «عفريت» صورة.

وتستحق الظلال ما يكيله لها الناس والصحافة كل صيف.. فهى ظلال قبيحة.. مضطربة.. مختلة.. تعكس ما جرى لهذا المجتمع من انهيارات.. وانتكاسات.. خاصة فى ظل طبقة جديدة.. تملك المال ولا تملك الأخلاق.. تعرف كيف تضع السلطة فى جيبها.. ولا يهمها أن يضرب المجتمع رأسه فى الحائط.. ولعلى كنت أول من فتح النار على تصرفات هذه الطبقة من خلال ما تفعله فى مارينا.. وكان ذلك فى تحقيقات نشرتها مجلة «روز اليوسف» عندما كنت مسئولاً عن تحريرها.. ثم لخصتها فى عنوان مقال نشرته فى الأهرام عندما وصفت أبناء هذه الطبقة وأفرادها بأنهم «أثرياء.. ولكن ليسوا نبلاء».. وهم فى الغالب كذلك.. ولكنهم ـ رغم كونهم الأقوى والأكثر ثراء ونفوذاً ـ ليسوا كل مارينا.. على أنهم ـ كما هو الحال فى مصر كلها ـ قد دمغوها بما يفعلونه من تجاوزات.. وما يرتكبونه من جرائم.. يخرجون منها كالشعرة من العجين.. وجعلها هدفاً سهلاً للنميمة ومانشتات صفحات الحوادث.. وتعليقات كتاب الأعمدة.. وقسوة الكتاب الساخرين.. والمؤكد أن عندهم حقاً.. ولكن ليست عندهم الصورة كاملة بما تحتويه من أضواء وظلال.

فى صيف ١٩٩٨ وحده.. وقعت أكثر من حادثة.. وضعت مارينا فى القائمة السوداء.. وضاعفت من تصورات الناس بأنها مدينة سيئة السمعة.

فى يوم ٨ أغسطس قرر طالب الهندسة أحمد محمد عبد النعيم أن يترك الإسكندرية ـ التى يقضى فيها أياماً هو وبعض أصدقائه ـ ويسافر ١٠٠ كيلومتر إلى مارينا، ليقضى فيها يوماً لعله يكشف بنفسه الأساطير التى تروى عن هذه المدينة والتى تداعب خيال المراهقين بالعرى والثراء والانفلات وسهولة العلاقات بين الجنسين.. وحتى يقترب أكثر من مواطن الإثارة.. خلع ملابسه.. وأصبح بالمايوه.. المايوه.. مثل الجينز.. والحجاب.. ثياب تزيل الفوارق بين الطبقات.. وتخفف من حدة المسافات الاجتماعية.

غطس أحمد فى الماء فى البحيرة.. وعندما رفع رأسه.. وجد الموت فى انتظاره.. ارتطمت رأسه بمروحة لنش رجل الأعمال ـ عضو مجلس الشعب ـ محمد أبو

العينين.. كان اللنش قد أصابه عطل عندما التف حول مروحته الحبل..وبينما كان رجل الأعمال على بعد ٣٠٠ متر راح سائق اللنش شريف عبد الغنى يحاول إصلاحه.. وعندما نجح كان التيار قد جرف اللنش إلى منطقة السباحة.. وبمجرد أن أدار محركه ارتطمت مروحته برأس محمد.. وشاهد الناس بقعة من الدماء على سطح البحيرة..

ونقل أحمد إلى المستشفى الجامعى.. ومنه إلى المركز الطبى بسموحة.. ولكن فى اليوم التالى.. مات.. وبموته بدا أن القضية قد أغلقت.. ولأنه مواطن عادى لا ظهر ولا سند له ولا لأسرته التى يعولها مدرس رياضيات فى مدرسة الأقباط الثانوية فى حى عابدين بالقاهرة.. ماتت القضية لمدة ١٠ أيام.. غابت عنها الصحف التى تنشر فى صفحات الحوادث أخباراً أقل أهمية من هذا الخبر.. مما وضع علامات استفهام كبيرة.. كان أول من أشار إليها الكاتب الصحفى صلاح منتصر فى عموده اليومى فى الأهرام.. الذى وصف أحمد بشهيد مارينا.

وفى هذا العمود وضع صلاح منتصر يده على نسخة من المحضر الذى فتح فى شرطة الحمام.. وفيه أقر الشهود: «أن الضحية هو الذى أخطأ عندما تجاوز المنطقة المخصصة للعوم فى البحيرة واقتحم المنطقة المخصصة للنشات وصدم رأسه بأحدها ومات».

مرت ١٩ يوماً على الحادث.. ولم يتقدم أحد من الشهود لينفى الخدعة المهينة التى سُطر بها المحضر.. وهى مسألة تثير التأمل.. على حد قول صلاح منتصر.. ويبدو أن من حسن حظ الضحية وجود مواطن مصرى ـ هو مجدى عبد الواحد ـ يعيش فى خارج البلاد هو وزوجته الإنجليزية ولم ينس بعد، ما كان يتمتع به المصريون من شهامة ومبادرة فى مثل هذه الأمور.. هذا الشاهد البعيد عن الوطن تقدم إلى النيابة ليروى الحقيقة.. وليعيد للضحية ـ التى نسب إليها كل الخطأ ـ اعتبارها وهى بين يدى الله.. وكان أن تراجع كل الذين كذبوا فى المحاضر الرسمية.. وشهدوا شهادة زور .. ولم نعرف ما الذى جنوه من ورائها؟

والمذهل أن مارينا التى لا تقدر على النوم دون أن تصفى حساباتها اليومية مع النميمة.. لم تقترب من هذه الجريمة التى وقعت فى قلبها.. فى البحيرة.. وكأن مؤامرة الصمت قد شملت الجميع.. وأخرستهم..

وقامت القيامة فى الصحافة.. وعبر البعض عن غضبه مما جرى.. ووجدها البعض الآخر فرصة لتحقيق مكاسب إعلانية.. ولكن أخطر ما حدث هو أن شهيد مارينا فتح الباب على مصراعيه لمناقشة سلوك الطبقة الجديدة.. وتعاملها معاملة خاصة بحكم ما تملكه من ثروة.. وسخافة بعض أبنائها.. وتعاليهم.. وقلة أدبهم.. ثم تطورت القضية لتصبح.. رجال الأعمال والمجتمع.. ثم انتقلت لكيفية تغطية الصحافة للحوادث.. وكالعادة خرجت الصحافة هى المجرم الوحيد الذى يجب أن تقطع يداه وقدماه من خلاف.

ودبرت صحيفة الأخبار لقاء بين رجل الأعمال ووالد الضحية.. وفى اليوم التالى نشرت الصحيفة عناقاً حاراً بينهما.. فكان أن انتقل بعض السخط على رجل السيراميك إلى مدرس الرياضيات.. وفيما بعد.. بعد أن تنازلت أسرة القتيل عن حقوقها.. وحفظ النائب العام القضية التى حملت رقم ١٠٥٥ لسنة ٩٨ جنح الحمام تضاعف السخط على الأب وعلى أسرته واتهمه الناس بأنه أخذ مقابل هذا التنازل.

وقد علق صلاح منتصر على غلق الملف قائلاً: «يبقى بعد ذلك سؤال: أيهما أفضل من حيث الشكل وتجاه رأى عام تابع قضية غاب شهودها ١٩ يوماً رغم أن الجريمة وقعت فى بحيرة مكشوفة ولكن بطلها ليس من أبناء المسئولين أو المسنودين.. أن تستخدم النيابة حقها وتغلق الملف بمعرفتها أم تترك القضاء هو الذى يغلقه؟» .. ولم يجب أحد.

وفى الصيف الدامى نفسه وقعت حادثة مريرة أخرى.. كان بطلها نجماً من نجوم الحياة السياسية فى مصر.. هو الدكتور صبرى الشبراوى.. إنه واحد من ألمع أعضاء مجلس الشورى.. وهيئة التدريس فى الجامعة الأمريكية.. ومعظم المؤتمرات.. وقد درس علوم الإدارة فى الولايات المتحدة.. وتزوج وأنجب هناك.. وجاء بزوجته الأمريكية لتعيش معه فى ضاحية المعادى.. وفى مارينا كان يملك شاليه متواضعاً.. لكنه كان ثرياً بزوار صاحبه.. وبما يحمله من أفكار وحيوية وحماس للوطن.. ضاعت فى لحظة واحدة.. فقد فيها الدكتور صبرى الشبراوى الكثير.

كان الدكتور صبرى الشبراوى قد عاد من لقاء سياسى فى الإسكندرية..

وقرر أن يلقى بنفسه فى الماء ليسترد نشاطه.. وفى المنطقة التى يطلقون عليها.. منطقة نادى السيارات.. وهى منطقة تغرى بالعوم فيها.. ولكن.. بدلاً من أن يريح أعصابه.. ضاعف من توترها.. عندما دخل فى مشادة كلامية بينه وبين واحد من أبناء الأثرياء الجدد الذين لا يعرفون معنى احترام الكبير.. ولا احترام المثقف.. ولا احترام الغير.

كان الشاب الصغير يثير سخطاً بالبيتش بجى.. أو موتوسيكل الشاطئ الذى يركبه.. عندما طلب منه الدكتور صبرى الشبراوى بعض الهدوء.. ولم يستجب الشاب.. فارتفع صوت الدكتور صبرى الشبراوى بمزيد من الغضب.. وطالبه باحترام الآخرين.. وعندما عرف الشاب أن الغاضب الذى أمامه عضو فى مجلس الشورى.. قال ما معناه.. أنه واحد ممن يدفع لهم أبوه.. رجل الأعمال الثرى.. حتى يسكتوا.. وفى الحال أصيب الدكتور بجلطة فى المخ ترتب عليها الشلل فى بعض مناطق الجسم.. ورغم تحسن حالته بعد فترة علاج لشهور فى الولايات المتحدة فإن صبرى الشبراوى لم يعد كما كان.. لقد فقد الكثير ليس من صحته فقط وإنما من حماسه أيضا لهذا الوطن الذى لم يعد يحترم سوى المال.. وعندما سألت عنه وهو فى الولايات المتحدة للعلاج كان حريصاً أن يقول لى:

ـ أنت بالذات يجب أن تتعلم هذا الدرس.. لا تتحمس لهذا الوطن.. لا تتركه يأكلك لحماً ويلقى بك عظماً.. لن ينفعك حبك المجنون لهذا الوطن.. اعمل معروف.. اهتم فقط بنفسك.. بصحتك.

وكثيراً ما تمنيت أن أعمل بهذه النصيحة.. لكن.. لم أقدر.. للأسف.

وفى الصيف نفسه.. وقع حادث من نوع مختلف.. كان بالنسبة لى أشد قلقاً من غيره.. فبطله رجل قانون.. وكيل نيابة.. لقد صفع رجل القانون أحد حراس منطقة الكوبرى.. القريب من «السيجال».. وهى أشد مناطق مارينا ازدحاماً.. طلب منه الحارس أن يوقف سيارته فى هذه المنطقة حسب التعليمات.. لكن رجل القانون الذى يعاقبنا على عدم تنفيذ التعليمات أصر على عدم تنفيذها.. قائلاً للحارس المتواضع، العبارة التى لا تسمعها إلا فى مصر ولا معنى لها إلا فى مصر: «أنت مش عارف بتكلم مين؟».. وعندما أصر الحارس على تطبيق القانون وجد رجل القانون يهوى بكفه على وجهه.

وعادة لا تتدخل إدارة مارينا فى صراع الأقوياء والديناصورات والحيتان تجنباً للصداع.. وتتركهم للصراع.. مع بعضهم البعض.. ومن ثم.. فالقانون هنا هو قانون القوة.. قانون «من له ظهر لا يضرب على بطنه».. قانون الثروة المغطاة بالسلطة.. والسلطة المغطاة بالغطرسة.. قانون أن كل شىء قابل للشراء.. وكل إنسان له ثمن.. ومن ثم فإن أغلب الناس فى مارينا.. لا ترى.. ولا تسمع.. ولا تتكلم.. وهذا هو سر الصمت الجماعى الذى غطى على طالب الهندسة الذى قتل علنا.. وفى وضح النهار.. أمام مئات من البشر كانوا يجلسون على الرمال أو يستحمون فى الماء.. ويعرفون الأبطال والوقائع.

وهذه ليست المرة الأولى.. ولن تكون الأخيرة.. ففى صيف ١٩٩٧ قتلت ابنة رجل أعمال سكندرى شهير بسيارتها شاباً عابراً.. ورغم أن الحادث وقع فى أشد مناطق مارينا ازدحاماً.. منطقة السوق والكافيتريات.. ورغم أن الفتاة اعترفت بارتكابها الحادث، فإن سائق سيارة الأب الذى لم يكن فى مارينا لبس القضية.. ولم يكن من الصعب أن يجد الأب بنفوذه ونقوده من يتطوع لتغيير المحضر.. وتدبير الشهود.. وأمام حملات إعلانية سخية سكتت الصحف تماماً.. وهو ما لم يحدث بنفس القدر فى جريمة قتل طالب الهندسة.. وإن جاء ذلك متأخراً.. وهو ما جعل لطفى الخولى يكتب فى عموده فى الأهرام فى ١٧ سبتمبر ١٩٩٨: إن ما يثير الانتباه هو «إقدام بعض الصحف والصحفيين على نشر تحقيقات وموضوعات وأحاديث أقرب ما تكون إلى إعلانات مدفوعة الثمن.. تتسابق دون مبرر إلى نفى مسئولية رجل الأعمال.. والغريب أن ذلك يحدث على صفحات إضافية فى الوقت الذى لم توجه فيه النيابة العامة اتهاماً لرجل الأعمال أو غيره بعد إلا سائق اللنش الغلبان».

ولعلى لا أتجاوز الحقيقة إذا ما قلت أن كل البلاغة والشجاعة الصحفية التى كشفت ما جرى.. وواجهت محاولات تضليل العدالة.. وانفلات وغطرسة الأثرياء الجدد لن تغيرهم.. ولن تعلمهم وتعلم أولادهم اللباقة واللياقة.. وتفرض عليهم الانحناء للقانون.

إن كل كتب البلاغة العربية وكل فنون اللغة وكل علوم الكلام لا تقدر على ذلك.. فهم يؤمنون ببلاغة أخرى غير بلاغتنا.. بلاغة الثروة والسطوة والقدرة

على اختراق القانون واللعب به وتحقيق ما يريدون فى النهاية.. إن الكلام ليس له وجود فى حد ذاته وإنما يكتسب وجوده من قوة المتكلم.. لا من ضخامة الصوت وقدرته على التجويد.. ومادامت بلاغة الأثرياء الجدد فى مارينا هى ترسانة الأموال التى حصلوا عليها والتى اشتروا بها الكثير مما لا يباع ولا يشترى، فإن كل كلام معهم هو كلام ضائع.. إنهم بما يملكون وبما يفعلون أصبحوا بلغاء هذا العصر الحقيقيين.

ونحن نتصور أننا بالبلاغة والشجاعة نهددهم بالخجل والفضيحة.. وننسى أن عدداً لا بأس به منهم قاموا على الفضيحة.. الفضيحة المالية.. والفضيحة البنكية.. والفضيحة الصاروخية من طراز «البودرة».. الاسم المهذب للهيروين.. إن بعضهم يردد مقولة المليونير اليهودى الشهير.. روتشيلد: لا تسألنى عن المليون الأول.. والحقيقة أنه مع فارق الزمن والمكان يجب أن يقولوا: لا تسألنى عن المائة مليون الأولى.. أو المليار الأول.

كذلك.. فإننا أعطيناهم ثقلاً لا يحتملونه.. فهم فى الغالب لم يتركوا سنة أولى بيزنس إلى ما بعدها.. فى حين أننا نعاملهم وكأنهم قد اكتملوا فهما وخبرة.. إن معظمهم لم يبرح بعد مرحلة الصناعات البسيطة والسمسرة والمقاولات وتقسيم الأراضى والمضاربة فى البورصة والتوكيلات التجارية الأجنبية.

إن المواقف الرومانسية لن تفيدنا فى شىء.. لن نكسب ثقتهم.. ومشاريعهم الثقيلة.. وأموالهم التى تعرف طريقها إلى الخارج.. لن نكسبهم.. مهما سكتنا ورضينا وتواضعنا وتسامحنا.. فالمشكلة ليست فى مارينا فقط.. بل لعل مارينا مكان مكشوف مزدحم يسهل كشف ما يحدث فيه.. المشكلة فى تصرفات هذه الطبقة الجديدة.. على حد قول المستشار محمد حامد الجمل رئيس مجلس الدولة الأسبق الذى راح يرصد جرائم هذه الطبقة بعيداً عن مارينا.

ففى ديسكوتيك شهير فى العجمى جرت مشاجرة بين عشرات من الشبان بسبب فتاة.. استخدمت فيها زجاجات البيرة المكسورة والمشروبة.. وازدادت اشتعالاً بسبب دخان البانجو.. وأسفرت عن قتيل.. بقيت جثته وحيدة.. بعد أن أخذ كل شاب سيارته وغادروا المكان قرب الفجر.

والمثير للدهشة أن الفتاة التى كانت السبب فى المشاجرة هى شقيقة شاب

صغير لقى مصرعه قبل شهور بعيداً عن القاهرة وهو يقود سيارة مرسيدس قوية بسرعة جنونية مع أصحابه.. وقد سمعت أم أحد هؤلاء الشبان وهى توبخه بعد نجاته قائلة:

ـ ألم أقل لك يا حبيبى ألف مرة أن لا تقودوا السيارة وأنتم «شاربين»؟

ولم أصدق ما سمعت.. واندهشت من التساهل مع الأبناء وترك الحبل لهم على الغارب مع سيارات فارهة وغالية للعبث بها.. وأموال بلا حساب للعبث بحياتهم.. وقد كان من بين الضحايا ابن سكرتير رجل أعمال شهير.. وابن ضابط كبير فى الشرطة.

وفى مدينة نصر قامت زوجة المليونير المعروف بتعذيب خادمتها الصبية الصغيرة بالحرق بالسكاكين والملاعق الملتهبة إلى درجة الاحمرار.. حتى الموت.. ثم قامت السيدة بوضع الجثة فى حقيبة ملابس وألقت بها فى مقلب قمامة لإخفاء الجريمة التى كشفت بالصدفة.. وقد أدهشنى أن تجرى عملية نقل الجثة فى سيارة مرسيدس آخر موديل.. هى آخر ما أنتجته عبقرية التكنولوجيا.. إنه أسوأ استعمال لمظاهر الحضارة.

إن هجوم غير المتحضرين على مظاهر وأشياء الحضارة يحطم الخيال ويوجع القلب.. إنها أشياء تحتاج إلى بشر فى مستواها.. حضارة وثقافة وتذوقاً وتحسساً.. فقبل أن يستعملها الإنسان يجب أن يتحرر من جاهليته وبدائيته وغوغائيته.. وإذا كان الإنسان غير مستعد لأن يكون جميلاً وراقياً مثلها، فعليه أن يتركها ويركب أول قطار «بضاعة» يصادفه.

وأسوأ ما فى جريمة مدينة نصر أن المقاول الثرى زوج القاتلة قد دفع فدية أو دية إلى أهل الفتاة القتيلة التى ألقوا بها مثل الكلاب فى القمامة.. وبسبب الفقر قبل الأهل المال وتنازلوا عن القضية.. وهى لعبة تكررت فى حادث ابنة رجل الأعمال السكندرى التى قتلت عابر السبيل فى مارينا.. وقد قيل أن هذا ما حدث مع أسرة «شهيد مارينا».. طالب الهندسة القتيل.. لكن أهله أنكروا ذلك.. وقالت شقيقته أن التنازل جرى بعد أن اطمأن قلبهم أن الحادث كان قضاء وقدراً.. بل إنهم هم الذين دفعوا رسوم التنازل فى الشهر العقارى.

ولا يعنى هذا الإنكار أن المال لا يتدخل فى مثل هذه الحوادث.. بل لعله

السلاح الوحيد الذى يستخدم فى حسمها.. وهو يوزع على أطراف لها يد مباشرة.. وغير مباشرة.. ومن ثم ما المانع من تكرار الجرائم من نفس الأشخاص مادام أهلهم قادرين على الدفع.. ومادام ثمن الإنسان ميتاً أغلى منه حياً.

وفى واقعة أخرى جرت فى إحدى المدارس الخاصة أطلق الزوج الرصاص من مسدس والده على زوجته مدرسة اللغة الفرنسية أمام صديقة زوجته.. وقد حكم عليه بالحبس سنة مع إيقاف التنفيذ.. بعد احتساب الجريمة نوعاً من القتل الخطأ.. ولو كان الأمر كذلك فإننا أمام حالة استهتار واضحة.. يداعب فيها الزوج زوجته بالتنشين على رأسها وإطلاق الرصاص فى مزاح ثقيل لم تعرفه العلاقات الخاصة من قبل.

وهناك عشرات القصص الغريبة والواقعية التى جرت فى عوالم الطبقة الجديدة.. بعيداً عن مارينا.. وهو ما يعنى أنه ليست مارينا وحدها التى تعانى من تصرفات هذه الطبقة.. وإن كانت هذه التصرفات تبدو واضحة ومركزة هنا.. فى مارينا لوجود أكبر تجمع من أبناء هذه الطبقة.. مع إنتاج أكبر قدر من سوء السلوك والخشونة والعجرفة.. فلا قواعد.. ولا أصول.. ولا تواضع.. ولا خجل.. ولا إحساس بالقانون.. القانون الجنائى.. والقانون الأخلاقى.. أو حتى قانون سكسونيا.

ولكن.. يبقى أننا ـ رغم ذلك كله ـ لا نعرف مارينا على حقيقتها.. مارينا البعيدة عن صفحات الجرائم.. وصفحات النميمة.. وجرائم كل صيف.. وهناك جزء ظاهر على السطح.. يسهل بقليل من البحث معرفته.. أما ما خفى تحت السطح.. أو تحت الجلد.. أو فى نفوس البشر.. فهو ما يصعب كشفه إلا بالعِشْرة.

مارينا.. أشهر وأكبر قرية سياحية فى الساحل الشمالى.. وهو منطقة لها تاريخ.. فقد كانت سلة قمح الإمبراطورية العريضة التى كونها بالسيف وبالصلاة فى معبد آمون فى سيوة.. الإسكندر الأكبر.. وعند العجمى رست أساطيل نابليون بونابرت التى غزت مصر فيما يعرف بالحملة الفرنسية.. وعند العلمين التى تقترب منها مارينا.. بل وتحمل اسمها (مارينا العلمين) دارت معارك طاحنة بين قوات المحور وقوات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية.. وكان للمنتصر فيها الغلبة فى الحرب.. وولدت على هذه الأرض التى اشتعلت بالنيران شهرة اثنين من أكبر قواد الحروب هما مونتجمرى البريطانى.. وروميل الألمانى.. ولاتزال بقاياهما شاخصة لا تفرق بين المنتصر والمهزوم.. الغالب والمغلوب..

الضارب والمضروب.. لاتزال شواهد قبور القتلى أبرز ما فى العلمين.. لا تفرق بين موتى الحلفاء.. وموتى المحور.. فالقبر لا يعترف بالنياشين والأوسمة.. والأكفان ليس لها جيوب.. وهى عبارات خالدة لم يصدقها كل الذين قالوها.. وهم يقاتلون.. أو وهم يجمعون الثروة.

إنها منطقة لها تاريخ.. لكنها أصبحت الآن غابات كثيفة من الأسمنت والصخب والغرور والتباهى والاستعراض.

ورسمياً يبدأ الساحل الشمالى عند الكيلو ٣٤ من الإسكندرية.. عند قرية سيدى كرير.. عند قرية سياحية بالقرب من بوابتها هيكل طائرة.. يشير إلى أن الذين بنوها هم العسكريون.. وفيها كثير من المدنيين.. بعضهم من الوزراء.. كبار المسئولين.. ورسمياً أيضاً يمتد الساحل الشمالى حتى مرسى مطروح.. ويمر على مارينا التى تقع على طول أربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر.. من الكيلو ٩٤ غرب الإسكندرية إلى الكيلو ٩٨,٥.. وعرضها وعمقها حوالى الكيلومتر.. وهذه المساحة الشاسعة تعرف باسم مارينا القديمة التى بدأ التخطيط لها فى منتصف الثمانينيات.. وبدأ الناس يسكنونها فى بداية التسعينيات.. ثم تقع بعدها مارينا الأثرية التى أنشأها الرومان ومنحوها اسمها الذى يعنى الميناء أو الثغر.. وتمتد المدينة الأثرية حوالى الكيلومتر.. وهى أرض حرام.. لا يجوز البناء عليها.. لكنها فى الوقت نفسه لا يرى الناس منها سوى مبنى إدارى صغير للموظفين من الحجارة.. ثم نصل إلى مارينا الجديدة وتمتد من الكيلو ١٠٠ إلى الكيلو ١٠٦ وفيها ما يسمى بڤنيسيا.. وهى جزر صناعية مقامة فوقها القصور.. وتتواصل بين بعضها البعض بكبارى بحرية..

وقد سبق مارينا التى حظيت بكل هذه الشهرة بناء قريتى مراقيا ومرابيلا.. بنتهما وزارة التعمير من بداية الثمانينيات.. وكان صاحب الفكرة المهندس حسب الله الكفراوى.. ثاني وزير للتعمير بعد المهندس عثمان أحمد عثمان.. وقد بدأت فكرة وزارة التعمير بعد حرب أكتوبر لتعمير مدن القناة التى خربتها ودمرتها الحرب.. ولكن الوزارة لم تنته بنهاية تعمير المدن الثلاث.. وهو نفس ما جرى لوزارة التموين.. التى قامت وقت الحرب العالمية الثانية من أجل السيطرة على المواد الغذائية وقت الحرب.. وقد انتهت الحرب.. وفتحت السوق على مصراعيها لاستيراد الطعام ورغم ذلك بقيت وزارة التموين.

إن بعض الوزارات قامت لمهمة محددة طارئة.. واختفت بنهايتها.. مثل وزارة

السد العالى التى أصبحت بعد نهاية المشروع هيئة تحمل اسمه.. ولكن وزارة التعمير بقيت.. وتغيرت مهامها.. من تعمير مدن القناة إلى بناء مدن جديدة.. ثم وجدت نفسها أكثر فى بناء مشاريع القرى السياحية الفاخرة.. خاصة مارينا.. وفى كل الأحوال كانت أراضى وزارة التعمير فرصة لتحقيق مكاسب هائلة.. وثروات خرافية بالمضاربة عليها.. فيما يعرف بالتعبير الشائع «تسقيع» الأراضى.. وفى مارينا بالذات.. كانت عمليات «تسقيع» المبانى.. الشاليهات والفيللات.. فقد قفزت الأسعار بجنون.. فقد باع أحد رجال الحكم ما اشتراه بربع مليون جنيه بأكثر من ثلاثة ملايين جنيه.. والمشترى تاجر أسماك شهير.. بدأ حياته على الرصيف.. ثم فتح الله عليه.. وقد ترك الفيللا لصاحبها الأصلى ليقضى فيها آخر «صيفية» فى عام ١٩٩٨.. ويقال أن السعر المرتفع هو سعر سياسى.. أى سعر العلاقات السياسية المباشرة التى يتيحها وجود السماك وسط الوزراء والأثرياء وأصحاب النفوذ.. ودفع رجل أعمال غير مصرى أكثر من خمسة ملايين جنيه فى فيللا على البحيرة.. وأطلق فيها أسداً يرعى فى حديقتها.. وينتمى هذا الرجل إلى عائلة خرج منها واحد من أبرز المتطرفين على المستوى العالمى.. وتنشر أخباره وصوره وتحركاته فى الصفحات الأولى..

والحقيقة أن وزارة التعمير نفسها رفعت الأسعار ونافست قوى السوق فى ذلك.. فالشاليه القديم عند البحيرة كان سعره ١٤٠ ألف جنيه.. ونفس الشاليه قفز سعره إلى الضعف فى مناطق التكثيف الجديدة فى مارينا القديمة.. ولو حسبت سعر متر المبانى فى هذه الصحراء لوجدته ينافس سعر متر المبانى فى أرقى أحياء القاهرة السكنية.. مصر الجديدة.. والمهندسين.. مثلاً.. وفى هذا الارتفاع المجنون فى الأسعار يكمن سر مارينا.

ويبلغ عدد الوحدات فى مارينا القديمة ٣٧٠٠ وحدة.. منها ١٠ قصور فاخرة تطل على البحر.. ويبدو أغلبها مغلقاً مهجوراً.. خاصة الذى يملكه أثرياء عرب. والأكثر حياة يملكه المهندس قطب سليمان.. وهو رجل أعمال مصرى عاش جزءاً كبيراً من حياته فى ألمانيا والخليج.. وعاد إلى مصر ليشتهر بنشاطه الاجتماعى فى أندية «الروتارى» التى أصبح محافظاً لمنطقتها فى الشرق الأوسط ما عدا إسرائيل.. وهو فلاح مصرى.. رغم أنه يدخن السيجار.. فهو بسيط.. متواضع.. يحب الناس ويجيد التعامل مع الآخرين.. وفى بيته تجد خليطاً من المشاهير والعهود والأفكار المختلفة.. دكتور ثروت عكاشة مؤسس البنية الثقافية فى مصر.. دكتور فتحى والى أستاذ القانون المعروف.. توفيق عبده إسماعيل الوزير السابق

والبرلماني الحالي.. الدكتور ميلاد حنا.. الذي لايزال يحمل لقب «عمدة مارينا».. وزوجته الكاتبة الصحفية إيفيلين رياض.. ورجاء إدريس زوجة يوسف إدريس وهي واحدة من أشهر الوجوه الاجتماعية والإنسانية في مارينا.. والدكتورة عائشة عبد الرحمن.. الوزيرة والسفيرة.. والكاتب الساخر أحمد رجب.. وعشرات من رجال الأعمال الذين لهم الغلبة في مارينا.. ولو عرفت كيف تتعامل زوجة قطب سليمان معه ومع ضيوفهما لأدركت بالفعل أن وراء كل رجل ناجح امرأة.

وهناك فيللات متميزة الموقع عند التقاء البحر والبحيرة.. واحدة منها كان يعيش فيها الكاتب الصحفي مصطفى أمين الذي كان يقضي أجازته الصيفية في هدوء ودون كتابة وفي نظام يومي صارم في الأكل والنوم المبكر ورياضة المشي.. وكانت تنظم له هذه الحياة زوجته.. رفيقة عمره منذ خروجه من السجن إلى النهاية.. السيدة «إيزيس» التي كانت تراه من بعيد وهو في السجن.. وقد قدر لي أن أراه في آخر يوم قضاه في حياته في مارينا.. وكانت معي الإذاعية المعروفة نادية صالح.. ولم تكن علامات النهاية بادية عليه.. فقد كان ساخراً لاذعاً في تعليقاته كما هي عادته.. وكان بكامل ملابسه وهو في المصيف.. بالبدلة الصيفية.. والحذاء الأسود والجورب.. وفي مارينا يصعب أن تجد أي شخص مهما كان موقعه ومنصبه يفعل ذلك.

وفي هذه الفيللات.. جيران مصطفى أمين.. نوال الدجوي التربوية المعروفة.. والدكتور فتحي سرور رئيس مجلس الشعب.. والدكتور محمد عبد اللاه رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشعب.. وسعيد سنبل الكاتب الصحفي الذي يحترمه الجميع.. والدكتور أحمد شفيق الجراح النجم.. وتعرف المنطقة التي يعيشون فيها بمنطقة «نادي السيارات».. ونادي السيارات مجرد بناء أجوف من الخرسانة لم يكتمل.. وأغلب الظن أنه لن يكتمل.

وعلى الجانب الآخر نجد نفس الطراز من الفيللات المطلة على البحر على امتداد شارع يوسف إدريس.. وهناك ستجد رجال الأعمال الذين تعرفهم والذين لا تعرفهم.. وستجد بالقرب منهم يسكن رجال البنوك.. ومنهم محمود عبد العزيز.. ومصطفى حبلص.

وليست مارينا كلها رجال أعمال.. أو أثرياء.. وقصوراً.. وفيللات.. ففيها عدد هائل من الشاليهات التي لا تزيد مساحة الواحد منها على ١٢٠ متراً مربعاً.. وفيها غالبية من الطبقات الوسطى.. مهندسون.. وأطباء.. وصحفيون..

ومستشارون.. ومحامون.. وأساتذة جامعات.. ورغم أن هؤلاء يمثلون الشرائح العليا من الطبقات الوسطى فإن العلاقة لا تتسم غالباً بالحميمية بينهم وبين الأثرياء الجدد.. فهؤلاء المهنيون اللامعون يشعرون أن تصرفات الأثرياء الجدد وأبنائهم تتسم بالجليطة والغطرسة.. وأنها أفسدت عليهم جو الهدوء والمتعة الذى يجب أن يكون عليه المصيف.. فليس من الصعب أن تجد فتى ـ أو فتاة ـ يواجه بسفالة شخصاً آخر لمجرد أنه يركب سيارة ليست فى مستوى السيارة التى اشتراها له أبوه.. فكل شىء يحسب بالمظاهر.. والمظاهر تعنى المال.. ومن ثم بدأ التربص والاحتكاك بين الذين يملكون المال والذين يملكون دوراً يلعبونه فى المجتمع.. وأصبح كل شخص فى حاجة للسؤال الذى لا معنى ولا قيمة له إلا فى مصر.. وهو: «أنت ما تعرفش أنا مين؟» .. ولابد أن تكون إجابة السؤال سخيفة.. والإجابة السخيفة لا نهاية لها إلا فى قسم البوليس.. مع أنه ليس فى مارينا قسم بوليس.. إنما شركة خدمات.. تهتم بنظافة الشوارع.. لا بأخلاق البشر.

ويمكن أن تستوعب مارينا فى وحداتها المختلفة ما بين ٢٠ إلى ٣٠ ألف نسمة بخلاف الموظفين والعمال الذين يسكنون فى الإسكندرية غالباً.. ومن ثم فهى أكبر قرى الساحل الشمالى ـ التى يصل عددها إلى ١١٢ قرية حتى الكيلو ١٠٦ تم بناء ٧٠٪ منها ـ حجماً وسكاناً وتقدر قيمة عقاراتها بنحو ٣ مليارات جنيه.. أى ثلث ما دفع فى الساحل الشمالى وهو ١٠ مليارات جنيه على الأقل.. وهى أرقام مفزعة فى مجتمع يعانى من مشاكل اقتصادية متعبة.. خاصة أن هذه الاستثمارات لا يستخدمها سوى أصحابها.. لفترة محدودة فى الصيف.. ويدفعون مقابل صيانتها ورعايتها والخدمات التى تقدم لهم مبالغ أكثر من التى يدفعها من يكتفون بالإيجار.. وأغلب الظن أن ملاك هذه القرى تكالبوا على الشراء طمعاً فى المضاربة على العقارات.. وقد بدأت مؤخراً قيمة هذه العقارات فى النزول والهبوط.

وهذا ما جعل الدكتور ميلاد حنا لا يكف عن ترديد أننا ألقينا بأموالنا فى الصحراء.. والدكتور ميلاد حنا.. مفكر مصرى.. حارب قضايا التحرر والتنوير.. ودفع ثمن ما يؤمن به من حريته.. فقد وجد نفسه فى السجن فى «هوجة» سبتمبر ١٩٨١ التى سبقت اغتيال الرئيس السابق أنور السادات.. هو و١٥٠٠ رمز من رموز المجتمع المصرى من مختلف التيارات والاتجاهات.. وقد عرفه الناس عندما اهتم بمشكلة مزمنة تؤرقهم هى مشكلة الإسكان التى من المؤكد ـ بحكم دراسته الهندسية وأفكاره السياسية ـ كان أفضل من تناولها.. وقد تولى رئاسة لجنة الإسكان

فى مجلس الشعب.. لكن كان واضحاً أن أفكاره وحلوله لمشكلة الإسكان يصعب تنفيذها فى ظل عقليات يسيطر عليها منطق المقاولين.. لا منطق السياسيين.

وقد كان ميلاد حنا رفيق دراسة للبابا شنودة.. بابا الأقباط.. لكن فيما بعد ذهب كل منهما فى طريق.. وفيما بعد أيضاً كان الخلاف بين الرجلين على أشده فى كثير من القضايا التى تهم الأقباط.. وفيما بعد ذلك خفت حدة هذا الخلاف.. دون أن يعرف أحد.. هل بقى ما فى القلب.. فى القلب؟

ولكن.. مشاكل الأقباط.. والوحدة الوطنية حفزت ميلاد حنا ـ القادر دائماً على أن يسبق الآخرين بأكثر من خطوة ـ على نشر كتابه الساحر.. «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية».. ثم.. كان أول من اهتم بالترويج لفكرة «قبول الآخر».. وهى فكرة كان العالم فى حاجة إليها فى ظل تصاعد التوترات والنزعات الطائفية والعرقية والدينية التى برزت لسد الفراغ الذى سببه تراجع وسقوط الأيدلوچيات.. وقد ألف ميلاد حنا كتاباً يحمل نفس الاسم.. «قبول الآخر».. روج فيه لفلسفة التسامح.. وهى الفلسفة التى جعلت منظمة اليونسكو فى باريس تمنحه جائزة «سيمون بوليفار» فى عام ١٩٩٨.

وفى مارينا يوصف ميلاد حنا بالعمدة. وبيته الصغير أمام البحيرة لا يخلو من الزوار.. والزوار من مختلف الأعمار والأفكار.. من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.. ومن مشاهير تنشر الصحف أخبارهم إلى بسطاء يبحثون عن حلول لمشاكلهم الصغيرة والتى أصبحت بحكم الإهمال العام مشاكل معقدة.. وترى زوجته الصحفية والكاتبة المعروفة أنه فاقها فى عشق الكتابة فى القضايا العامة.. وهو يكتب مقالاً أسبوعياً فى صحيفة «الأهرام» بعنوان يعكس موهبة التفاؤل التى يتمتع بها ويواجه بها أزماته على كافة المستويات.. والعنوان هو: غداً أكثر إشراقاً.

ورغم أنه تجاوز السبعين.. فهو يحرص على السباحة مع غروب الشمس فى مارينا التى يقضى فيها شهور الصيف كاملة.. وبواسطة جهاز الفاكس يرسل مقالاته إلى الأهرام.. ويتلقى الردود عليها.. وهو لا يدخن.. ويجيد التعامل مع الناس بعبارات تتفجر رقة.. ولكنك فى الوقت المناسب تكتشف أنك أمام قطعة من الجرانيت التى شيد بها أجداده الفراعنة الحضارة المصرية القديمة.

وقد تولى ميلاد حنا رئاسة أول مجلس أمناء فى مارينا.. ومجلس الأمناء

مجلس منتخب من الملاك يساهم فى إدارة القرية.. ولكن.. حسب ما قاله هو شخصياً: لم يتح للملاك فيما بعد انتخاب من يمثلهم فى مجلس الأمناء التالى.. فقد جرت الانتخابات الجديدة فى يوم ٢١ يناير عام ١٩٩٦.. وكان يوافق غرة شهر رمضان.. وكان يوافق أشد فترات الشتاء برداً.. حيث لا أحد فى مارينا التى جرت فيها الانتخابات.. وبالفعل لم يحضر سوى ٣ ملاك.. وأصبح مجلس الأمناء بالتعيين.. مثله مثل مجلس إدارة الشركة المشرفة على مارينا.. والتى اسمها بالمناسبة «شركة مراقيا للإدارة السياحية».. وانتهى حماس الناس للمشاركة فى رعاية شئونهم فى هذه البقعة الساحرة.. وكان أن سيطر عليها وزير التعمير.. بقرارات تبلغ فى الغالب بالفاكس من مكتب الوزير.. وكان أن «تحول ملاك مارينا إلى [رعية] يتمتع كل منهم بامتيازات وتجاوزات وصهينات ومخالفات بقدر ما لديه من اتصال مع السلطة».. حسب ما كتبه ميلاد حنا فى الأهرام فى يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٩٨.. وهو يفسر بذلك التجاوزات والخلل الذى تعانى منه مارينا.. التى كانت فى بداية الأمر مكاناً مناسباً لكبار السن قبل أن يقبل عليها الشباب دون إعداد ما يستوعب طاقتهم المكبوتة بطرق متحضرة.. وهو ما ضاعف من حجم الانفلات الذى أصبح من سمات مارينا.. لكن ذلك لا يمنع ـ كما يكتب ميلاد حنا ـ أن «معظم ملاك مارينا من المصريين الطيبين».. و«ليس كلهم أشراراً أو أثرياء أو محبين لتجاوز القانون أو لديهم غرور غير مبرر.. فالغالبية محترمة تتمنى أن ترى مارينا مدينة فاضلة تسودها العلاقات الطيبة».

ويدخل مارينا ما بين ١٠ ـ ١٥ ألف شاب وفتاة من غير سكانها فى بعض ليالى الصيف.. وهؤلاء بالتعبير الساخر لا يحملون الجنسية «المارينية».. أو «مارينز».. وهو الاسم الذى يطلق على مشاة البحرية الأمريكية.. أو «مارنيست» على وزن «عجمست».. الاسم الشائع لقاطنى شاطئ الفردوس فى العجمى.. ويدخل هؤلاء الشباب بحثاً عن الترفيه الذى لا يجدونه بطول الساحل الشمالى كله.. وأحياناً لحضور حفلات الموسيقى والغناء التى يحييها مطربو الموجة الجديدة.. مثل عمرو دياب.. وهشام عباس.. ومحمد فؤاد.. وكانت الفنانة هالة صدقى ـ وهى من سكان مارينا ـ أول من فكرت فى هذه الحفلات.. فكانت تستأجر قطعة أرض على البحيرة.. وتقيم عليها مسرحاً.. ومن حوله معرض تجارى مفتوح.. وكان الجمهور من الشباب يلتف حول المسرح حتى الفجر.. ولكن.. يبدو أن نجاح هذه الحفلات أغرى غيرها بها.. فكان أن سارع لتنفيذها معتز كمال الشاذلى.. ابن البرلمانى الشهير الذى هنأته إعلانات الصحف فى

فبراير ١٩٩٩ على تحقيق الرقم القياسي تحت قبة البرلمان في مصر وفي غيرها.. وهو ٣٥ سنة.. وقد أدى وجود ابنه في مارينا إلى الإحساس بأن النفوذ فاق كل الحدود في مارينا.. وهو النفوذ الذي تسبب عموماً في كثير من المشاكل والاحتكاكات.. وفي صيف ١٩٩٨ حسمت صراعات الحفلات بافتتاح المسرح الروماني المكشوف.. وتولت صحيفة «أخبار النجوم» برنامجه الغنائي.. فجاء مطربو الشباب.. وجاءت ماجدة الرومي.. وسميرة سعيد.. ولكن.. الغناء وحده لم يكن المشكلة.. المشكلة كانت في استئجار أماكن الأسواق المفتوحة.. بما تحققه من مكاسب كبيرة.. والمؤكد أن أبناء الأقوياء كانوا هم الفائزون.

وقد تحولت منطقة السوق القديمة إلى ما يشبه الأسواق الشعبية.. فول.. وشيشة.. وشباشب.. ولقمة القاضي.. وفطائر.. وبضائع ليبيا.. وزهور من البلاستيك.. في زحام لا يقل عن العتبة والموسكي.. وهو ما أزعج سكان مارينا الذين شعروا أن الصيف بالنسبة لهم أصبح جحيماً.. وصخباً.. وقلقاً.. ومشاجرات.. وكان أن عاد بعضهم لقضاء السهرات في العجمي الجديد.. ولكن مع الطرق المظلمة.. والقيادة المتهورة بدا أن الهروب من جحيم مارينا ثمنه مرتفع للغاية.. الحياة.

وفيما عدا الشباب الصغار.. يندر أن تجد أحداً في مارينا يسهر في مكان مفتوح خارج البيوت.. بيوت المعارف والأصدقاء.. السهرات في البيوت.. في دعوات متبادلة.. يتناولون فيها الطعام والنميمة.. وربما راح البعض يتمشى على الشواطئ المظلمة.. مسترشداً بضوء القمر.. وربما كانت السينما هي الحل.. ولكن.. تظل الدردشة هي أشهر الوسائل المارينية لقضاء السهرات.

ولأن مارينا مدينة مفتوحة.. لا أسوار حول البيوت إلا فيما ندر.. فلا أسرار.. ولا مغامرات ما لم تكن الأمور محسوبة.. ومدبرة بعناية وسرية.. على غير العجمي الذي لا يزال عالم المغامرات والمفاجآت الإنسانية.. ولكن.. معظم من في مارينا له قصة خاصة به.. جاء بها من عالمه.. ولولا مارينا ما كنا قد عرفناها.. بل ما كنا قد عرفناه هو نفسه.. ومن ثم فمارينا خليط غير متجانس من البشر.. على خلاف سكان القرى السياحية الأخرى التي يعيش فيها سكان يتسمون بالتجانس في الغالب.. خاصة القرى التي بنتها جمعيات لفئات خاصة.. مثل ضباط الشرطة.. أو ضباط القوات المسلحة.. أو أساتذة الجامعات.

وحتى نكمل الصورة.. لابد أن نسجل غضبنا.. من تلك الغابة من الأسمنت التى بنيت على أجمل شواطئ فى العالم.. وقد حرمت الخرسانة المسلحة الناس من رؤية البحر.. وهو حق يتيحه القانون والدستور.. فالبحر ملك للناس جميعاً.. إلا فى مصر.. ومن حق أى مواطن فى أى مكان فى العالم أن يتمتع بالبحر فى بلاده مهما كانت طبيعة المبانى المقامة عليه.. إلا فى مصر.. فالبحر أصبح ملكاً لمن يشترى «شاليه» من الأسمنت مقاماً عليه.

لقد كانت القرى السياحية أسوأ استغلال للساحل الشمالى.. وسامح الله المهندس حسب الله الكفراوى الذى كان السبب.. لقد كانت هناك دراسة لبيت خبرة هولندى اسمه «إيلاكو» كلفته بها وزارة التعمير فى عام ١٩٧٥ لتنمية الساحل الشمالى من العجمى إلى السلوم.. لكن كالعادة لم تنفذ.. ونفذنا ما جاء فى عقول المسئولين.. ألا يشعر المسئولون أنهم عباقرة.. ألا نشعر نحن أنهم كذلك حتى يتركوا السلطة؟

وحسب الدراسة الهولندية ـ التى تاهت وانقرضت فى مخازن النسيان ـ فإن فى الساحل الشمالى مناطق حددوها للزراعة.. والرعى.. وهو نشاط يقوم به البدو فى الصحراء الغربية.. وإن راح ينقرض بعد تجارة أراضى وضع اليد.. وتجارة البضائع المهربة من ليبيا.. بخلاف النشاط المزمن فى تجارة المخدرات.. وفى الدراسة أيضاً إنشاء صناعات زراعية مرتبطة بالنباتات الطبية والأعشاب والزهور والفواكه.. بخلاف صناعات البترول والغاز.. ويبدو أن هذا فقط ما أخذوا به.. ففى منطقة سيدى كرير أكبر مشروع لتكرير البترول تشارك فيه إسرائيل.. ويساهم فيه رجال أعمال من البلدين.. ومولته البنوك المصرية بأكثر من ثلاثة مليارات جنيه.. متجاوزة فى ذلك كل قواعد التسليف والائتمان.. وفى الدراسة كذلك.. يمكن استيعاب وتوطين أكثر من مليونى مواطن فى هذه المنطقة.. وبإنفاق أقل مما أنفقناه.. مع استغلال الساحل سياحياً.. فى مشروعات تجذب الأجانب قبل المصريين.. ولكن.. عبقرية المكان فقدت خصائصها فى ظل عشوائية البشر.. فكان ما نحن فيه الآن.

هذه خلفية المسرح التى يتحرك فيها أبطال هذا الكتاب.. وهم مجموعة من الشخصيات.. بعضها مشهور.. وبعضها مجهول.. وكلها حالات خاصة.. ولكنها تعكس أزمة المجتمع المصرى الذى يتصارع ويتنافر فى مارينا.. فى مرحلة حرجة من تطوره.. أو تغيره.. أو انقلابه على نفسه.. وقد وجدتنى أختار هذه الشخصيات

حسب معرفتى الدقيقة بها.. وهى معرفة بدأت قبل مارينا فى الغالب.. لكن كانت مارينا بحكم اللقاء والفراغ وفسحة الوقت للكلام هى المكان الذى راحت فيه هذه الشخصيات تكشف لى ما لا أعرفه عنها.. ولم تجد ما يمنع أن أحول حياتها إلى لوحات درامية.. مع كل حقوق الكاتب فى التحوير والتغيير.. ليس فقط لإخفاء شخصياته الحقيقية.. وإنما لأن هذا حقه أيضاً.. فالكاتب يملك امتياز الكلمة.. والكلمة هى الأداة الطبيعية للتعبير عن المشاعر الإنسانية.. والكلمات التى تسطر صفحات هذا الكتاب ليست أطفالاً بلا نسب. ولكنها تراث عاطفى واجتماعى وإنسانى.. يحمل كل ما يجرى للناس فى بلادى من أحداث وانفعالات.

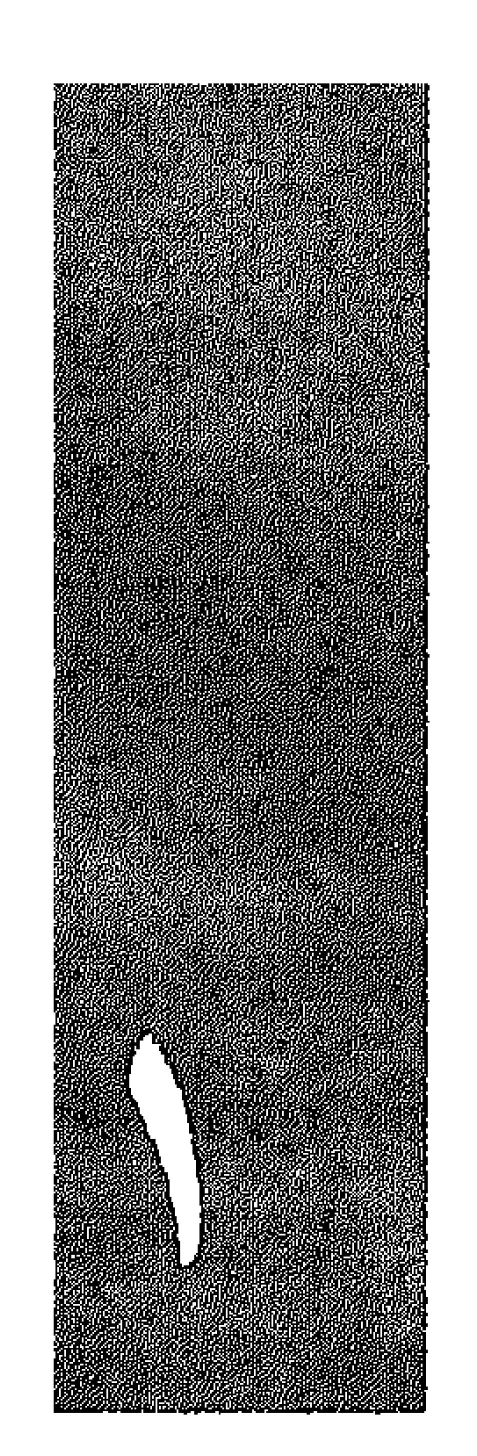
وربما ستحاول أن تعرف عمن أكتب.. وربما ستطلب من غيرك المساعدة فى حل الألغاز البشرية.. وربما تنجح.. ولكن غالباً لن تنجح.. وهذا ليس هو المهم.. المهم أن تتأمل هذه الشخصيات.. لتحل الألغاز الأصعب وهى: لماذا تتصرف على هذا النحو؟.. ما حجم تدخل الظروف فى تحولات الشخصية؟.. هل العيب فيها أم فى المجتمع؟

وللمرة المليون أردد.. مسكين هذا الوطن.. نختصر مساحته حتى يصبح أصغر من قمحة.. نختصره فى صفقة.. فى شمة.. فى شفطة.. فى شهقة.. نعصره بين أيدينا حتى لا يبقى من ثرواته سوى ما نملك.. ومن متعة سوى رغباتنا.. ومن بحاره سوى ما نملكه من ماء.. الوطن الذى نتعامل معه هو نصف وطن.. ربع وطن.. جزء من مليون من الوطن.. ولكن.. مهما كسبنا.. وربحنا.. فلن نشعر بالراحة.. أبطال هذا الكتاب أقوى دليل على ذلك.. فحاول أن تفهمهم قبل أن تحكم عليهم وحاول أن تفهم طبيعة العلاقات التى يتحركون فيها أكثر من أن تحاول كشف شخصياتهم لأنهم فى النهاية صور أدبية مستوحاة من الواقع.

وقبل أن تترك هذه المقدمة التى طالت أجدنى أشعر بالامتنان.. أن أهدى هذا الكتاب لصديق جاء إلىّ من زمن جميل.. هو الدكتور نصيف قزمان.. ليس فقط لأنه هو الذى أوحى لى بفكرة هذا الكتاب.. ولكن.. لأنك تشعر فى وجوده أن الدنيا مازالت بخير.. والوفاء بخير.. والصداقة بخير.. وأن الوجه والقلب هما كيان واحد.

عادل حمودة

مارينا - ربيع ٩٩



النوم مع الزجاج المكسور

كانت ماجدة الرومى تغنى.. أو تصلى.. لا فرق.. فهى دائماً تصلى وتغنى فى نفس اللحظة.. وعندما تسمعها لا تعرف هل أنت فى مسرح أم فى معبد؟.. هل صحيح أنها ترتدى فساتينها الملونة أم ملابس الرهبان الخشنة؟.. ولن تشعر بأى اختلاف حتى لو كانت تغنى تراتيل من أناجيل نبى جاء يبشر بحسية وحرية العشق.. هو نزار قبانى.

كانت تصرخ ملتاعة.. «ذوبنى» .. «ذوبنى» .. فى ذروة كلمات أغنيتها التى تروى لحظة عشق من امرأة تقابلها لحظة إهمال ممن تحب.. فقد.. «أخرج من معطفه الجريدة.. وعلبة الثقاب.. ودون أن يلاحظ اضطرابى.. ودونما اهتمام.. تناول السكر من أمامى.. ذوب فى الفنجان.. قطعتين.. ذوبنى... ذوب قطعتين.. وبعد لحظتين.. ودون أن يرانى.. ويعرف الشوق الذى اعترانى.. تناول المعطف من أمامى.. وغاب فى الزحام.. مخلفاً وراءه الجريدة.. وحيدة.. مثلى أنا وحيدة..» .

لم تكن تغنى على المسرح وإنما فى شاليه على البحيرة فى مارينا.. فى ليلة حفلتها الأولى فى المسرح المكشوف.. والمبنى على الطريقة الرومانية.. كانت وسط أصدقائها المقربين من الفنانين والشعراء والموسيقيين والصحفيين.. كانت قد دعتهم على وليمة «حمام محشو» على الطريقة المصرية.. الذى تحرص على تناوله بيدها كلما جاءت إلى القاهرة.. وحتى لو كانت فى جناح فاخر فى فندق على النيل.

كانت قلقة.. متوترة.. تخشى أن تفقد نجاحها فى مصر عندما تغنى فى مارينا التى لا تنجح فيها عادة سوى حفلات المطربين الصاخبين.. الصارخين.. الزاعقين.. الذين لا تعرف الفرق بين أصواتهم وأصوات موتوسيكلات «البيتش باجى» .. فكان أن راحت تخفف التوتر بركوب الدراجة متعددة المقاعد التى انتشرت فى مارينا.. هى والنجمة آثار الحكيم.. ثم راحت تلتهم الحمام المحشو.. بالفريك.. وتغنى دون موسيقى... «ذوبنى» .

فى تلك اللحظات تهامس الناس فى مارينا.. هل صحيح أن النجمة السينمائية المشهورة.. قد انتحرت؟

لقد جاءت مثل عشرات النجوم لحضور حفل ماجدة الرومى بدعوة من

الصحيفة الفنية التى نظمت الحفل.. مثلها مثل.. إلهام شاهين.. وآثار الحكيم.. ويسـرا.. وعبرت نادية الجندى.. ونونيا وشهرتها لبلبة الشارع سيراً على الأقدام.. لأنهما من سكان مارينا.

إن مارينا لم تجذب نجوم الفن كما حدث فى العجمى الذى لايزال يسكنه عادل إمام.. ويسرا.. وإيناس الدغيدى.. ولايزال مفضلاً لدى ميرفت أمين.. وإلهام شاهين.. وعمرو دياب.. وإن تركته فاتن حمامة وفضلت عليه الغردقة..

فى تلك الليلة ارتفع الهمس حتى كاد أن يغطى على صخب المساء فى مارينا.. هل انتحرت النجمة السينمائية المشهورة.. فعلاً؟

لا أحد كان قادراً على الجزم.. فهناك من قال أنه حملها غارقة فى دمائها بعد أن قطعت شرايينها.. وهناك من قال أنه شاهدها وهى تنطلق بسيارتها تقودها بنفسها بعيداً عن مارينا فى اتجاه الإسكندرية.. وهناك من أقسم أنها كانت فى العجمى ترقد فى أحضان ملياردير شاب لتنتقم من ملياردير شاب آخر كان قد هجرها.. ولم تفت الليلة بسهولة فى مارينا.. فخبر على هذا المستوى من الجاذبية لا يمكن أن يفوت بهذه السهولة.. ويصعب أن ينام الناس فى هذه البقعة الساحرة فى الساحل الشمالى دون كشف أبعاده.

والحقيقة التى عرفتها تبدو أشد حيرة.. وتضاعف من تعقيد اللغز.. ولا تحله.. فمن الممكن القول أنها انتحرت.. ولكن من الممكن القول أنها لم تنتحر فى الوقت نفسه.. أيضاً.

لقد جاءت شائعة الانتحار فى وقتها المناسب.. فقد هجرها الملياردير الشاب الذى عرفته فى مارينا.. كانت قصة مثيرة فى عالم البيزنس.. والفن.. والسهر.. والنميمة.. فهو شاب فى منتصف الثلاثينيات.. ويمتلك ثروة هائلة.. ولكن لا أحد كان يعرفه.. فقد كان بعيداً عن الأضواء.. وكان لا يتصور شيئاً فى الدنيا سوى المال والله وأطفاله.. ولذلك لم تكن الصحافة تعرف صورته.. وكانت الناس لا تعرف كيف تنطق اسمه لغرابة لقبه العائلى غير المتداول فى مصر.. على أنه فجأة أصبح شهيراً.. لقد اقتسم معها الفراش والشهرة.. وحصلت هى على نصيبها من الثروة.. إن الحياة لا تعطى الإنسان كل شىء.. ومن ثم فهو يقايض

ما يملك بما لا يملك.. الثروة مقابل السلطة.. الشهرة مقابل القوة.. ولم ينطبق هذا القانون على شىء كما انطبق على التحالف غير المقدس الذى يجرى كل يوم بين الأثرياء والوزراء.. من خلال زواج أبنائهم.. إن الأبناء الآن هم الذين صهروا السلطة والثروة فى سبيكة واحدة.. عليها خاتم القوة.. ومن ثم لم تعد الصحافة تعرف عندما تهاجم رجل أعمال.. هل سيغضب نسيبه الوزير.. أم سيمرر الهجوم.. وهو ما جعل الصحافة توفر على نفسها الصداع.. وتبتعد عن رجال المال ورجال الحكم.. ودون أن تدرى أو تدرك أصبحت طرفاً فى الفساد.. فالساكت عن الحق شيطان أخرس.. والشيطان الأخرس غالباً ما ينطق بعد قليل.. مطالباً بنصيبه من الكعكة.

لكنها.. كانت تريد الثروة.. هى تملك سلطة الأنوثة.. وتملك سلطة الشهرة.. وتملك سلطة السلطة.. فقد عرفت رجالاً.. يحكمون.. ويقدرون.. وذهبت إليهم فى مكاتبهم.. وشقق تتغير عناوينها فى كل مرة.. كانت تحملها سيارات متنوعة.. إلى أماكن مختلفة.. وهى لا تقول: لا.. بل إنها لم تشعر بالغضب عندما تجد نفسها تنتقل من جسد مهم إلى جسد مهم.. أو من مسئول قوى إلى مسئول أقوى منه.. فهى تشعر أن شحنات القوة والسلطة تنتقل إلى جسدها عبر لحظات الاندماج.. كأنها بطارية موصلة بالكهرباء.. كأنها برق يخترق اللحم.. ويعطيه طاقة وشجاعة وغطرسة وتميزاً.. وهى أشياء كانت تحلم بها.. بل هى أشياء تحلم بها كل امرأة ترى فى نفسها بصيصاً من الذكاء.

إن السلطة كانت وستظل عنصر جذب لا يمكن للنساء مقاومته.. لقد ذكر هنرى كيسنجر ـ الذى كان نجماً ساطعاً فى السياسة الدولية وقت أن تولى الخارجية الأمريكية ـ لمحمد حسنين هيكل: أنه اكتشف فجأة وبمجرد أن أصبح فى السلطة أن لديه «عوامل إثارة لم يعرفها عن نفسه من قبل.. ثم اكتشف أن لديه موارد طاقة لم يكن منتبهاً إلى وجودها فيه».. ثم استطرد حزيناً: أنه «بعد أن ترك السلطة وابتعد عن الأضواء راح يحس أن قوة سحره تقل.. وكان مستعداً أن يعزو ذلك إلى تقدمه فى السن لولا أنه تذكر من أيام شبابه الباكر وقبل الصعود إلى القمة أن تأثيره أو تفاعله مع هذا التأثير لم يكن متدفقاً إلى هذا الحد».

وهناك قول فرنسى شائع.. أن الأكفأ فى الحرب هو الأكفأ فى الحب.. وهو

قول تصعب ترجمته إلى لغة السلطة فى مصر.. فليس صحيحاً أن الاستمرار فى السلطة كان يعنى الاستمرار فى الفراش.. وهى تعرف ذلك جيداً.. فقد لاحظت أن رجال السلطة الذين طلبوها بإلحاح لا يكررون التجربة كثيراً.. إنهم يريدون التغيير دائماً.. لا يحتملون اكتشاف نفس الجسد مرتين.. ثم إنهم يريدون كل أنواع الإثارة الحسية.. العنف.. والجرى.. والقسوة.. والألفاظ النابية فى الفراش.. لقد صدمت عندما وجدت الرجل الوقور الذى يهز أى مكان يدخله عندما وجدته يستخدم قاموساً جنسياً ينضح بالسفالة.. ومن شدة المفاجأة كادت أن تضحك.. وشعرت برغبة فورية فى أن تتركه عارياً فى الفراش وتجرى لتروى ما سمعت لأصحابها.. وخطر على بالها خاطر شرير أن تضع جهاز تسجيل تحت الفراش وترسل بالشريط إلى إحدى صحف المعارضة.. ربما تخلصوا منه.. كما تخلصوا من قبل من وزير الداخلية الأسبق اللواء زكى بدر.. ولكن الوزير لم يقل ألفاظاً جنسية.. وإنما كانت ألفاظه خارجة عن حدود اللياقة فى التعامل مع الحكومة والمعارضة.

لكنها لم تسترسل فى خواطرها.. فقد وجدت على وجهها صفعة قوية.. جعلتها تعود إلى صوابها.. أو تعود إلى حماسها فى الفراش.

كذلك فإنها تعرف أن عمر الأنوثة فى عرف السلطة ليس طويلاً.. فرجالها الذين تجاوزوا الستين بكثير.. يفضلون النجمات الصغيرات.. وهن كثيرات.. كما أن لكل منهن الحق فى أن تشحن جسدها بكهرباء السلطة.. لكن.. ما أفزعها هو أن هناك من عشاقها المهمين.. السابقين.. من فاجأها بطلب غريب.. هو أن تتولى بنفسها توريد الفتيات والنجمات الصغيرات لهم.. إنها لم تقترب بعد من سن الأربعين.. ولاتزال مرغوبة.. ومثيرة.. ويمكن أن تساوى فى سوق المتعة الكثير.. وهى تقدر على فهم أسباب التغيير المستمر والوحيد الذى لا تجريه السلطة إلا فى الفراش.. أو فى النساء.. لكن أن تتحول إلى «قوادة» وهى فى قمة شهرتها وأنوثتها حتى لو كانت قوادة لرجال يملكون كل القوة فى أيديهم.. فهذا هو المستحيل بعينه.

فى ذلك اليوم الحار من أيام أغسطس أخذت سيارتها «الشيروكى» وانطلقت بها غاضبة.. ومسرعة إلى مارينا.. إنها تملك «شاليه» هناك.. لكنها حصلت

عليه مثلها مثل معظم المشاهير بالصدفة.. فى لقاء عابر مع وزير التعمير السابق المهندس حسب الله الكفراوى الذى كان يروج للمشروع فى بدايته.. وكان يعتبر وجود المشاهير فيه هو أفضل دعاية له.. وقد حصلت على الشاليه بسهولة.. ولم يكن من الصعب تدبير ثمنه.. لكنها أغلقته.. ونسيته.. وقد خطر على بالها فى ذلك اليوم عندما مرت على كاتب السيناريو وحيد حامد فى مكانه المعتاد منذ سنوات فى كافتيريا فندق «الميريديان» على النيل ولم تجده.. إنه لا يفوت يوم لا يذهب فيه إلا إذا كان مريضاً أو مسافراً فى رحلته السنوية إلى مهرجان كان.. أو إلى الإسكندرية لحضور مهرجانها السينمائى الصيفى.. ففى هذا المكان الذى أصبح صالوناً ومكتباً.. يكتب فيه أفلامه ويستقبل فيه أصدقاءه.. ويدير منه مصالحه.

قالوا لها أن وحيد حامد فى مارينا.. وقبل أن تبدى دهشتها.. أضافوا أنه قرر أن يفتح الشاليه المغلق الذى يمتلكه هو وزوجته مقدمة نشرة الأخبار اللامعة فى التلفزيون المصرى زينب سويدان.. إنه كان فى حاجة إلى شجاعة ليتخذ هذه الخطوة ويذهب إلى مارينا.. فهو من النوع الوفى لعاداته.. وأماكنه.. ويصعب عليه تغييرها.. لكنه.. فجأة.. ودائماً هناك كلمة فجأة فى أوراق كتاب السيناريو.. قرر التعامل مع مارينا.. وهى أيضاً قررت السفر إلى مارينا.. أليس ما يكتبه كاتب السيناريو ينفذه الفنان؟.. إن ذلك يحدث على الشاشة.. فلماذا لا يحدث فى الواقع.. فى الحقيقة..

وأخذت سيارتها وانطلقت بها مسرعة.. وكأنها قد وجدت مبرراً لسفرها إلى مارينا.. وهو البحث عن وحيد حامد.. وإخراج ما فى صدرها إليه.. إن كاتب سيناريو حساساً ومثقفاً.. ويعرف الكثير.. ويريد أن يقول الكثير فى أفلامه مثل وحيد حامد لابد أنه سيستمع إليها جيداً.. ولعله يستفيد مما سيسمع.. ثم لماذا لا يرسم لها سيناريو جديداً لحياتها؟.. هى فى حاجة لهذا السيناريو.. هى فى حاجة إلى وحيد حامد.. فلتذهب إليه فى مارينا.. فلتذهب إليه فى آخر الدنيا.

وعلى طريقة السينما.. هى فرصة والبطلة تنطلق بمفردها فى سيارتها بعيداً عن القاهرة بحوالى ثلاثمائة كيلومتر أن تستعرض ما مر بحياتها.. فهى فى أزمة.. والإنسان فى الأزمات لا يتردد فى نكش حياته.. وتمزيق كفن الحرير

الذى يغطيه.. ويحاول أن يرسم خريطة مشاعره وهواجسه.. وهى تقود سيارتها فى الطريق الصحراوى.. والقيادة فى الطرق السريعة تجعل حياة الإنسان تضيق وتتسع.. ترتفع وتنخفض.. تنطلق بجنون وتفرمل دون سابق إنذار.. وهى كانت فى تلك اللحظات فى أشد الحاجة لأن تعرى نفسها أمام نفسها.

ومن المؤكد أنها راحت تتحدث لنفسها كما لو كان هناك شخص آخر تكلمه.. والحقيقة أنها كانت تكلم أكثر من رجل مروا بحياتها.. وتداخلت ملامحهم.. حتى أصبحوا شخصاً واحداً.. فنحن فى حياتنا الخاصة نكرر نفس الخطأ عشرات المرات.. ولا نتوب عن الخطأ إلا إذا كنا لا نقدر على ارتكابه من جديد.

وجدت نفسها تقول بصوت ربما ارتفع قليلاً عن الهمس.. كفانا نفاق.. لم أعد أستمتع بالعناق.. قبلاتك باردة لا تطاق.. كفانا نفاق.. فنحن نحملق فى بعضنا البعض فى غباء.. لا دخل لفشلنا فى أقدار السماء.. فالجنس مخلوق همجى.. ملتهب.. لا يعرف الوفاء.. لقد جاءت اللحظة الفاصلة التى علينا أن نعلن فيها أن حياتنا كانت فاشلة.. هى لحظة فاصلة فى حياة فاشلة.. فما جدوى الكلمات.. ومصير كل شىء الآن هو سلة المهملات.. مهما سودت من صفحات.. فمصيرها ومصيرى سلة المهملات.

إن ألوانها ليست حزينة.. حياتها هى الحزينة.. لحمها الأبيض لا ينفى أن أيامها فى معظمها سوداء.. ابتسامتها الدائمة تخفى تحتها أنيناً مكتوماً.. هى جثة ابتسامة وليست ابتسامة.. وقد تدربت عليها حتى أتقنتها.. فالتمثيل ليس فقط أمام الكاميرا.. التمثيل الأصعب فى الحياة أمام الناس.. ودون نص أو سيناريو سابق كتبه وحيد حامد.. آه لو حققت أمنيتها الغالية وبترت شفتيها.. وقطعت ثدييها.. وشوهت جسدها.. وأزالت الرحم.. إن أحداً لا يصدق أنها تتمنى ذلك.

لقد كانت نتاج معادلة غريبة.. الفقر والجمال.. الجوع والروعة.. ولكن الجمال يقلل من عدد البائسين.. والروعة تفتح الأبواب المغلقة للثروة.. وربما لغيرها من الشهرة والسلطة والقوة والمنعة.. على أن الجمال وحده لا يكفى.. فالمرأة الجميلة دون ذكاء قد تذهب كما تأتى.. ويمكن أن تقنع جسد الرجل لكنها قد لا تقنع عقله.. الجمال ليس شرطاً كافياً للنجاح فى الحياة.. المرأة الذكية هى التى

تترك شرخاً فى قشرة رأس الرجل.. هى التى تحدث خلخلة فى إيقاع أيامه.. وفى نظام الدنيا التى تعيش فيها.. هى التى تلغى حركة الزمن وتربط الآخرين بزمانها.. وإلا أصبحت مجرد خدش بسيط على سطح الجلد أو على سطح الزجاج.

كانت لا تكف عن القراءة والمذاكرة.. كانت فى أعماقها تريد أن تصبح امرأة قوية.. ثرية.. مسيطرة.. لكنها أمام الناس كانت تعلن أنها تريد أن تصبح طبيبة.. أو سفيرة.. أو مهندسة زراعية. ويبدو أن اختلاف الصورتين هو ما جعلها تكتشف فيما بعد قدرتها على التمثيل.. قدرتها على إقناع الناس بموهبة الخروج عليهم بأكثر من وجه.. وأكثر من قناع.. دون أن تضطرب أو تهتز أو تشعر أنها ليست هى.. أو أنها تمثل.

لكن.. ما جرى لها فى سن السابعة عشرة قلب حياتها.. تماماً.. فى هذه السن نكون على استعداد لأن نحب أول شخص نصافحه.. فى هذه السن تكون شبكة العين مستعدة لالتقاط أى شعاع ضوء يلامسها.. مثل رمل مارينا فى الصيف المستعد لامتصاص أية قطرة ماء تسقط عليه فوراً.. وهذا ليس حباً.. وإن تصورنا أنه حبنا الأول والأخير.. وأحياناً نحن نحب لنثبت قدرتنا على أن نكون معشوقين.. ولنؤكد أهميتنا وذواتنا.. وهذا ليس حباً وإنما نوع من النرجسية.. وقد سمعت من نزار قبانى مرة.. أننا فى بعض الأحيان «نحب هرباً من الفراغ والضجر فنعشق أول امرأة نصادفها فى المصعد.. أو فى القطار.. وهذا ليس حباً وإنما هو العثور على محفظة فى الشارع بعد إفلاس».. وقرأت له.. أننا فى أحيان أخرى «نحب المضيفة التى تبتسم لنا فى الطائرة أو الممرضة التى تضع فى فمنا ميزان الحرارة فى المستشفى.. وهذا أيضاً ليس حباً ولكنه هلوسة مصدرها الضغط الجوى.. أو ارتفاع الحمى».

والرجل عادة أكثر تعرضاً لمثل هذه الاختلاطات الخطيرة من المرأة.. فالمرأة لا تتوهم أبداً.. إن رؤيتها أوضح.. وبصيرتها أعمق.. وهى بحاستها السادسة تستطيع أن تكشف أوراق الرجل الذى يطارحها الغرام.. وتعرف على أى أرض تضع قدميها.. ومن أكبر الأخطاء شيوعاً أن المرأة أسهل وقوعاً فى الحب من الرجل.. وأنها أقل مقاومة أمام الانفعالات العاطفية.. وهذا غير صحيح أبداً..

فالمرأة تبقى محتفظة بتوازنها ورباطة جأشها حتى فى أعنف ساعات الهوى.. أما الرجل فهو يدخل مرحلة الهذيان منذ اللحظة الأولى.. وينكسر عشرين ألف قطعة.. وحتى حين تضيع المرأة رأسها وتذهب مع الرجل إلى آخر الشوط فإنها تفعل ذلك وهى واعية ومدركة تماماً لما تقدم عليه.. إنها لا تفاجأ بشىء.. فعقلها وجسدها دائماً فى حالة استنفار وتوقع.. إن فى داخلها نوعا من الكومبيوتر يحسب بسرعة مذهلة كل الاحتمالات.. ابتداء من لحظة تعارفها بالرجل إلى شكل «فستان» الفرح الذى سترتديه.. إلى أسماء الأطفال الذين ستنجبهم.. ونوعية المدارس التى ستعلمهم فيها.

لكنها.. فى سن السابعة عشرة لم تكن تعرف ذلك.. لسبب بسيط هو أنها لم تكن امرأة ناضجة بعد.. كانت لاتزال طفلة.. حتى لو بدت فى جسد امرأة.. كان جسدها يسبق سنها.. وكانت أنوثتها تغطى على طفولتها.. ثم إنها لم تعش طفولتها.. الفقراء لا يعرفون الطفولة.. فقد كان عليها أن تساعد أمها فى توصيل ملابس الزبائن التى تقوم بحياكتها.. وهى سعيدة أنهم يسكنون فى عمارة شهيرة فى الزمالك.. حتى لو كانوا فى غرفتين فوق السطح.. وهى سعيدة أن أمها ترسلها للزبائن الذين يسكنون فى العمارة.. وهؤلاء أكثر سخاء وكرماً.. كما أن مطالبهم ليست كثيرة.. ملابس الشغالات والسفرجية.. ثم إنها عرفت عندهم مذاق اللحم والتورتة.. وأنواع غريبة من العصائر.. وعاشت على ما يهملونه من ثياب.. ليست قديمة أو بالية.. وإنما فاتت شهور على موضتها وخطوطها.. ولأنها حلوة.. وملفوفة القوام.. وتذهب إلى المدرسة.. وتتكلم اللغة الإنجليزية.. فقد بدت كواحدة من السادة.. لا من الخدم.. ولم يكن معظم الناس خارج العمارة يعرفون حقيقتها.. وهو ما كان يضفى على مشاعرها الكثيرمن أحاسيس الثقة فى النفس.

ولكن.. ما حدث فى دقائق معدودة.. دمر هذه الثقة تماماً.. ليس وهى فى سن السابعة عشرة فقط.. وإنما طوال عمرها.

كانت توصل شيئاً ملفوفاً فى أوراق جرائد.. من أمها إلى إحدى الساكنات فى العمارة.. لكنها لم تجدها.. وجدت زوجها.. ضابط الشرطة القوى الذى تهتز له العمارة.. بل يهتز له الحى كله.. فهو شديد القسوة.. صارم.. لا يبتسم.. يعامل

سائقه.. والبواب.. والشغالة.. معاملة العبيد.. وينهر الصغار.. وينظر نظرة احتقار للكبار.. ويجبر زوجته على مقاطعة الجميع.. فى اللحظة التى فتح فيها الباب.. سقط قلبها فى قدميها من الرعب.. وجرت من أمامه هاربة.. كأنها ترى الموت.. لكنها تسمرت فى مكانها من رعب أشد عندما سمعت صوته.. يستوقفها.. ماتت فى جلدها.. نشف دمها.. أحست أن جسدها فقد طوله.. وعرضه.. واستدارته.. وأنها أصبحت مجرد خطوط فارغة من التفاصيل فى الهواء.. كأنها أصبحت مثل رسومات الأطفال الذين لا يجيدون الرسم.. ومثل هذه الرسومات لا تقوى على الحركة.. لا تقوى على الصراخ.. لا تقوى على تغيير مصيرها.. وكل ما عليها هو انتظار من وضعها فى هذا الموقف.. أن ينقذها.. أو يمحوها بأستيكة.

وهى لا تتذكر ما حدث.. الخائف.. والمفزوع.. والمرسوم بقلم رصاص لا يتذكر ما يحدث له.. كل ما تتذكره.. أنها شدت من شعرها.. وأنها غابت عن الوعى.. وعندما أفاقت وجدت نفسها ممزقة الثياب.. ملقاة على السلم.. تشعر بألم هائل فى جسدها.. وفى نفسها.. وفى أعماقها، كانت تدرك أن ثمة مصيبة مروعة قد احتلتها.. وأن التخلص من هذه المصيبة لا يمكن أن يكون إلا بالتخلص من حياتها.. إلا بالموت.

إنها لا ترى الموت شيئاً مفزعاً.. الصغار لا يخافون الموت.. الكبار هم الذين يخافونه.. الصغار والصوفيون والرهبان يرون الموت أجمل الطرق للذهاب إلى جنة الله.. ولكنها فى تلك اللحظات كانت ترى الموت هروباً من القسوة والألم.. كانت تراه إنقاذاً من فضيحة.. فعلى جسد المرأة يكتب الناس قواعد الخير والشر.. ومبادئ الأخلاق.. ويعلقون لافتات الشهامة.. وهى رغم طفولتها الفائرة فهمت من التحذيرات التى لا تنتهى من كل من حولها.. أن هناك ربطاً بين جسد الأنثى والعيب والعار والحرام.. والموت أيضاً.. فلماذا لا تقرر بنفسها.. الموت.. بدلاً من أن يفرض عليها.. ستكون الإدانة من نصيبها.. بلا محاكمة.. ولا أدلة.. ولا شهود.. ثم من الذى يقدر على الكلام مع هذا الرجل الذى يحول حياة كل من يمر عليه إلى أملاح وكوابيس وهلاوس؟

كانت تجلس إلى جانب صفيحة القمامة عندما قررت الموت.. ولم يكن من

الصعب أن تجد فى القمامة أداة مناسبة للموت.. ووجدت زجاجة فارغة تطل بفمها الضيق وجسدها الممتلئ.. موحية لها بما تراه فى الأفلام المصرية.. وبقوة لم تكن تتوقعها فى نفسها.. أمسكت بفم الزجاجة.. وكسرتها على السلم.. ثم بهدوء بدا مثيراً للذهول.. أمسكت بقطعة من الزجاج المدبب.. فردت ذراعها.. وقبضت أصابع يدها حتى نفرت الشرايين.. ثم.. راحت تمزقها.. وكان أن غابت عن الوعى مرة أخرى.

ليس من الصعب أن نستنتج أنها لم تمت. وإلا ما كان لها.. أو لحكايتها قيمة.. أو ذكر.. أو وجود لو ماتت.. كانت ستكون مجرد خبر صغير فى صفحة الحوادث.. يتحدث عن انتحار مراهقة صغيرة بقطعة زجاج مدببة بعد أن فرطت فى شرفها.. ويمكن أن تتباكى الصحافة على هذا الزمن الذى فقدنا فيه البراءة.. وأصبحت فيه الفتيات أكثر شراسة.. فأصبحن ينتحرن بقطع الشرايين.. لا بأقراص الأسبرين..

لكن.. ما كان من الصعب استنتاجه هو أنها عندما أفاقت من غيبوبة الانتحار وعادت للحياة.. شعرت أن شخصاً آخر يحتلها.. يسكنها.. يسيطر عليها.. وأن هذا الشخص لا يهدأ فى المواقف الصعبة والأزمات النفسية إلا إذا جرحت نفسها بالزجاج.. سالت الدماء.. مثل الذبائح.. إنها تشعر أن الألم يخرج مع الدم.. والوجع يتدفق مع حياته الحمراء التى فى لون زهور القرنفل.

لقد أدمنت الزجاج المكسور.. والجرح.. والدم.. وفصد الألم.. ولم تعد تشعر بالوداعة والرقة فى الحياة.. بل كان يمتعها العنف.. سواء كان من نصيبها.. أو من نصيب غيرها.. سواء رأته فى الواقع.. أو على الشاشة.. سواء مارسته بنفسها.. أو وجدته جاهزاً.. سواء كان فى ضوء الشمس.. أو فى فراش مظلم يضيئه نور القمر.. واشتهرت عنها هواية كسر الأشياء والبشر.. كل شىء قابل للكسر.. فالشىء المكسور يعبر عن نفسه بالصراخ.. وهى تحب أن تصرخ.. وتحب أن تسمع الصراخ.

وهى لم تتغير بعد أن أصبحت نجمة.. بل ربما ازدادت شراهة فى التعامل مع الدم والزجاج والكسر والصراخ.

وليس فى حياتها كنجمة ما يثير الانتباه.. فجمالها كان كارت التوصية الذى فتح لها غرف النوم.. ثم غرف التصوير التى تسمى بلغة السينما.. الاستوديوهات.. أو البلاتوهات.. وهى عندما فعلت ذلك لم يكن لديها ما تخسره.. وربما وجدت ما تكسبه.. كذلك فإنها لم تكن تعرف المتعة ولا كانت تشعر بها.. كانت تؤديها ببراعة كما تؤدى مشهداً فى فيلم.. كانت متعتها الحقيقية عندما تتعرض لعنف ما فى الفراش.. أو فى الحياة.. ثم.. تمسك بقطعة زجاج وتجرح به جسدها.. أو تشوهه.. الدم والألم يدغدغان أعصابها.. فتصل إلى ذروة المتعة التى يصل إليها الآخرون بالكلمة الناعمة.. واللمسة الحانية.. والقبلة الساخنة.. والمسكة القابضة.. واللحظة الفاصلة.

وهى تعرف أنها مريضة.. لكنها تخشى أن تذهب إلى الطبيب النفسى.. هى تخشى الفضيحة.. فالصحافة لا تترك نجماً فى حاله.. وصراع النجمات يمنحها الفرصة لمزيد من التدخل فى حياة النجوم الخاصة.. ثم إن ذلك سيحرمها من أن يأتى إلى فراشها المشاهير والأثرياء والأقوياء وهى تريدهم جميعاً.. فكان عليها أن تمثل وهى تستقبلهم.. وتغريهم.. وتعريهم.. تودعهم وقد أقنعت كلاً منهم أنه أقوى من عرفت من الرجال.. حياتها تمثيل فى تمثيل.. وكذب فى كذب.. وعنف فى عنف.. ودم فى دم.

والمذهل أن الناس كانت تتصور أنها الأكثر رومانسية فى الحياة.. ليس بسبب الأدوار العاطفية.. الناعمة التى تحترف تقديمها على الشاشة.. وإنما لشهرتها فى الانتحار.. فقد ضربت رقماً قياسياً فى الانتحار.. مرة على الأقل فى السنة.. أو بعد أن تدخل فى علاقة ما.. مع شخص ما.. ويعرف الناس بأمرها.. ولم يكن الناس يعرفون أن الانتحار كان دائماً محاولة شديدة العنف للحصول على المتعة.. محاولة لم تتحكم فيها وهى تمزق لحمها بقطع الزجاج.. إنها مثل مدمن الهيروين الذى يتعاطى جرعة زائدة منه فتوصله إلى حافة الموت.. وقد كانت فى كل مرة عرف عنها أنها انتحرت.. تحصل على جرعة زائدة من الجرح والدم والألم.. ولله فى خلقه شئون.. أما خلقه فليس لهم سوى الشجون.

لقد كانت تصف نفسها بأنها ذبيحة مقدسة.. وهو وصف لا معنى له.. فالذبائح المقدسة هى الذبائح التى كانت تقدم للآلهة فى معابد الديانات القديمة.. لكنها.. ربما كانت من فتيات الدعارة المقدسة.. وهن الفتيات اللاتى كن يقدمن

أنفسهن للغرباء فى المعابد مقابل قطعة واحدة من المال تأخذها وتقدمها للآلهة بعد أن تضاجعه.. وقد كان محرما عليهن رفض المال ولا رفض صاحبه.. ثم.. ما أن تنتهى المرأة من هذه المهمة المقدسة حتى تترك المعبد.. وتعود إلى المجتمع.. وتتزوج.. وتسهل المقارنة الآن بينها وبين بغايا المعابد.

لكنه.. الإنسان.. الذى يحاول إضفاء الصفات المقدسة على تصرفاته.. حتى لو كانت هذه التصرفات تمتلئ بالعفن والطين.. بالغبار والغباء.

فى ذلك اليوم.. لم تجد وحيد حامد فى مارينا.. كان قد عاد إلى القاهرة بعد أن ترك بعض العمال فى بيته الصغير هناك.. ورغم أنها أحست بالإحباط.. لكن هذا الإحساس لم يستمر طويلاً.. فقد وقعت فى هوى المكان.. وسقطت فى سحره.. لقد شعرت أنها خرجت من النفق.. وعبرت القلق.. وشطبت الكثير الذى لم تكتبه على الورق.. أحست بتوحد مع المكان.. وبصراحة شديدة واجهت نفسها.. إنها ليست سوى عروسة من عرائس المولد.. أو عرائس السكر.. يستمتع الناس بالتهامها.. بينما هى تتكسر.. وتتوجع.. وتتلوى.. وتتألم.. وليس لحياتها معنى أو مغزى.. ولن يكونا فى حياتها إلا لو تخلصت من عروسة السكر.. وكسرتها هى بنفسها.

وفى هذه اللحظة تمنت أن تحب.. لا أقول أنها قررت أن تحب.. فالإنسان لا يجرؤ على هذا القرار.. ولو تجرأ وأصدره لنفسه.. بالقطع سيفشل فى تنفيذه.. ولكن.. فى هذه اللحظة وجدت من تحب.. فهل كانت أبواب السماء مفتوحة.. أم أنه الوهم الذى يتجسد أمامنا كالسراب فى الصحراء.. كلما أردنا الماء ونحن فى شدة العطش.. إن هذا ما روته لى بنفسها وهى تفتح خزائنها على مصاريعها.. فى نفس المكان الذى التقيا فيه أول مرة فى مارينا.. على شاطئ البحر.. بالقرب من شاليه الدكتور يوسف إدريس.

إن اسم يوسف إدريس من أعلام مارينا.. فهو من أوائل الأدباء الذين فروا إلى هنا.. بعيداً عن صخب الإسكندرية.. وقد جاء لزيارته فى الشاليه حسنى مبارك.. وكان معه الرئيس السورى حافظ الأسد.. ومثل أى فلاح مصرى يزوره الناس فى بيته.. أعد لهما الشاى.. وحاول المستحيل ليتناولا معه الغداء.. وقد أصبح الشارع الذى يقع على ناصيته الشاليه يحمل اسمه بعد وفاته.. كذلك فإن الشاليه

ظل عامراً بأسرته.. زوجته.. وأولاده.. وأصحابه.. ولم تفقد أسرته ما تعلمته وورثته من عناد عنه.. فقد وقفت بالمرصاد وبالقضاء لخليفة حسب الله الكفراوى فى مارينا.. وزير التعمير التالى إبراهيم سليمان.. لقد قاموا من نومهم ليجدوا هيكلاً خرسانياً إلى جوارهم.. يقتحم عليهم حياتهم وخصوصيتهم.. فلجأوا إلى المحاكم.. وبقى الحال على ما هو عليه.

أمام شاليه يوسف إدريس.. بالضبط.. قابلته.. كانت الشمس على وشك السقوط فى البحر.. والليل يحاول أن يفرض إرادته على الضوء بصعوبة كما هو الحال عادة فى الصحراء.. وسعى الليل إلى تقديم رشوة.. نسمات طرية.. حتى يقنع الناس بالتعاطف معه ومواجهة النهار.. والتخلص منه.. خاصة أن عمر الليل فى الصيف.. أقصر.

كان يمارس رياضة الجرى.. بينما كانت هى تمارس رياضة التحرر من قيودها.. على الأقل لمدة ساعات حتى تعود إلى القاهرة.. التقت عيونهما.. فأحس كل منهما أنه يعرف الآخر.. ويمكن أن نستغرب لو عبرت هى عن هذا الإحساس.. ولكن.. لن نستغرب لو عبر هو عنه.. فهى نجمة.. ومعروفة.. ولابد أن يعرفها.. ولكننا لا نقصد ذلك النوع من المعرفة الصامتة.. البعيدة التى تسببها الشهرة.. وإنما نقصد المعرفة الحية.. القريبة.. المبنية على تجارب مشتركة.. وذكريات قديمة.. نقصد المعرفة التى تجمع العشاق على أشياء سابقة.. عاشوها فى حياة أخرى.. مع أنهم لم يلتقوا من قبل.. فعندما نحب.. نشعر أننا نعرف جيداً من نحب.. وأننا سبق أن عرفناه.. ورأيناه.. وتكلمنا واندمجنا معه.. نشعر أنه ليس غريباً عنا.. وأننا عندما التقينا.. كان ذلك على موعد أخذناه منذ زمن لا نعرفه.

النظرة الأولى أحدثت الكهرباء المطلوبة.. لكنها لا تكفى عادة.. فلا أحد يصدق أنه يمكن أن يحب من نظرة واحدة.. ولابد أن يرفض.. ويقاوم.. ويتمنع.. خاصة المرأة التى تؤمن فى عمق نفسها أن الأنوثة التى تعيش على السطح.. لا عمر لها.. ولا قيمة لها.. وأن الأشياء الثمينة هى الأشياء الصعبة.. وربما المستحيلة.

يمكن أن نصدق ما قالته هى بنفسها فيما بعد.. وهو أنها وجدته فى أكثر من مكان.. خلال ساعات قليلة.. أمام مطعم «السيجال».. فى محطة البنزين القريبة من مارينا.. فى استراحة الماستر فى منتصف الطريق الصحراوى.. ولم تهتم بتفسير ذلك.. فمادام قد أسعدها.. فلا مبرر للغضب.. ومن ثم لا مبرر للتفسير..

وعندما تكون الصدفة أو المطاردة ناعمة ومكثفة على هذا النحو.. فليس هناك سوى أن تتطور النظرة والدهشة إلى ما هو أبعد من العلاقات الهشة.. وحتى لا نصاب بالملل الذى تسببه المقدمات الطويلة للقصص الرومانسية.. نقول أنه ترك سيارته لسائقه.. وركب معها.. وعادا معاً إلى القاهرة.. ذهبت إلى مارينا بحثاً عن صديق.. ورجعت منها ومعها حبيب.. غريبة هذه الدنيا.. تعاملنا بشح وقسوة وتغلق كل الأبواب فى وجوهنا.. ثم وفى عز الظلام تعطينا مفاتيح مخازن مكدسة بالشمع.

ويبدو أننا لسنا فى حاجة لمعرفة مهنته وثروته ومكانته الاجتماعية وحياته الخاصة.. فهذه أشياء لم تعد تلفت انتباهها.. بل ربما كانت تهرب منها.. هى تريد رجلاً.. لا يؤمن أن الرجولة تقوم على الكسر والغزو وتحقيق البطولات فى الفراش.. تريد رجلاً يشطب اسمها من قائمة الطعام.. أو قائمة الفراش.. ويضعه فى قائمة الحنان.. تريد رجلاً يقدر على فك أسرها.. وفك عقدها.. ويغطيها بصدره.. ولا يفترسها بأسنانه.. ولا يذلها.. بقسوته.. إن العنف الذى تدمنه لا يعنى أنها عدوانية.. وإنما يعنى أنها خائفة.. مفزوعة.. إنها مثل حيوان «القنفد».. كلما ازداد إحساسه بالخوف.. كلما ازدادت قسوة أشواكه.. فمن يهدئ من هذه الأشواك.. ومن يقتلعها من جذورها.. ومن يحولها إلى فراء ناعم.. أو شال من الحرير؟

كان قادراً على منح الفرح لكل ما حوله.. السيارة.. شرائط الكاسيت.. الشوكة والسكين.. الكلمات.. المرآة.. البيانو.. لوحات عدلى رزق الله التى يهوى ألوانها المائية الساخنة.. الصحف السخيفة التى لا تمل من تكرار نفسها.. الصخب الذى يحطم الأعصاب.. الكذب الذى يعبر عن نفسه فى كل مكان.. والفراش البارد الذى ينقلب إلى رغبة دموية قد تنتهى بالموت.

لم تكن فى حاجة لأن تقول له أنها فى حاجة إلى عاشق يقدر على إشعال النار فى قلبها الذى تحول إلى قلب من حطب.. متعب.. مهزوم.. مكسور.. مدبب مثل الزجاج.. بارد مثل الرخام.. مستقيل من الأحاسيس والمشاعر.

لم تكن فى حاجة لأن تطلب منه أن يسامحها.. إذا خذلته فى الحب.. فهى تشبه النساء.. لكنها.. لا تشبه العشاق.. وسيف أحزانها فتح فى روحها ثقوباً..

وخفف من حماس جسدها.. وقتل فى عروقه الاشتياق.. وحاولت أن تعتذر عن جرائم ارتكبتها وجرائم لم ترتكبها.. ولم تقبل أن تمنحه متعة مزيفة.. متعة تعودت على أن تؤديها أمام الكاميرا.. وخلفها.. لأول مرة قررت ألا تغش فى الفراش.. لأول مرة لا تستطيب النفاق.. لأول مرة تعترف.. أن الجنس بلا مزاج.. هو عار.. وخروج عن الأخلاق.

لم تكن فى حاجة لأن تعلن له أن ظنه سيخيب فى الفراش.. فكل ما فعلته فيه.. دمرها.. جففها.. فرولها.. جعل عواصفها هامدة.. وعواطفها خامدة.. وزوابعها ساكنة.. وحرائقها باردة.. وأمطارها شاحبة.. وحروبها خاسرة.. ومشاعرها بخيلة.. باختصار.. أعلنت أن ليس لديها فى الأمر حيلة.

وأقنعها بالسفر للعلاج فى سويسرا.. بعيداً عن العيون وصفحات النميمة.. فهى حالة من الحزن نادرة.. وسافرت.. ونشرت الصحف أنها فى باريس لشراء ملابس مسرحيتها الجديدة.. ونشرت مجلة لبنانية توزع فى القاهرة أكثر مما توزع فى بيروت صورة لها وهى فى باريس.. أخرجتها من الأرشيف.. وقد أسعدها لأول مرة أن تنشر الصحف أخباراً كاذبة.. مفبركة عنها.. إنها لعبة القدر الذى لا يريد أن يفضحها.

ولم يكن العلاج سهلاً.. لكنه لم يكن مستحيلاً.. أيضاً.. وكان الدليل الوحيد على نجاحه.. هو أن تستمتع بالحب.. لا بقطع شرايينها.. أن تتنازل عن رغبتها فى إزالة الرحم.. وأن تحبه.. أن تحلم بإنجاب طفل ممن تحب.. فى لحظة حب.. أن تشعر فى هذه اللحظة بمطر من كل الألوان.. أحمر.. أخضر.. أصفر.. بنفسجى.. مطر يروى الرمال الحارة.. يمنحها الرطوبة.. ويجهزها لاستقبال البذور.. ليتحول الفراش إلى حقل قمح وتين وكريز وفل وفستق وياسمين ومانجو... و... أطفال.. ليتحول الفراش إلى سماء صافية مزروعة بالنجوم.. لا الغيوم.. بعرائس الضوء.. بعصافير الجنة.. لا بطيور النار.

هل قام بدور المعلم فى الفراش.. هل يصدق أحد أن المرأة التى يعبدها الرجال ويضعون صورتها تحت سراويلهم.. أمية فى الفراش.. تحتاج لمحو أميتها.. تحتاج لفتح مسامها.. تحتاج لتهوية جسدها.. تحتاج أن يتعلم هذا الجسد الهجاء.. ألف فاتحة.. المتعة.. راء ضمة.. الروح.. تاء شدة.. توافق.. تحتاج لجمع مذكر

سالم أو سليم.. لا لجمع تكسير.

فى طريق العودة إلى القاهرة توقفا فى باريس.. جاءا من حياد السويسريين إلى حيوية الفرنسيين.. ورفضت هذه المرة أن تنزل فى فندق «الماريوت» الذى يطل على الشانزليزيه.. والذى يمتلئ دائماً بالمشاهير من العرب والمصريين.. ولعل السبب هو براعة مديره المصرى الذى يعرف يحيى المشد، الذى يعرف كيف يوفق بين رغبات الشرقيين.. وقواعد وأصول الغربيين.. لم تنزل فى الماريوت هذه المرة.. فهى تريد أن تعود إلى طبيعتها البشرية.. وأن تمزق ولو مؤقتاً شهرتها الفنية.. نراحت معه إلى بنسيون صغير فى الشوارع الخلفية للشانزليزيه.. وهناك ولدت من جديد.. بين أصابعه.. وفى أحضانه.

وهى تتذكر الوقت بدقة.. يوم الأحد ٢٥ يوليو.. الساعة العاشرة والربع.. تماما.. وهى تتذكر التفاصيل بذاكرة لم تتصورها فى نفسها.. تتذكر ألوان الستائر.. والفراش.. والحمام.. والثياب التى لبستها.. والتى خلعتها.. وأنواع الطعام.. وما بقى منه.. وحرصت على معرفة كل شىء عن زجاجة النبيذ.. ماركتها.. عمرها.. شهرتها.. ومكان زراعة محصول الكروم الذى جاءت منه.

شربت كأساً.. فتحولت عيناها إلى شمس.. دافئة.. واسعة.. شربت كأساً أخرى.. فشعرت أن النبيذ يختلط بدمها.. وأن الدفء يتسرب إلى جسدها.. شربت كأساً ثالثة.. فأصبح جلدها شالا من الحرير.. شربت الكأس الأخير.. ففقدت الرهبة.. وأحست بالرعشة.. وتجردت.. وتشجعت.. وتمردت.. وتكورت.. وتكومت.. واستسلمت.. وشعرت أنها مثل فراشة.. فراحت تطير.. وحلقت فوق الفراش.. ثم.. نامت حتى الصباح.

كانت المرة الأولى التى تعرف المتعة كما خلقها الله.. لا كما أفسدها البشر.. كانت المرة الأولى التى تشعر بالأمان.. ولسنا فى حاجة أن نقول أنها نسيت الزجاج والدم.. فهى لم تعد فى حاجة لاستخراج الألم مع الدم.. فقد خرجت المتعة دون أن تترك ألما فى حاجة إلى أن تفصده.. وأن تعرض نفسها للموت وهى تتخلص منه.

الآن أصبحت تقدر على الحب.. تقدر على العطاء.. والتواصل الإنسانى.. ولم تعد تصادر مشاعرها.. وكأنها بضاعة مهربة من الجمارك.. مثلها مثل العملة

المزورة.. والسجائر المهربة.. والمخدرات الممنوعة.

وقد شعرت بقوة من نوع خاص.. ولدت فى أعماقها.. لم تعد قوتها من وصلات الكهرباء التى تأتى من الأسلاك الممدودة عبر تيار الجنس بينها وبين الرجال المهمين.. والغامضين.. والمملين.. الذين يأتون ويرحلون مثل تيار الموت البارد.

لم يعد هؤلاء يحتلون جسدها بالقوة الجبرية.. ولا بقوة قانون الطوارئ.. تحرر جسدها.. وسبق فى تحرره الصحف والأحزاب والنقابات.. لم تعد تختنق بهذا الشكل المجانى للسلطة.. وأدركت لأول مرة أنها يمكن أن تقول: لا.. أن جسدها يمكن أن يقول: لا.

وشطبت تاريخها القديم.. وبدأت فى الكتابة من جديد.. بدأت زمانها الخاص.. بعد أن كانت تعيش زمان الآخرين.. وهذا هو أهم الدروس التى تعلمتها منه.. أهم من دروس الفراش.. فالعقول تتحرر قبل الأجساد.. علمها أن الحب مفتاح الحياة.. وبدونه يصبح كل شىء محكوما بوقت القيام به.. ويموت فور الانتهاء منه.. لا يعيش بعده.. فعندما نحب تعيش معنا المتعة أياماً وأياماً حتى نلتقى بها من جديد.. وعندما لا نحب.. تموت المتعة فور الخلاص منها.. ونظل نحمل جثتها.. ولا يمكن دفنها إلا بمساعدة الطبيب النفسى.

وأحبت مارينا.. إنها المكان الذى منحها فرصة الحب.. والشفاء.. والتغيير.. المكان الذى أعطاها أقلاماً ملونة لترسم لوحة جديدة لحياتها.. واتفقا على اللقاء فى مارينا لسماع ماجدة الرومى.. كانت تريد أن تشعر بقدسية الحب على تراتيل صوتها.. كانت قد قررت أن تطلب من ماجدة الرومى.. علناً.. وأمام مئات الألوف فى المسرح المكشوف أن تغنى لها.. ولمن تحب.. «ذوبنى».. «ذوبنى».

وسبقته إلى مارينا.. استعجلت الزمن.. كانا سيقضيان الليلة معاً.. وفى الليلة التالية يسمعان.. ذوبنى.. ذوبنى.. لكن.. بينما كانت ماجدة الرومى تعانى من قلق ليلة ما قبل الحفلة.. وبينما كانت هى تنتظره.. جاء الخبر الأسود.. لقد ركبت فوق سيارته سيارة «لورى».. سحقته.. فعصته.. مسحته.. ذوبته.

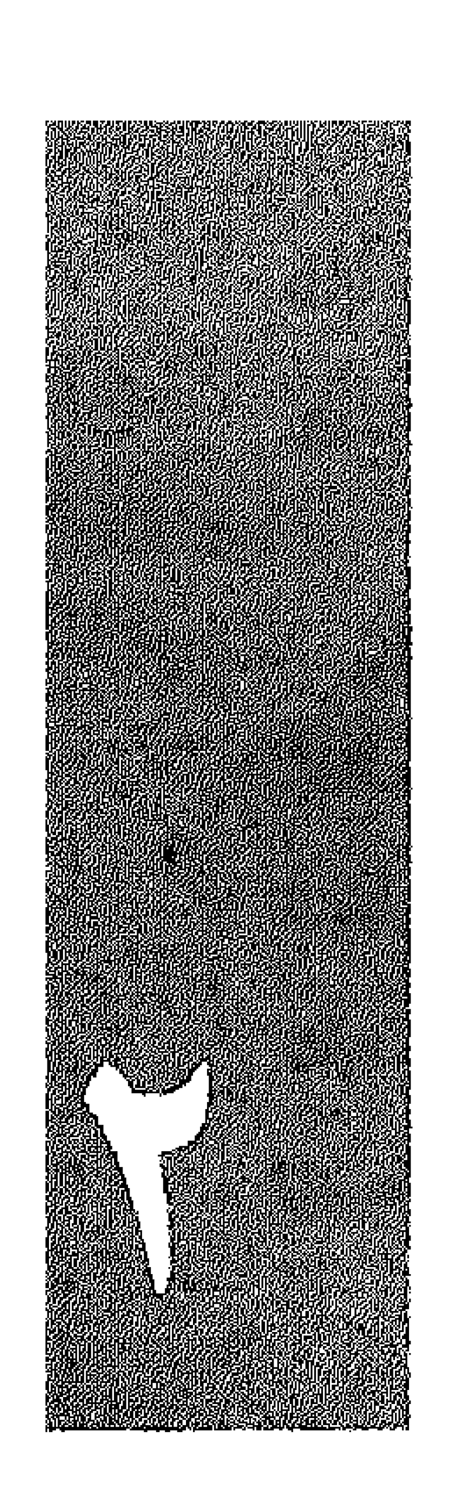
فى ذلك الوقت عرف سكان مارينا أنها انتحرت.. لكن.. لا أحد منهم عرف

السبب.. فظلوا فى حالة العجب.. ولا أحد منهم كان قادراً على حسم الخبر.. ولا معرفة الحقيقة.. والحقيقة.. أنها أمسكت بمفتاح أنبوبة البوتاجاز.. وكسرت زجاج نافذة المطبخ.. وأمسكت بقطعة مدببة.. وفردت ذراعها.. وضمت قبضتها.. وراحت تقطع شرايينها.. هذا مؤكد.. لكن.. غير المؤكد هو: هل انتحرت هذه المرة فعلاً.. أم.. أن المرض عاد إليها.. وانتكست فى علاجه؟

وحتى هذه اللحظة لا أحد نجح فى الإجابة.. لأنه لا أحد كان يعرف السؤال الصحيح.. وعندما يكون السؤال خاطئاً.. فلابد أن تكون الإجابة من نفس العينة.

ولله فى خلقه شئون.. ولهؤلاء الخلق الأحزان والشجون.

****



النوم مع العدو في الحلال

المرأة عالم يستحيل أن تفهمه.. أو تستوعبه.. أو تقدر عليه إلا إذا سمحت لك هى بذلك.. وكل الرجال الذين ادعوا أنهم حصلوا على الدكتوراة فى المرأة ثبت أنهم لم يحصلوا فى الواقع على شهادة محو الأمية.

وعالم المرأة فيه الأبيض والأسود والأصفر والرمادى .. فيه المرأة الحمامة.. والمرأة اللبؤة.. والمرأة الرقيقة.. والمرأة الشرسة.. فيه المرأة التى تقول عيناها شعراً.. ويقول جسدها نثراً.. وفيه المرأة التى تكذب عليك بصدق مذهل.. وتقنعك أن الشمس لم تشرق هذا الصباح.. وأن ما تراه من ضوء.. وما تحسه من سخونة سببه حريق هائل اجتاح الدنيا وبدأ من شرارة عينيها.

والمرأة تصبح فى أروع حالاتها عندما تحب.. يمكن أن نفهمها فى هذه الحالة.. وإن كنت لن تفهم لماذا أحبت هذا الرجل بالذات.. فالحب فى البداية والنهاية هو من عند الله.. ولكن الحب الآن لم يعد معزولاً عن الحياة العامة.. فلم يعد بوسعك أن تختلى بحبيبتك دون أن يكون صندوق النقد الدولى ثالثكما.. ولم يعد بوسعك وأنت تنظر فى عينيها أن تتجاهل القصف الأمريكى للعراق.. ولم يعد بوسعك وأنت تدعوها على عشاء ألا تحدثها فى حرية الصحافة المهضومة.. أو المضروبة.. أو المكسورة.. أو المشتومة.. أو المسجونة.. الحب اليوم محكوم بالعامل السياسى.. حتى ليخيل لى أن كل قصة حب معاصرة فى عالمنا العربى تقع فى إطار أدوات التنصت والرادارات الإسرائيلية.. أو أجهزة الأمن العربية.

ومهما حاولت أن أقنعك بذلك لن تصدق.. خاصة إذا كنت لا تزال فى مرحلة الحب من بعيد إلى بعيد.. من عيونك إلى عيون من تحب.. أو إذا كنت ممن يؤمن أن الحب من غير أمل أسمى معانى الغرام.. وقد قالها حبيب فاشل.. وهو أيضاً حبيب خالد.. فحبه لم يتحول إلى زواج.. وعيال.. ومصاريف مدارس.. ومشاكل لا تقضى على الحب فقط.. وإنما على الحرب.. كذلك.

على أننى سأقنعك بتلك القصة الواقعية التى عرفت بطلتها فى مارينا.. عرفتها بالصدفة فى إحدى السهرات.. ولم يلفت نظرى إليها سوى عدوانيتها وشراستها.. وقد بدأت حوارها معى بالهجوم على ما أكتبه.. مؤكدة أن الكتابة التى نكتبها هى كتابة فوق السطح.. مثل الرى من الترع.. أما الكتابة.. الكتابة فهى كالمياه الجوفية.. يجب أن تحفر الشخصيات ببطء حتى تصل إليها.. الكتابة..

الكتابة هى تجميع للشرر لتصبح فى النهاية على شكل النار الكبيرة.. أو النار المقدسة..

ولأنى عادة لا أستسلم لمثل هذه الشخصيات وأعتبرها شخصيات من مسامير وألغام مدفونة تحت الأرض ـ مثل الألغام التى يعانى منها الساحل الشمالى ـ فقد أهملتها ـ وأعطيتها ظهرى.. ولكن.. شيئا ما تركته هذه المرأة الصغيرة جعلنى لا أنساها.. هل هى غريزة الكاتب التى تلتقط الأشياء الغريبة؟.. هل هى عدوانيتها وخروجها عن المألوف؟.. هل هو إحساسى أننى سألقاها مرة أخرى.. وأعرف منها سر هذه العدوانية وسر هذه الشراسة؟.. لا أعرف بالضبط.. كل ما أعرفه هو أننى كنت أنتظرها.. وأنتظر قصتها.

إنها امرأة لها خصوصية.. وهى تحمل معها هذه الخصوصية.. كما تحمل العين رموشها.. وكما يحمل الشعر موسيقاه.. وكما تحمل النجمة ضوءها.. وبهذه الخصوصية كنت أنتظرها.. وأنتظر قصتها.

ولكن انتظارى طال.. وطال.. ومر الصيف.. ولم ألقها.. ولم أسمع قصتها.. ومن المؤكد أننى يئست.. ومن المؤكد أيضاً أننى أحبطت.. ولك أن تتخيلنى بعد ذلك وأنا أراها فى مارينا فى الشتاء.. وحيدة إلا من نسمات البرد والحزن.. على شاطئ البحر.. فى صدفة يستحيل أن تقع.. لا أنا كنت أعرف أنى سألقاها.. ولا هى تصورت ذلك.. وفى مثل هذا الجو.. والهدوء.. راحت تتدفق.. وهى تروى ما جرى لها.. وكأننى غير موجود فى مساحة الفراغ الذى يجمعنا.. كانت تحكى بصوت مرتفع.. ولكنها لم تكن تحكى لى.. كانت تحكى لنفسها.. أو لشخص لا أراه.. وتراه هى.. ربما كان البطل الحاضر.. الغائب.. كما فى مثل هذه القصص.

قالت: إن الحب العظيم ضد قوانين التحجر والثبات.. هو موجة ترفعنا إلى سابع سماء.. ثم ترمينا إلى سابع أرض.. هو بحر بلا سواحل نعرفها.. بلا مراكب.. أو أخشاب طافية.. وفى هذا النوع النادر من الحب لا يمكن لمن يعرفه أن يبحث عن جزيرة أو أطواق نجاة.. إذا فكر فى ذلك.. خير له أن يظل على الشاطئ.. ولا يلقى بنفسه فى البحر.

عندما عرفته جيداً.. سقطت فى هواه.. مزقت السماء بأظافرى.. فسال

الكلام.. أحسست أننا واحد فى اثنين.. جسد يختفى ليظهر فى جسد آخر.. هوى يضيع لتجده فى هوى آخر.. فى لحظة واحدة شعرنا أننا مثل كائن أسطورى.. شعرنا أن الأرض أكثر اتساعاً.. والسماء أقل ارتفاعاً.. فليكن الحب ضرباً من الغيب.. وليكن الغيب ضرباً من الحب.. لكن المؤكد أن الحب يقلل عدد البائسين فى الحياة.. ولذلك لا يهم أن يكون من وقعت فى حبه رشيقاً.. مترهلاً.. ثرياً.. معدماً.. مصرياً.. أمريكياً.. مسلماً.. هندوسياً.. يهودياً.. والحقيقة كان الذى أحببته..... يهودياً.

لابد من الصمت هنا.. هكذا.. تعودنا فى الروايات عندما نقرأ شيئاً غير مألوف.. أو عندما نتعثر فى شىء غير متوقع.. وفى السينما توضع هنا موسيقى تصويرية حادة لتنبه المشاهد.. وكأن الصدمة وحدها لا تكفى.

لا أتذكر كيف كان رد فعلى.. وإن كنت فى مثل هذه الصدمات أمسك مشاعرى بقوة.. أفرملها بشدة حتى لا يشعر من يروى أنه ارتكب جريمة.. فيتوقف عن الاسترسال.. علمتنى هذه الخبرة سنوات عمرى الطويلة فى الصحافة.. وقد شعرت بالصدمة فعلاً.. لكننى وضعت طبقة سميكة من البلاستيك على ملامحى.. ورحت أسأل أسئلة تبدو بريئة.. من نوع.. أين.. ومتى.. وكيف؟

لقد عرفت وقرأت الكثير عن غراميات العرب مع نساء اليهود.. والتى لخصها نزار قبانى فى قصيدة خاطفة.. تقول: «أحبك أيتها المرأة العارية.. من غير وزن.. ولا قافية».. قرأت.. وسمعت عن سحر الجنس الذى تضعه المرأة اليهودية تحت جلد الرجل مهما كانت جنسيته وديانته.. ولكننى لم أكن أصدق هذه الأساطير.. فهى مجرد أساطير.. مثلها مثل أساطير سحر الرجل الشرقى.. الذى تتساقط من سحره ودفئه نساء الأرض.. وهى خرافة عظمى صدقناها.. ورددناه.. ودفعنا ثمنها من جيوبنا لنساء يقفن على النواصى.. ويتسكعن فى الكباريهات والبارات.

لكنها.. المرة الأولى التى أسمع فيها امرأة مصرية تحب يهودياً.. ولولا أننى رأيتها فى تلك الليلة لا تدخن.. ولا تشرب.. لقلت أنها تهذى تحت سطوة الهيروين.

لم تتوقف عن الرواية.. وكأنها لم تلق بقنبلة.. قالت: عرفته فى نيويورك..

كنت هناك للتعاقد على أفواج سياحية.. وكان هو المدير المسئول عن الشرق الأوسط.. وهو لا يلفت النظر من أول وهلة.. نحيف.. خجول.. شعره مجعد.. بشرته سمراء.. يضع على عينيه عدسات بيضاء.. مهذب.. يعرف كيف يتكلم.. ومتى يصمت.. يجيد الإنصات.. يبدو مثل الشعراء.. أو الكتاب.. يتكلم وهو يحدق فى الفراغ.. لكنه قادر على أن يعيد ما قلت بالحرف الواحد.. ذاكرة.. ذكاء.. سرعة بديهة.. دفء.. راح يكلمنى عن مصر التى زارها عشرات المرات.. ويتحدث لغتها.. ولهجتها.. كان يتحدث عن التفاصيل الصغيرة التى لا تلفت نظر السياح.. حوارى السيدة زينب.. حيث يسكن سائق السيارة التى استأجرها وأصبحا صديقين.. مقابر «البساتين».. حيث ورطه أصحابه البسطاء فى سهرة لتدخين الحشيش.. انتهت بحمله فى حالة إغماء وسط عاصفة من السخرية والنشوة.. وكأنهم انتصروا عليه.. بيوت النوبيين فى منطقة «الحكروب» فى أسوان.. حيث مزيد من الأصحاب البسطاء فى الجنوب الذين تشغل نساؤهم «الطواقى» المزركشة فى إبداع برى.. وهو يستمتع بأم كلثوم.. ويحفظ أغانى فيروز.. ويعرف أمينة.. وكمال.. وعائشة.. وعايدة.. وفهمى.. والسيد أحمد عبد الجواد.. أبطال ثلاثية نجيب محفوظ.. يعرف كتابات محمد حسنين هيكل.. لكنه.. لا يحبه.. ولا يحب جمال عبد الناصر.. ولا يحب مجلة روز اليوسف.. ولا يحبك... أنت.. ولابد أنك فهمت السبب.. إنه إسرائيلى.

● لكنه يهودى وليس إسرائيلياً.

ـ أنت بالذات لا تصدق هذه الخرافة.. فكل يهودى هو إسرائيلى.. ولست فى حاجة أن أقول لك أن إسرائيل هى دولة دينية.. وهى تعطى جنسيتها للديانة.. وليست لأسباب أخرى.. وكل يهودى يخدم إسرائيل فى أى مكان يوجد فيه.. وهذا سر قوتها.. وهذا سر ضعف العرب.. فنحن خارج بلادنا نرتدى أثواباً غير أثوابنا.. ونتنكر لجنسيتنا.. وكأنها عار.. ويسعدنا أن يتصور الآخرون أننا لسنا عرباً.. يسعدنا أن يتصورونا أسباناً.. أو إيطاليين.. أو حتى من مالطا.

● كل هذا الوعى ثم تستسلمين له أو لحبه؟

ـ قطعاً لم أكن أعرف.. لم أتصور أن الحب محكوم بالسياسة إلى هذا الحد المؤلم.. لقد أحببته.. وبشدة.. وهو أحبنى بجنون.. ولكن كان هذا الحب مثل

قصة روميو وچولييت.. وإن كانت قصة شكسبير الخالدة محدودة بعداء أسرتين.. أما قصتنا فكانت محكومة بعداء أمتين.. وهو عداء تاريخى.. تصور جيلنا أن من السهل تجاوزه.. فأنتم جيل الحرب.. ونحن جيل السلام.. أنتم ضحية السياسة.. ونحن ضحية السياحة.. كنا نتصور أنها مسألة جيل قديم اكتوى بالحروب.. يرفض السلام لأسباب نفسية.. وأن هذا الجيل سينقرض بالموت.. أو بالتجاهل.. وسيخرج جيلنا خالياً من العقد والحروق والحروب.. فنحن لم نحارب.. ولو كان فى بيوتنا شهداء فقد نسيناهم.. وبعناهم.. وحولنا تضحياتهم إلى سمسرة.. وعمولات.. ورجال أعمال مستعدون للتحالف مع الشيطان من أجل حفنة دولارات كما يقولون.. وقد ذهبت بنفسى إلى إسرائيل فى رحلة سياحية دبرتها لرجال أعمال مصريين.. وأعترف أننى بهرت بإسرائيل.. لكنه انبهار السياح.. ولكن ما أفزعنى وأخجلنى هرولة رجال الأعمال فى بلدنا ليكسبوا أى شىء من الإسرائيليين.. وكثيراً ما ضحكت فى سرى من غبائهم.. فهم كمن يأتى ليبيع المياه فى حارة السقايين.

هى ليست صارخة الجمال.. لكنها.. جذابة.. من ذلك النوع من النساء الذى يشعرك فى لحظة أنه شريحة لحم.. وفى اللحظة التالية يشعرك أنه معرض زهور.. وهى تعرف ما تريد.. وتصل إليه بأقصر الطرق.. تطلبه.. وهى قوية.. تقدر على تجاوز تجاربها القديمة.. كما تتجاوز فساتينها القديمة.. بلا انكسار أمام الرجال الذى عرفتهم.. هى أخذت.. ولكنها فى المقابل أعطت.. فلا مبرر أن تشعر بالخجل من علاقات سقطت كأوراق الخريف.. وأغلب الظن أن سر قوتها فى قدرتها الفائقة على الاستقلال المادى.. فهى منذ كانت طالبة فى كلية الآداب وهى تعمل بجانب دراستها.. كانت تعمل فى شركة سياحية.. وفى الوقت نفسه كانت تدرس آداب اللغة الإنجليزية.. ولم تكن فى حاجة مادية للعمل.. فأبوها يملك الكثير من المزارع وشركات الأغذية.. وقد أهداها سيارة جديدة فى أول يوم دخلت فيه الجامعة.. لكنها كانت تريد أن تشعر أنها مستقلة.. وأن تدرب نفسها على ذلك.. والاستقلال النفسى يبدأ بالاستقلال المالى.. والأفراد هنا مثل الدول.. من يعطى اللقمة.. يأخذ الحرية.

وقد دفعت أمها حريتها ثمناً لبقائها فى البيت.. تركت عملها.. ومزقت شهادتها الجامعية.. ونسيت خبرتها كطبيبة.. وتفرغت لزوجها وأولادها.. ولكنها بمرور

الوقت تحولت إلى مزرعة من مزارع الزوج.. يفلحها فى الوقت الذى يريد.. ويحصدها فى الوقت الذى يريد.. ويتركها بوراً إلى مزرعة أخرى أكثر خصوبة فى الوقت الذى يريد.. وفى ظل هذا الإقطاع الزراعى والنسائى.. لم يستطع أحد أن يطبق عليه قانون الإصلاح الزراعى.. أو قانون الإصلاح العاطفى.. ويصادر الفائض من نسائه.. ولم تجد الأم سوى الله تلجأ إليه.. أحرقت ثيابها الأوروبية المرسومة على الموضة.. وارتدت الحجاب.. ثم النقاب.. وربما كانت واحدة من المنقبات اللاتى تراهن فى مارينا.. يستمتعن بها فى أوقات محددة.. أما فى لحظات الصباح والشمس فوق الصحراء مثل حقل برتقال.. أو فى لحظات الليل ومارينا مثل صندوق من الحلى بعثرته الأضواء على الصحراء.. والبحر شال أسود يشهق من تطريزه الخيال.

لم تستطع الأم أن تغسل دماغ زوجها المثقف الذى يقرأ كل شهر كتابا.. ويدعو كبار الكتاب على العشاء فى مزرعة من مزارعه.. لم تستطع أن تغسل دماغه من تراكمات عصر الجوارى.. وعصر «سى السيد».. لقد كان يتعامل مع الحرية على أنها بضاعة للتصدير.. لا للاستهلاك العائلى.. أو المحلى.. ولعل ذلك هو ما دفعها لأن تستقل مادياً عن أبيها.. هى لا تريد أن تكرر مأساة أمها.. وأن تنتظر حسنة من زوجها.. سواء كانت هذه الحسنة سيارة.. أو قبلة.. فستان.. أو لحظة حنان.

ثم إنها تعلمت من تجاربها الصغيرة أن الرجال فى هذا الوطن يتعاملون مع المرأة معاملة مباحثية.. حتى الذين يتكلمون عن حريتها وقدرتها على المساواة.. هم مباحثيون من الطراز الخفى.. الثقيل.. هم مباحثيون تحت الجلد.

لقد حققت لنفسها الاستقلال.. وتحولت من موظفة صغيرة فى شركة سياحة إلى شريكة فيها.. وفى البداية اقترضت من الأب المال.. لكنها سرعان ما سددته له.. مع الأرباح.. «بيزنس إز بيزنس».. هذا هو قانون العصر.. الذى صاغه الأنبياء الجدد فى السوق والبورصة.. الذين جاءوا يرفعون شعار.. البقاء للأكثر ثراء.

طلبت منى سيجارة.. وقبل أن أبدى دهشتى.. قالت أنها تدخن فى لحظات التوتر الشديد.. وفى لحظات المتعة النادرة.. ولم أشأ أن أسألها فى أى اللحظات

هى الآن.. وهى تعرى نفسها أمامى.. وأمام البحر الذى كنا قد وصلنا إلى شاطئه.. فجلسنا على حجرين متباعدين.. بينما كان الموج يضرب فى غضب صارخ كل ما يصادفه.. وراحت لسعات البرد تتحدى الشمس التى كانت تصر على فرض إرادتها فى الشتاء.

سألتها:

- كيف وقعت فى حبه؟

قالت:

ـ كنت مجروحة من تجارب صغيرة.. لكنها مؤلمة.. كل الذين عرفتهم كانوا يستغلون نقطة ضعفى.. ونقطة ضعفى هى جسدى..لا أحتمل جسدى عندما يضيق على.. عندما يروح يضغط.. ويضغط.. حتى أكاد أنفجر.. كنت أتصرف فى الفراش مثل الرجال.. لا.. لا تفهمنى خطأ.. أقصد كنت أتصرف دون خجل.. مثل چنرال يعرف كيف يهاجم.. ومتى يحتل أرض الآخر.. ولم أكن مثل النساء.. أستدرج المتعة خطوة.. خطوة.. أو قطرة.. قطرة.. حتى يقع الرجل فى الأسر.. لذلك كان الرجال يخافوننى.. ولا يعتقدون أننى أصلح للزواج.. الرجال يخشون المرأة الجريئة.. المستقلة.. لا يتصورونها زوجة.. لا يقتنعون إلا بالمرأة التى تبدو ساذجة.. حتى لو أثبتت الأيام غير ذلك.. لكننى لا أستطيع سوى أن أكون نفسى.. لذلك كانوا لا يفكرون فى أننى أصلح زوجة.. كان يسعدهم أن أكون عشيقة.. نتقاسم المتعة.. وأتحمل بمفردى المسئولية.. وهذه هى معادلة الحب فى مجتمعنا.. وفى البداية كان الجنس أرنباً برياً.. يأكل الأعشاب.. وخضروات الفم والصدر.. ثم انقلب إلى وحش كاسر.. لا يرضى بغير اللحم.. لحمى.. وقد كنت أشعر بالقلق والاضطراب.. أحياناً كنت أصلى.. وأحياناً كنت أهوى.. وحاولت أن أحتمل الحرمان.. ففشلت.. وحاولت أن أضع القيد فى جسدى.. وأجرى عملية من عمليات التزوير التى تجريها البنات قبل الزواج.. لم أفكر فى خداع أحد.. لأنه لم يكن هناك أحد.. كنت أريد أن أحمى نفسى بحزام العفة الجديد.. لكننى لم أقبل الشعور بهذا السخف.. وفى ظل إحساسى بأن لا أمل فى أن أجد رجلاً يفهمنى.. ويستوعبنى.. رحت أعيش حياتى بالطول والعرض.. حتى وجدت نفسى فى أحضان هذا اليهودى الأمريكى.

● يكاد السادات يقفز أمامى وأنا أسمعك.. لقد خذلك الرجال فى مجتمعك.. وأنصفك رجل يهودى.. وهو قد قال أن العرب خذلوه.. فراح لإسرائيل.. هل الناس على دين حكامهم إلى هذا الحد؟

ـ لولا السادات لكان ما فعلت جريمة خيانة عظمى.. لكنت قد شنقت بتهمة النوم مع العدو.. ولما كانت هناك قصة أصلاً.. لولاه لكنا مثل جيلكم.. نتصور اليهود وكأنهم مخلوقات من كوكب آخر.. وقد صدمت عندما زرت إسرائيل.. أنا زرتها أكثر من مرة.. بيزنيس.. لكنه بيزنيس لم أكسب من ورائه سوى معرفة إسرائيل.. العدو.. كما تقول.. والحقيقة لم أشعر بأنهم أقوياء كما نشعر.. فقد خرجوا من جيتو إلى جيتو.. من جيتو أصغر إلى جيتو أكبر.. أو هم جمعوا كل الجيتو فى جيتو واحد.. أو هم انتقلوا من جيتو الحارة إلى جيتو الدولة.

● هل جعلك الحب خبيرة فى السياسة إلى هذا الحد؟

ـ لعنة الله على السياسة.. هى التى أفسدت حياتى.. لم أكن أهتم بها.. من غيركم فى حاجة لهذا الصداع.. لكننى وجدتها فى كل مكان فى حياتى.. من الطعام إلى الفراش.. ومن علاقتى بالبشر إلى علاقتى بالوطن.. لقد دخلنا من باب الحب.. وخرجنا من باب الحرب.. دخلنا عشاقا.. وخرجنا من باب الحرب.. لم أشعر وأنا أحبه أنه يهودى.. لم أشعر أنه يهودى إلا بعد أن تزوجنا.

● هذه صدمة أشد.

ـ كان حبه لى يقنعنى به.. كنت أريد رجلاً يحبنى.. كان يؤمن أن الحب فضيلة جميلة.. وأنه الفضيلة التى توحد بين البشر.. حتى لو كانوا أعداء.. مثلنا.. كان رومانسياً.. كتب على جسدى عبارة «سرى جداً».. وحلمت معه بأطفال من عالمين مختلفين يفرضون السلام بحكم الدم.. لا أن يسيلوا الدم.. فكرة رومانسية.. فعلاً.. لكن كان أسهل منها السفر إلى القمر.. وبناء بيت فوق المريخ.. عشت معه أجمل أيام عمرى فى نيويورك.. شعرت لأول مرة بالأمان.. والحب بدون الشعور بالأمان هو وهم عظيم.. والمرأة تتحمس للزواج من الرجل الذى يشعرها بالأمان.. الأمان هو الرجولة فى العشق.. بدونه كنت أشعر أننى

ملكة بلا عرش.. بيانو لا يجد من يعزف عليه.. كلمات شعر جميلة لا تجد من يغنيها.. لم أشعر معه بما شعرت به من قبل.. إنني تذكرة سفر صالحة لسفرة واحدة فقط.. كان عاشقاً متفرغاً لعشقى.. لم يتركنى واقفة.. حائرة.. فى المناطق المحايدة.. أخذنى من يدى إلى عرش الزواج.. وما أن طلب منى الزواج حتى شعرت بكل ما بين العرب والإسرائيليين من حروب وقتلى وشهداء ومعارك.. وما بين اليهود والمسلمين من خداع وغش وكراهية قديمة من أيام الجاهلية الأولى.. ولكن.. من الذى يعرف معنى الحريق دون أن يضع يده فى النار؟.. من الذى يحدد شدة أنياب الذئب وهو فى فندق خمس نجوم؟.. من الذى يقدر على فهم الأمواج وهو مدفون فى رمال الصحراء؟.. لم أشعر أن هذه الأمور يمكن أن تفسد حياة معجونة بالحب.. مصنوعة منه.. وقد شعرت بقوة خرافية فى تحدى العالم من أجله.. وهو أيضاً كان مستعداً أن يصل إلى آخر الدنيا من أجل أن يحتفظ بى.. ولم يتردد فى أن يشهر إسلامه.. وأن يخرج من دينه.. من أجلى.. أى حب يمكن أن يصل إلى أن يترك يهودى دينه.. هو بالقطع حب كبير.. ولكن.. ما أذهلنى أن أهله لم يعترضوا.. أهلى هم الذين اعترضوا.. فى تراث اليهود كثير من التحولات الدينية.. إما هروباً من الاضطهاد.. أو تكيفاً مع المجتمع الغريب الذى يعيشون فيه.. لكنها المرة الأولى على ما أعتقد التى يترك فيها يهودى ديانته من أجل امرأة مسلمة.. أما أهلى فقد رفضوا.. وغضبوا.. وتشددوا فى الرفض والغضب.. لأن فى تراثنا.. أن اليهودى لا يسلم.. وإنما يناور للحصول على ما يريد.. هو ما نعرفه عند الشيعة بالتقية.. لكن الشيعة يلجأون للتقية خوفاً من الاضطهاد الدينى فقط.. لا بحثاً عن علاقة حتى لو كانت شرعية.

● كانت صدمة لأهلك.. أب قادر.. وأم منقبة.. كيف قدرت على أن تفتحى معهما الموضوع؟

ـ كنت أريد أن أتزوجه بأى طريقة.. ثم إن أهلى يعرفون أننى عنيدة.. ما أضعه فى رأسى.. لا مفر من أن أنفذه.. لكن.. من المؤكد أن الأب شعر بالانكسار.. والأم لم تعد تترك المصحف.. ولم تكف عن ترديد الأوراد.. ولا تكف عن أن تطلب من الله أن يرفع مقته وغضبه عنا.. واعتبرت هذا الزواج من علامات يوم القيامة.. من العلامات الكبرى.. لا العلامات الصغرى.. ورفضت مقابلة أهله.. ولم تذهب معنا إلى الأزهر وهو يشهر إسلامه.. ولم تحضر الزواج.. ولم توافق

على الحل الذى توصلنا جميعاً إليه وهو أننى لم أتزوج يهودياً أصبح مسلماً.. وإنما تزوجت أمريكياً أشهر إسلامه.. وتركنا لخيال الناس تصور ما معنى أمريكى أشهر إسلامه.. واختفت أمى.. وتكرر اختفاؤها.. وفى كل مرة كنا نعثر عليها فى مسجد من مساجد أولياء الله.. السيدة زينب.. السيدة نفيسة.. سيدنا الحسين.. كانت تخدم فى هذه المساجد.. تكنس.. وتسقى المصلين.. وتمسح بدموعها الجدران.. والمقامات.. وكانت تضع على رأسها منديلاً من كسوة السيدة زينب.. تعتبره حجاباً يقيها شرور الآخرة التى هى بالقطع أصبحت على الأبواب.. وأصبحت أقرب إلينا من حبل الوريد.. لقد احتملت الكثير.. احتملت رجلاً يسلخها كل يوم.. واعتبرت ذلك قسمة ونصيبا.. لكنها لم تحتمل هذه الزيجة.. واعتبرت نفسها مسئولة عما جرى.. فهى على حد تعبيرها.. فشلت فى تربيتى.. ولم أكن أتصورذلك.

لابد أن ذهولك أصبح مثل ذهولى.. أضعاف.. أضعاف ما يمكن تصوره.. وتوقعه.. واحتماله.. وقد حاولت أن أكتم دهشتى.. فرحت أنظر بعيداً فى الفضاء.. متتبعاً الشمس وقد تحولت إلى قرص من المشمش.. يستعد للنوم فى بيوت جنيات البحر.. وحورياته.. ولم تكن المشكلة فىّ شخصياً.. فأنا فى النهاية أسمع قصة أعرف أبعادها وخلفياتها السياسية والوطنية.. وأنفاسى محبوسة.. وأريد أن أعرف النهاية.. وفى الوقت نفسه لا أريد أن تفوتنى التفاصيل.. التفاصيل متعة أكبر من الوصول للذروة.

ولابد أنها لاحظت ما أنا فيه من قلق مشوب بالحذر من أن تتركنى هنا ولا أعرف ما جرى.. أو أن أتدخل بتعليق يوترها فنصل إلى النتيجة نفسها.. أو يضغط علينا الوقت.. ويأتى الليل.. وليل الشتاء فى مارينا لا يطاق فى كثير من الأوقات.. فأجد نفسى أمام فيلم من أفلام الخيال العلمى.. أو الخيال العاطفى.. أو الخيال السياسى لم يكتمل.. وهذا هو الزهق.. أو الغضب.. بعينه.

لابد.. أنها لاحظت ذلك وفهمته.. لكنها لم تغير أى شىء.. لا فى سرد التفاصيل.. ولا فى التوقف بالتعليق.. ولا فى الاهتمام برشاقة الكلمات التى تنطق بها.. أو تروى بها.. كأن شيئاً لم يكن.. هى كانت فى حالة اندماج.. ربما.. تفسير وتبرير.. ربما.. هل كانت فى حاجة أن تقول ما عندها وتلقى ما هو جاثم على صدرها.. دون أن تجد من يحاسبها.. أو يعاقبها.. ربما.. وألف ربما.

سألتها:

● كيف توقعت الحياة فى مصر مع زوج يهودى.. أو كان يهودياً.. وأنت من الوجوه المعروفة فى المجتمع.. والناس تتحدث عن شطارتك.. والصحف تنشر أخبارك.. وأفكارك فى السياحة.. وفى غيرها.. لقد رأيت صورك أكثر من مرة على أغلفة المجلات.. وفى صفحات المجتمع.. فكيف توقعت أن يستقبلك الناس بعد زواجك؟

ـ لم يكن من الممكن أن نعيش فى مصر.. مستحيل.. الزواج علاقة اجتماعية.. لابد أن يقبلها الناس.. يمكن أن يقبل الناس علاقات الغرام التحتية.. السرية.. مهما كانت طبيعة أطرافها.. لكن يصعب أن يتقبلوا علاقة من هذا النوع حتى لو كانت علاقة شرعية.. لذلك كان الحل الوحيد أن نعيش فى مجتمع لا تزعجه هذه العلاقة.. كان علينا أن نعيش فى نيويورك.. مدينة مفتوحة.. متحررة من كافة العقد والحسابات.. لا يهمها أن تعرف من أنت.. ولا لمن تنتمى وكل ما يهمها هو كم تملك.. وماذا تنفق؟

طلبت سيجارة أخرى.. ثم واصلت:

ـ غبت عن الدنيا معه فى نيويورك.. عرفت فى وجوده أن الحب نوع من الإبداع البشرى.. يعيشه من يبتكره.. لم أشعر أن على وجهه قناعا.. كان يشعرنى أن الدنيا تنتهى عندما تنتهى أنوثتى منها.. كان يشم فى جسدى رائحة البخور.. وهو يفضلها عن رائحة العطور الباريسية التى كان يشمها من قبل فى أجساد النساء هنا.. وكثيراً ما كان يردد.. لو تركتنى سيأكلنى الغبار.. ولا مهرب أمامى سوى الانتحار.. عشت أسعد أيام عمرى.. ولم أجد فارقاً فى كثير من العادات بين اليهود والمسلمين.. بل إن المسلمين فى أمريكا يشعرون بالأمان وهم يشترون طعامهم من يهود.. وإن كان فى حياتهم المزيد من التزمت فى المطبخ.. فهم لا يأكلون الجمبرى.. ولا يضعون كل الطعام فى ثلاجة واحدة.. ويفرقون بين اللحم والألبان.. لقد كان حريصاً على عاداتهم.. وكان على أن أحترمها.. كما يحترم هو عاداتنا الإسلامية.. وهو صحيح قد أصبح مسلماً.. لكن ذلك لا يمكن أن يتم بين ليلة وأخرى.. والدين ليس طقوساً فقط.. وإنما عادات يومية أيضاً.. وربما كانت هذه العادات أخطر.. فالناس قد تفرط فى شعائر

السماء.. لكنها لا تتسامح مع سلوكياتها على الأرض.

وطلبت سيجارة ثالثة.. وشعرت أن الأحداث تتصاعد.. وتبدو مثل سيارة مسرعة فى منحنيات جبلية خطرة.. وسارعت رغم الهواء البارد اللافح بإشعال السيجارة.. وسارعت هى من جانبها بإشعال اهتمامى:

ـ تناقشنا كثيراً فى أن ننجب طفلاً.. وتحمسنا معاً للفكرة.. وشطح بنا الخيال.. نرى طفلاً.. يبشر بالسلام.. ويمنع الحروب.. ويضع حداً لبحار الدم التى لاتزال تجرى.. نريده قادراً على التنقل بحرية بين مصر وإسرائيل وسوريا والسعودية.. وبينما الطفل فى أحشائى يبدأ مشوار النمو والحياة.. وهو لم يزد بعد على نطفة، حدثت أول مشكلة بينى وبينه.. فجرت حماس أتوبيساً فى تل أبيب.. وراحت سيارات الإسعاف تعوى على شاشة التليفزيون.. واختلطت أشلاء القتلى ببقايا الفلسطينيين الذى فجروا أنفسهم بالأتوبيس بعبوات ناسفة.. كان غاضباً مما يسمع ويرى.. ولكنى وجدت نفسى أتحدث عن أسباب المشكلة.. الإسرائيليون.. بما يفعلونه.. ولولا لحظات الرغبة التى أشعلها أكثر وجود الطفل فى أحشائى لما مرت المشاجرة على خير.. ولكن.. فى تلك اللحظة أدركت عمق المشكلة.. وعرفت أنها دخلت إلى الفراش.. ونامت معنا.. وعندما تدخل السياسة غرفة النوم فإن النوم نفسه يغادرها.

وأعترف أننى تعاطفت معها.. فليست أفكارى السياسية التى أومن بها تحرمنى من التعاطف مع امرأة صغيرة وضعها قلبها فى مأزق تاريخى.. فى مفترق طرق صراع دموى شرس.. لا ذنب لها فيه.. سوى أنها صدقت أن السلام يمكن أن يستقر بين أنياب أسماك القرش.. لقد كانت فى حاجة إلى تجربة شخصية مدمرة لتعرف أن اليهود جزء من إسرائيل مهما قالوا أو ادعوا.. وأن إسرائيل مجتمع حرب.. لا حب.. مجتمع عرقى وتوسعى لا يستطيع أن يمنح شيئاً حقيقياً للسلام.. وأن الجيتو الإسرائيلى لا يفتح أبوابه لأحد.. لأن أى اختراق لجدران الجيتو هو اختراق للتاريخ السرى للمجتمع اليهودى.. هذا المجتمع الذى يحاصر نفسه من أيام النبى موسى ويرفض الدخول فى أى علاقات.. تتجاوز علاقات البيع والشراء مع المجتمعات الأخرى.

الأمس يكمل دورته اليوم.. وغداً.. والغربة أن يشعر الإنسان فجأة أنه فى

حاجة لأمه.. الأم هى الوطن.. وليس من يزرع الجسد.. ويحرثه.. وينبت فيه زهوراً.. وأطفالاً.. وقد شعرت فى هذه اللحظة أنها تريد أن ترتمى فى أحضان أمها وهى تبلل بدموعها مقام السيدة زينب.. شعرت أن الحب قد أصبح فجأة نوعاً من الرقص مع الذئاب.. شعرت أن قلبها الذى كان مغطى بالياسمين قد غطته الطحالب والشياطين.. هل السياسة ضد الحب إلى هذا الحد.. هل تفرض علينا إرادتها حتى لو كنا نعلن طوال الوقت أننا لا نهتم بها.. وأننا لا نريد أن نهتم بها.. فلماذا تفرض هى نفسها علينا بهذا العنف؟

كان سكونها.. وسكوتها.. لحظات تجمع فيها ذراتها المبعثرة.. فرصة لأسترد أنا أيضاً أنفاسى التى فقدتها من شدة ما حبستها.. وربما لمحت دمعتين فى عينيها.. ربما كان انعكاس الضوء.. لكن المؤكد أنها أخرجت من جيبها ورقة قديمة مطوية.. فردتها برفق خوفاً عليها من التمزق.. وقدمتها لى وهى تقول:

ـ هذا آخر خطاب كتبه لى بلغته العربية الركيكة الخط.. فالأسلوب ليس له.. وإنما قصيدة نقلها من ديوان الشاعر الفلسطينى محمود درويش.. هل تصدق.. محمود درويش؟.. هل يعجب هؤلاء الناس بشعر الذين شردوهم وقتلوهم فقط؟.. لقد اغتصبوا أرضهم.. ثم راحوا يحفظون قصائد شعرائهم.. بالطبع الشعر العاطفى.. لا الوطنى.

أمسكت الورقة بنفس الرفق الذى تعاملت به معها.. وقرأت.. ما قاله لها على لسان محمود درويش..... «ببطء أوسد نومك.. يا اسم الذى أنا فيه.. من الحلم نامى.. سيلتحف الليل أشجاره.. وسيغفو على أرضه سيدا لغياب قليل.. ونامى لأطفو على نقط ضوء ترشح من قمر أحتويه.... يخيم شعرك فوق رخامك بدوا ينامون سهواً.. ولا يحلمون.. يضيئك زوجا يمامك من كتفيك.. إلى أقحوان منامك.. نامى عليك وفيك.. عليك سلام السماوات والأرض تفتح أبهاءها لك بهواً فبهواً.... يغلفك النوم بى.. لا ملائكة يحملون السرير.. ولا شبح يوقظ الياسمينة.. يا اسمى المؤنث.. نامى فلا ناى يبكى على فرس هارب من خيامى.... كما تحلمين تكونين.. ياصيف أرض شمالية.. يخدر غاباته الألف فى سطوة النوم.. نامى ولا توقظى جسداً يشتهى جسداً فى منامى».

أعطاها قصيدة محمود درويش فى لحظة الحنين لأمها.. وبقيت القصيدة..

تذكرها بأمها أكثر مما تذكرها به.. فعندما أخذتها منه.. طلبت أمها فى التليفون.. وبينما كان جرس التليفون يرن رنيناً غير متقطع كانت أنفاس الأم الأخيرة.. تتقطع.

وفى هذه اللحظات تلقت الصدمة الكبرى.. لقد نقل زوجها إلى مكتب شركته فى القدس.. ترقية جديدة.. لا يمكن رفضها.. سيتخلصون منه.. سيموت من الجوع.. ثم إنها فقدت أمها.. وعليها أن تقاتل للحفاظ على حياتها وزوجها وابنها.. لا مفر من أن تواجه كل الصراع العربى الإسرائيلى بكل ما فيه من عقد وأزمات من أجل نفسها.

والقدس.. مدينة حباها الله بتسعة أعشار الجمال والروعة.. ووزع العشر الباقى على باقى العالم.. وأجبرها الله على تحمل تسعة أعشار المعاناة والألم والعذاب.. وكان العشر الباقى فقط من نصيب باقى العالم.. ولكنها أيضاً.. المدينة التى ترحل إليها عيوننا كل يوم.. «تدور فى أروقة المعابد.. تعانق الكنائس القديمة.. وتمسح الحزن عن المساجد».. إنها كما تقول فيروز مدينة الصلاة.. ومدينة السلام..

ولابد أنها مشيت فى الشوارع.. شوارع القدس العتيقة.. ولابد أنها صلت فى المسجد الأقصى وقبة الصخرة.. ولابد أنها سمعت أغانى أم كلثوم وهى تتجول فى شوارع القدس العربية.. ولابد أنها شاهدت اليهود وهم يبكون وينتحبون ويخبطون رأسهم فى الحائط.. حائط المبكى.. الجدار الغربى للمسجد الأقصى.. ولابد أنها زارت كنيسة القيامة ووضعت وأضاءت شمعة على قبر السيد المسيح.. ولكن.. لابد أيضاً أنها عاشت مع زوجها فى القدس الغربية..

والقدس الغربية.. أو اليهودية.. مبنية على الطراز الأوربى الحديث.. الشوارع عريضة.. أشجار الموالح مزروعة على الأرصفة.. الفنادق خمس نجوم.. لها أسماء معروفة.. لكن أشهرها فندق الملك داود الذى أقام فيه الرئيس السادات أثناء زيارته للقدس.. وهو يطل على المنظر الساحر للمدينة.. القديمة.. وفى القدس الغربية مبنى الكنيست.. وبيت رئيس الدولة.. وبيت رئيس الوزراء.. وفيها دور سينما وملاهٍ ومسارح استعراضية عارية ومطابع ودور نشر ومتاجر فاخرة ومعابد وجماعات يهودية متطرفة تلقى المارة يوم السبت بالحجارة.

لم تشعر بأن شيئاً ينقصها.. الأسعار نار.. لكنها وزوجها من الأثرياء.. القادرين.. لكن ما كان ينقصها شيء لا يمكن شراؤه بالمال.. الشعور بالأمان.. أحست لأول مرة بالفزع.. فهي مسلمة في بحيرة اليهود.. وهي عربية في غابة من الإسرائيليين.. وهي غريبة في دولة معادية.. وهي وحيدة في دولة عجيبة.. والناس من حولها في الشوارع والأسواق والمطاعم والحدائق ومحطات الوقود لا يتصورون أنها ليست يهودية.. أو ليست واحدة منهم.. فهم يسألونها عن مذهبها.. ومعبدها.. والحاخام الذي يمنحها البركة.. وهي لا تجرؤ على قول الحقيقة.. وقد كانت تراوغ في البداية.. ثم فكرت في أن تكذب.. وتختار لها مذهباً ومعبداً.. وتمثل أنها يهودية.. وقد كانت تقدر على ذلك بحكم عشرتها ليهودي.. وجربت ذلك قليلاً.. لكنها كادت تصاب بالجنون.. ووجدت نفسها معزولة.. وراحت تدافع عن كيانها بمزيد من قراءة القرآن.. لكن القرآن في هذا المكان كتاب خطر.. فقررت أن تحفظه وتردده وهي وسط اليهود.. لقد أحست لأول مرة أنه سلاحها الوحيد الذي يحميها.. وواظبت على الصلاة.. وبالغت فيها.. وحاولت إقناع زوجها بأن يشاركها في تدينها.. لكنه كان يتحجج بالعمل.. وعندما ضغطت عليه.. هب فيها غاضباً.. وهو يذكرها بحقيقة كانت قد نسيتها.. اليهودي لا يغير دينه حتى لو عرضوا عليه منصب بابا روما.

ولم تعد تطيق أيضاً تعليقات ونكات اليهود عن العرب.. فالعرب في عيونهم أغبياء.. أشرار.. جاءوا من عالم يمتلئ بالبداوة والهمجية.. وهم غدارون.. لا يحترمون العهود.. لا يصلحون إلا في الأعمال القذرة.. لم تكن تطيق ذلك.. لكنها.. لا تقدر على أن ترد أو تواجه.. وكان عليها أن تسكت.. تخرس.. تضع الصمغ والغراء على شفتيها.. وكادت أن تجن.. ولم يفلح معها أن تسمع إذاعة القاهرة.. أو تشاهد الأفلام المصرية التي تعرض في التليفزيون الإسرائيلي.. أو تحفظ كل الأغاني الشرقية.. لقد زاد حبها لمصر.. ولكل ما يذكرها بمصر.. فنحن نشعر بحب مجنون للوطن.. عندما نشعر أننا نكاد نفقده.. ونفقد معه أنفسنا..

ووجدت نفسها تهرب من هذا الجحيم إلى القاهرة.. كان أول ما تفعله في القاهرة هو أن تضع جسدها تحت «الدش» بالساعات.. كانت مياه النيل المتساقطة على جسدها تطهرها.. تغسلها.. تزيل ما علق بجسدها.. لكنها.. أيضاً لم تقدر

على مواجهة الناس الذين تعرفهم ويعرفونها وهى حامل.. لابد أنهم سيسألونها أسئلة معتادة لن تجرؤ على أن تجيب عنها.. ومن ثم فالأفضل ألا تضع نفسها فى هذا الاختبار.. فكان أن شعرت بالعزلة كذلك فى وطنها.. ولم تكن ترى سوى أصحاب يعدون على أصابع اليد الواحدة.. وكانت تتجنب الأماكن التى يمكن أن ترى فيها أحداً يعرفها.. ولكن رغم ذلك كانت تشعر بالراحة فى مصر.. وكانت تهرب إليها كلما حانت ولو فرصة صغيرة.. على أنها فى كل مرة كانت تعود فيها إلى القاهرة كانت تجد استدعاء من الأمن.. وهم يقولون أنه إجراء روتينى يتعرض له كل من يسافر إلى إسرائيل.. وهى متزوجة من يهودى وتعيش هناك.. وقد حاولوا استغلال حالتها النفسية فى أن تكون عيناً لهم.. ولكنها لم تستجب.. وتحملت نظرات الاحتقار والازدراء التى كانت تتلقاها فى كل زيارة.. ولولا نفوذ من تعرفهم.. لما مرت هذه الزيارات على خير.. وليس مستغرباً فى الوقت نفسه أن تشعر أنها فى إسرائيل تحت العيون أيضاً.. لابد أن الأمن هناك يشك فيها هو الآخر.. وكان لابد أن تنهار.. وأن تتردد على عيادة طبيب نفسى.. ولكن من هو هذا الطبيب الذى يمكن أن تحكى له كل شىء بصراحة.. لا يمكن أن يكون مصرياً.. ولا يمكن أن يكون إسرائيلياً.. وهكذا.. بدأت تغير مسار رحلاتها المتكررة.. بدلاً من الذهاب إلى القاهرة.. ذهبت إلى لندن.. وهناك بدأت العلاج.

وقد فوجئت بنفسها وهى تقول للطبيب النفسى الإنجليزى أنها لا تريد الطفل الذى فى بطنها.. لأنها تشعر أنها حملته...... فى الحرام... لكن الجنين كان قد كبر.. وفرض إرادته على الجميع.. بل وبدأ يطالب بحقه فى الخروج إلى النور.. وكان الحل الوحيد الذى اقترحه الطبيب هو الطلاق.. روشتة العلاج كانت على ورقة طلاق.. ولم يكن من الصعب أن يتفهم الزوج.. أنه لايزال يحبها بجنون.. وهى أيضاً لاتزال تحبه.. ربما بجنون أكبر.. لكن هذا الحب أضعف من أن يصمد فى مواجهة الصراع العربى الإسرائيلى.. لابد من الطلاق حتى يحتفظ كل منهما بحب الآخر.. وجرت طقوس الطلاق.. وكأنها طقوس زفاف.. بل ربما كانت أشد.. فقد أراد كل منهما أن يأخذ من الآخر فى اللقاء الأخير أقصى ما هو ممكن.. وأقصى ما يستطيع.

وفى تلك اللحظات اتفقا على أن يكون اسم طفلهما موسى لو كان ذكراً.. وسارة لو كانت أنثى.. ولم يحاولا معرفة النوع مسبقاً.. ولكنها ظلت تشعر

أنها حامل فى الحرام.. وفى القاهرة اختفت عن العيون تماماً.. حتى وضعت طفلتها.. سارة.. وكانت فترة هذا الاختفاء فى مارينا.. وعندما حانت لحظة الوضع.. جرت على مستشفى صغير فى الإسكندرية.. وصرخت وبكت من الألم.. لكن لم يكن أحد يعرف حقيقة هذا الألم.

وبقيت محبوسة مع سارة فى أماكن مختلفة لا تعرفها فيها العيون لمدة تزيد على السنة.. مارينا فى الشتاء.. أسوان فى الصيف.. فايد فى الربيع.. العريش فى الخريف.. ولم تكن هناك مشكلة أن تحتفظ بطفلتها.. فاليهود لن يعترفوا بها.. فاليهودى فقط هو من كانت أمه يهودية.. وهى قد حمدت الله على أن طفلتها ستعيش معها.. لكن المشكلة أنها لا تستطيع أن تتخلص من الإحساس القاتل أنها ابنة حرام.

ـ نعم لازلت أعشقه.. ولازلت أحلم به.. ولكننى لا أتصور أن أعود وأعيش معه.. فمن غير قصد ولا ذنب صار الحب حصى.. والعواطف أشواكا وعواصف.. أمثالنا لا يموتون حباً.. وإنما ظلماً.. لازلت أصرخ فيه فى المنام «أنت رجلى».. لكنى أقوم فزعة من هذا الكابوس.. أضمه فى الخيال فأشعر أننى أعود إلى عدمى.

وقاطعتها لأخفف من أحزانها:

ـ إن محمود درويش الذى تحملين شعره فى صدرك يقول لامرأة يودعها قبل أن يفترقا:

«ماذا سنفعل بالحب؟».

قالت وهما يدسان ملابسهما فى الحقائب:

«ربما نأخذه معنا.. ربما نتركه لمن يستأجر البيت بعدنا.. ربما نعلقه فى خزانة الثياب».

قال:

«ليذهب حيث يشاء.. فمن الذى يقدر على تقرير مصيره».

قالت:

ـ لا أحد يقرر للحب مصيره.. الحب هو الذى يقرر مصائرنا.. جعل من غريبين مثلى ومثله كتلة لحم واحدة.. وجعل من عاشقين مثلى ومثله غريمين.. غريبين.

قلت:

الحب عندما يتحول إلى مؤسسة يجب أن يخضع لقوانين الواقع.. من قانون المرور إلى قانون الوجود.. لكن يبقى الفشل فى القلب أخف أنواع الفشل.. ويظل الفشل فى المجتمع هو الفشل المزمن الذى لا علاج له.. وخاصة أنك تحملين دليلك وصليبك معك فى كل مكان تذهبين إليه.. ابنتك.

قالت:

ـ لم تعد لدى قدرة على الحياة فى مصر.. ولا أفكر بالقطع أن أعيش فى إسرائيل.. ولا أفكر فى أمريكا.. حتى لا أراه وأحن إليه..

قاطعتها:

ـ المشكلة لم تعد مشكلتك.. المشكلة مشكلة ابنتك.. مشكلة سارة.. إنها لن تقدر على أن تعيش فى مصر.. سيلفظها المجتمع عندما يعرف حقيقتها.. ولن يقبلها المجتمع الإسرائيلى.. فهى ليست منهم.. هى الآن لاجئة.. نصفها مسلم ونصفها يهودى.. ولا مفر أن تعيش فى دولة محايدة.

قالت:

ـ عندك حق.. وقد فكرت أن أبيع كل أملك وآخذها ونعيش هناك.

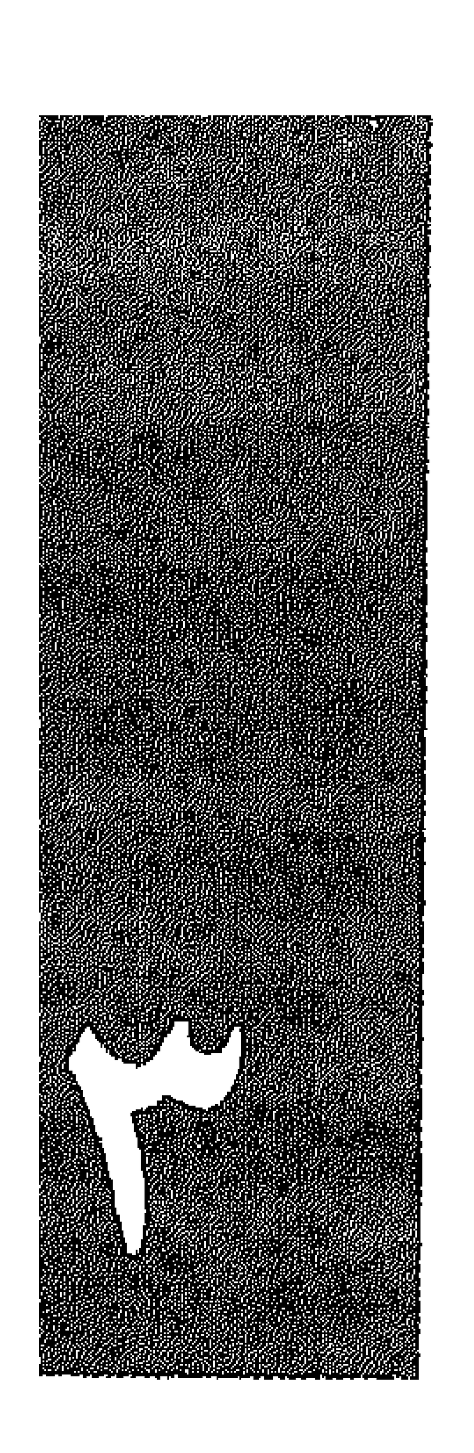
قلت:

ـ هذا هو الحل الوحيد.. خاصة أن فى سويسرا مقر منظمة الصليب الأحمر.

قالت:

ـ هل تسخر منى؟

ولم تنتظر الإجابة.. وأعطتنى ظهرها.. ورحلت.. وحتى هذه اللحظة لم أفكر أنا فى الإجابة.



البحث عن الله في الدولار

لا أحد يعرف من الذى أطلق عليه وصف «القواد اليونانى» .. لكن.. المؤكد أن هذا الوصف كان يوافق عليه كل من يراه.. أو كل من سافر إلى أثينا.. وصادف فى ميدان «سندجما» الشهير فى العاصمة اليونانية.. ذلك القواد القصير الذى يشبهه ويلف ويدور على قدميه معترضاً السياح العرب عارضاً عليهم باللغة العربية الفصحى «مضاجعة النساء الفاتنات» على حد تعبيره.. أو على حد ما تعلمه فى كتاب: «كيف تتعلم العربية بدون معلم».

كانوا يصفونه بالقواد اليونانى.. أى القواد الرخيص.. أو القواد الذى لا يترك فرصة للكسب ـ مهما كانت تافهة ـ إلا ويستغلها.. فهو قد يشترى مصنعاً للسيارات.. لكنه لا يتردد فى المشاركة فى ملكية كافيتريا.. وهو قد يستورد الخمور للفنادق والقرى السياحية.. وفى الوقت نفسه لا يترك صفقة صغيرة لتوريد أقلام رصاص لوزارة الكهرباء.. وهو قد يمتلك قرى سياحية فى شرم الشيخ.. لكنه يقاتل من أجل شراء عدة شاليهات فى مارينا حتى يعود ويبيعها بمكاسب إضافية.. وهذه هى فى الحقيقة علاقته بمارينا.. المضاربة على العقارات فيها.. ورفع أسعار مبانيها.. وتحقيق مزيد من الأرباح هو فى الواقع ليس فى حاجة إليها.. فهو بكل المقاييس والحسابات ملياردير.. لكنه ملياردير جشع.. لا يتصور أحدا غيره يمكن أن يكسب قرشاً واحداً.

ولكن.. كان هناك سبب آخر فى وصفه بالقواد اليونانى.. هو أنه حقق بعضا من ثروته من المطاعم والكباريهات.. وهى مطاعم وكباريهات صممها للطبقة الثرية والقوية فى المجتمع.. وفيها أطلق بنات جئن من لندن وموسكو وأثينا لخدمة الزبائن.. حسب الطلب.. ولا مانع من توصيل بعض الطلبات للمنازل.. ولو جاء مندوب شركة أجنبية للتفاوض معه فى مصر أرسل إليه واحدة منهن ـ أو أخرى مصرية حسب الذوق ـ إلى غرفته فى الفندق.. مع باقة من الزهور.. وزجاجة «شمبانيا» وعازل طبى إذا لزم الأمر.. بل إنه استخدم هذا الأسلوب مع مندوبى شركة أجنبية منافسة جاءوا للحصول على صفقة كان هو يسعى إليها بيديه وأسنانه.. وقد قابلهم ومعه ثلاث فتيات جامعيات كن فى حاجة للمال.. ولم يتردد فى تركهن.. والنزول من الفندق بمفرده.. مع التهديد بأن المتعة هى كل ما يمكن الحصول عليه فى مصر.. أما الصفقة فلها قوانين وقواعد أخرى.. وكان يؤيده فى ذلك مسئول جاء معه.. ومارس هو أيضاً التهديد.. والتفتيش..

تفتيش غرفهم.. وسرقة أوراق العملية.

وهو مشهور بأنه يملك أحدث وأسخن وأجرأ مجموعة من شرائط الأفلام الجنسية العارية.. وهو يرسلها أولاً بأول لمن يهمه الأمر.. فهو يؤمن بسيطرة الخيال على كبار السن وكبار المقام.. ربما أكثر من سيطرة الواقع.. فالكبار قد يخافون.. وربما لا يقدرون.. وغالباً يسعدهم أن يعيشوا فى الوهم.

لكننا لا نستطيع القول أن ثروته حققها بالدعارة والصور العارية.. ولكن الدعارة والصور العارية كانتا من وسائل السيطرة والقوة الإضافية التى يلجأ إليها إلى جانب الوسائل الأخرى المعروفة.. الرشوة.. والعمولة.. والدعاية.. وشراء الأقلام.. والسيطرة على الضمائر.. والوسط الفنى.. ولكن.. كانت هناك وسيلة لا يتمتع بها كثيرون مثله من رجال الأعمال المصريين.. وهى صداقته العميقة بكل سفراء أمريكا فى القاهرة.. وهى صداقة يرفعها البعض إلى مرتبة العمالة.. ويفسرها البعض بأنها أمر طبيعى بين رجل أعمال مصرى يحمل الجنسية الأمريكية.. والسفير القوى الذى يملك الكثير من الصفقات من خلال أموال المعونة الأمريكية فى مصر والتى وصلت إلى مليارات من الدولارات سنوياً منذ أن وقعت مصر وإسرائيل اتفاقية السلام بين البلدين.

ويصعب أن نتهمه بالعمالة.. لكن.. يمكن القول أنه كان صديقاً فوق العادة لكل ما هو أمريكى فى مصر وفى أمريكا.. ومن ثم كان يعتبر السفير الأمريكى أقرب إليه من المسئولين المصريين إذا ما تعرض إلى أزمة.. فأول من يتصل به أو يجرى عليه هو السفير الأمريكى.. وهو لا يتردد فى استغلال أى شىء لصالحه.. بما فى ذلك أزمة أقباط المهجر التى تستغلها الإدارة الأمريكية والجماعات اليهودية فى ألعاب الضغط السياسى على الدولة فى مصر.. هو مستعد أن يستعمل أى شىء من أجل مزيد من المال.. حتى الكذب.. والدموع.. والمؤامرات الخفية.. والخلفية.

إن فى مصر وجوها قبطية ومسيحية لامعة فى عالم البيزنس يعرفون قيمة البقاء فى البلد الذى وُلدوا فيه.. سامى سعد.. وهانى رزق.. ورامى لكح.. ورءوف غبور.. ومنير غبور.. وأمين فخرى عبد النور.. وأنسى ساويرس.. ولويس بشارة.. وثروت باسيلى.. وغيرهم ممن يعرفون أن هذا الوطن لا يفرق بين

جنيه يكسبه مسلم.. وآخر يكسبه مسيحى.. لكنه.. لسبب ما لا نعرفه لا يرى فى مصر سوى بقرة يجب حلبها حتى الدم.. ثم ذبحها.. وتحويل جلدها وجلود المصريين إلى حقائب وأحذية تتباهى بها أسرته.

وأسرته كانت حتى قيام ثورة يوليو أسرة معدمة.. هاجرت والفقر يطاردها من صعيد مصر.. وقد وجد الأب الذى تربى فى مدارس البعثات التبشيرية فى أسيوط وحصل منها على شهادة الثانوية العامة، فرصة للعمل فى السفارة الأمريكية.. كان مسئولاً عن تخزين المواد التموينية لطاقم السفارة من الدبلوماسيين.. وهو عمل جعله يدخل بيوت الكبار فى السفارة.. ويصبح على علاقة حميمة بهم وبزوجاتهم.. وكان قادراً بفطرته الطبيعية أن يعرف الدبلوماسى المنتمى للخارجية الأمريكية.. والدبلوماسى المنتمى لوكالة المخابرات المركزية.. وقد كان يعطى للجواسيس اهتماماً أكبر من الاهتمام الذى يعطيه للدبلوماسيين.. فهم الأقوى والأكثر نفوذاً وتأثيراً حتى لو كانوا فى مرتبة وظيفية أقل.. والغالب أنه فى العواصم التى بينها وبين واشنطن متاعب وأزمات سياسية ـ مثل مصر فى الستينيات ـ يكون السفير.. أو القنصل العام ـ على الأقل ـ هو ضابط مخابرات.

كانوا يعتمدون عليه فى توريد الطعام.. وأدوات المطبخ.. ثم أصبح متعهداً لحفلتهم.. ثم منظماً لرحلاتهم الخاصة إلى معالم مصر المختلفة.. أسوان.. الأقصر.. سيوة.. العلمين.. وهو الموقع الساحر الذى بنيت فيه مارينا.. وقد ساعده ذلك على فهم عقلية الأجانب فى السياحة التى مارسها بنجاح فيما بعد.. لكن الأهم أنه نال ثقة الأمريكيين.. بعثة دبلوماسية بعد أخرى.. ولم يكن يمانع فى أن ينقل لهم بعض الأخبار التى يسمعها.. لكنهم استفادوا منه أكثر فى معرفة مؤشرات الرأى العام فى مصر.. ومدى شعبية جمال عبد الناصر.. وآخر النكات.. وآخر الشائعات.. وفى الوقت نفسه لم يكن يبخل بما يعرف من معلومات لا تنفع ولا تضر عن السفارة الأمريكية لأجهزة الأمن المصرية التى كانت تعتبر ذرة التراب فى السفارة الأمريكية هو خبر يستحق أن تعرفه.

لكن فطرة الأب ومشيه على الحبال ومسك العصا من المنتصف لم يفلح معه بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. لقد وصلت العلاقة بين القاهرة وواشنطن إلى حد

القطيعة.. وأغلقت السفارة الأمريكية.. وأصبح الأب بلا عمل.. لكن شيئا ما حدث جعله يفقد ما جمعه من ثروة.. وما بناه من عقار.. وما اشتراه من أراض زراعية.. شيء ما خطير جعلهم يضعونه تحت الحراسة.. فقبل قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين قبض على الأب وهو فى طريقه للسفارة.. وعندما فتشوه وجدوا فى جيبه ورقة فيها النكات التى كانت تطلق فى ذلك الوقت بشراسة على الجيش المصرى المهزوم.. وعلى جمال عبد الناصر.. وعبد الحكيم عامر.. وكانت هناك ورقة أخرى فيها خبر عن صراع على السلطة يشترك فيه قادة الجيش.. وشائعة ـ تأكدت فيما بعد ـ عن تنحى الرئيس عن السلطة فى البلاد.. وقد كانت هذه الأوراق كفيلة فى الظروف العادية بمحاكمته بالتجسس.. أو على الأقل باعتقاله.. لكن ظروف الهزيمة ـ والقبض على صلاح نصر مدير المخابرات الشهير ووضعه تحت التحفظ فى مستشفى الطيران بالعباسية ـ خففت الموقف إلى فرض الحراسة على أمواله هو وزوجته وأولاده القصر... وهو ما أعاده من جديد إلى أيام الفقر والشقاء.. ولولا أن أسرة زوجته تدخلت بالمساعدة.. لمات هو وأسرته من الجوع.. لقد أصبح منبوذاً.. وحيداً.. محتاجاً.. أعطته الدنيا ظهرها.. وكل شيء من حوله لم يعد فى مكانه.. البيوت.. ومحطات الأتوبيس.. والأشجار.. ومحلات الطعام.. والأسواق.. والمخابز.. ومدارس الأولاد.. لم تعد الأشياء كما كانت عليه.. حتى هو لم يعد يشعر برغبة فى الحياة.. وفكر أكثر من مرة أن ينسحب من القاهرة ويعود إلى قريته فى الصعيد.. على الأقل يوفر طعامه الذى يشعر بالذل كلما تناوله من يد زوجته.. بفلوس أسرتها.. وفكر أن ينسحب هو وأسرته من مصر.. ويهاجر إلى أمريكا.. فكر أن يقطع هو أيضاً العلاقات مع مصر.. كما فعل أصحابه «الأمريكان».. لقد ضاعت كل الخرائط منه ولم تبق سوى خريطة الطريق إلى لوس أنجلوس.. حيث يعيش أغلب المهاجرين المصريين.. أصبحت أمريكا فى لحظة هى الحلم والسقف والمأوى.. هى واحة الحرية التى سيهرب إليها من وطن تشابه كل الناس فيه.. أصبحوا نسخة واحدة.. ولساناً واحداً.. وعقلاً واحداً.. ويستعذبون القهر حتى صار عقل كل منهم فى نعليه.. وطن تساوت المشانق فيه طولاً.. والسجون ارتفاعاً.

واقترض من طوب الأرض.. ووضع القرش على القرش.. والجنيه على الجنيه.. وسافر هو وأسرته إلى واشنطن.. وقبل أن يستقلوا الطائرة إلى لوس أنجلوس

ـ حيث يعيش أقارب زوجته ـ وجد شاباً يتقدم إليه ويطلب منه أن يتبعه.. وقاده إلى مكتب من مكاتب الأمن الخلفية.. وهناك وجد من يرحب به.. ويأخذه بالأحضان.. ولم يكن من الصعب أن يتعرف عليه رغم مرور سنوات وسنوات على تركه العمل فى السفارة الأمريكية فى القاهرة.. إنه واحد من الرجال الغامضين المهمين الذين كان السفير يعمل لهم ألف حساب رغم أنه فى درجة دبلوماسية أقل بكثير.. وفهم الأب ما هو مقدم عليه.. لكنه لم يشعر بالقلق.. ولا بالخوف.. فهو يؤمن بأن الأمريكيين هم الأقوى.. فهم على الأقل الذين كسروا أنف جمال عبد الناصر.. وحولوه من بطل قومى بعد حرب السويس إلى جواد مهزوم بعد هزيمة يونيو.. لا يستحق سوى رصاصة الرحمة.. إنه يكره جمال عبد الناصر وكأنه الموت.. أو العمى.. أو الشلل.. وهو يحب الأمريكيين إلى حد الهوس.. ثم إنه قطع كل جسوره وجذوره مع بلاده.. وفى النهاية ليس لديه ما يخسره.. فليعمل مع المخابرات المركزية.. فليعمل مع الشيطان.. مع الجن الأزرق.. هو يريد أن يعيش هو وأسرته.. ويصبح ثرياً.. ويحمل الجنسية الأمريكية.. ولن يقدر أبناء صلاح نصر وتلاميذه على الوصول إليه.

وفى ذلك اليوم أخذوه هو وأسرته إلى فندق فى ولاية فرچينيا الملاصقة لواشنطن.. إن الناس لا تسكن فى واشنطن التى لا تزيد مساحتها على ١٠٠ ألف ميل مربع.. فواشنطن هى مجرد مكتب كبير يأتى إليه الموظفون فى الصباح.. لكنهم يعودون إلى بيوتهم فى المساء.. يعودون إلى ولايتى فرچينيا وفلوريدا.. وهما أقرب الولايات إلى واشنطن.. وضعوهم فى فندق.. أو موتيل والموتيل نوع من الفنادق الرخيصة التى تستخدم فى اللقاءات الجنسية العابرة.. ويدفع زبائنها ثمن الإقامة فيها مقدماً.. لكن لم يكن عليه أن يدفع.. كان عليه أن يأكل ويشرب وينام ويشاهد التليفزيون ويقبض بعض النقود كل أسبوع.. وينتظر.. وطال الانتظار إلى أكثر من ثلاثة شهور.. ورغم الترقب والملل كان سعيداً بما هو فيه.

ذات صباح وجد سيارة سوداء تنتظره على باب الموتيل.. وجاء من يدعوه لركوبها.. وانطلقت السيارة إلى مكان قريب فى نفس الولاية.. ڤرجينيا.. تركت السيارة المدينة.. والطرق الرئيسية.. ودخلت إلى الريف عبر طرق جانبية.. ولم تمر عدة دقائق حتى وجد لافتات خضراء عليها حروف بيضاء كبيرة تشير إلى

المقر الرئيسى لوكالة المخابرات المركزية.. وقد شعر بالرهبة.. لكنه شعر أكثر بالدهشة عندما رأى الأسهم واللافتات تشير بصراحة إلى مقر الوكالة.. فلا أحد يتصور أنه يمكن أن يرى بسهولة مبنى المخابرات الأمريكية التى ينسب إليها حجم كبير من الشرور التى تفزع العالم.. وتنسج حولها كل يوم أساطير تجعل منها مستحيلاً يضاف إلى المستحيلات الأخرى الشهيرة.. الغول والعنقاء والخل الوفى.. ثم إنها منظمة تجسس سرية يفترض فيها أن تكون بعيدة عن العيون.. لا أن تشير إليها لافتات وعلامات الطريق.. وكأنها شركة فورد للسيارات.. أو مسرح فرقة استعراضية فى برودواى حى المسارح فى نيويورك.. أو ستديو يونيفرسال فى هوليوود.

يقع مبنى المخابرات المركزية فى منطقة تحاصرها التلال والغابات تسمى «لانجلى».. على بعد ٨ أميال أو ٢٠ دقيقة بالسيارة من البيت الأبيض (مقر الرئاسة).. ومن وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) على حد سواء.

الأشجار الكثيفة تحاصر المبنى وتستره عن العابرين.. وبين الأشجار تمرح الحيوانات البرية بحرية.. ويستطيع مدير الوكالة أن يستمتع بمشهد ذئب يفترس قطيعاً من الأرانب الجبلية من وراء نافذة حجرة طعامه الخاصة والمريحة والأنيقة أعلى المبنى قبل أن يتناول وجبة الغداء.. ويبدو أن ذلك هو ما دفع رجال وزارة الخارجية الأمريكية - الذى قضى سنوات طويلة من عمره فى خدمة من يأتى منهم إلى القاهرة - إلى وصف رجال المخابرات المركزية بالرجال «الذين يعيشون فى الأحراش».. والعبارة تحمل الكثيرمن السخرية والكراهية أيضاً.

وقد لاحظ أن البناء ضخم إذ ما قورن بطرز الأبنية فى واشنطن.. لا ينافسه فى حجمه سوى مبنى البنتاجون.. فمبنى المخابرات المركزية - كما عرف فيما بعد - بنوه على ٩ فدادين.. وحوله أرض فضاء مساحتها تصل إلى ١٢٥ فداناً.. تعتبر جزءاً غير مكشوف من منطقة حكومية مساحتها ٧٥٠ فداناً بما فيها الغابات.. والموقع يبدو مناسباً من زاوية الأمن.. فالغابات كثيفة والهضاب عالية والمبنى غير مرتفع وبينه وبين الطريق السريع آلاف الأمتار.. يضاف إلى ذلك سور مغطى بأجهزة الإنذار والكاميرات الخفية المتصلة بغرفة مراقبة مركزية ترصد دبيب النمل وتسلل الحشرات الزاحفة.

اخترقت السيارة التى تحمله بوابة كبيرة.. كان أمامها مباشرة مبنى الحراسة.. وعلى اليسار بدا المبنى الرئيسى فى الظهور من وراء الأشجار.. وبعد مئات الأمتار وصلوا إليه.. ووجد أن لون هذا المبنى فى لون الأسمنت الرمادى الفاتح.. وهو لون يتلاشى وسط السحب المتكاثرة التى تهدد المنطقة بأمطار فجائية.. لا تتوقف سريعاً.

لم يلحظ فى هذه المرة أن بجانب المبنى الرئيسى توجد مبان ملحقة تضم آلات المصاعد الكهربائية ومعامل ومطاعم تتسع لأكثر من ألف شخص وقاعة محاضرات وسينما معاً، لها قبة مميزة تتسع لحوالى ٥٠٠ شخص وتستخدم فى تدريس البرامج لصغار الموظفين وفى المؤتمرات الصحفية.. وعلى بعد ميلين من الطرق الداخلية المرصوفة توجد ساحة انتظار تحتل ٢١ فداناً وتستوعب ٣ آلاف سيارة.. لكنه لاحظ فى المدخل على اليسار لوحة رخامية معلقة على الجدران منقوشة عليها عبارة من الكتاب المقدس تقول: «وسوف تعرف الحقيقة والحقيقة سوف تجعلك حراً».. وفى هذه اللحظة رسم علامة الصليب على صدره.

وكذلك فإنه لاحظ أن كل أبواب الغرف التى يمر عليها مغلقة.. وليس عليها أرقام ولا علامات ولا أسماء.. وأن الأبواب والجدران مبطنة بعوازل الصوت.. وبدا له المبنى وكأنه مهجور من الداخل ليس به أحد.

قادوه إلى حجرة واسعة.. يجلس فى نهايتها رجل فى الأربعينيات سرعان ما تعرف عليه.. لقد كان واحداً من الذين عرفهم فى مصر.. لكنه لم يتصور أنه يمكن أن يكون رجل مخابرات.. فهو أشبه بعلماء الطبيعة بظهره المنحنى ونظارته السميكة وصوته الخافت وشروده الواضح الذى لا يفارقه.. وقد أخذه بالأحضان.. وراحا معاً يتحدثان عن ذكرياتهما القديمة فى مصر.. والطعام الشرقى «المسبك» الذى يفتقدانه هما الاثنان.. ولم يتردد رجل المخابرات فى أن يكشف له عن كل ما تعرفه المخابرات المركزية عنه.. وقد فوجئ بمعلومة لم يكن يعرفها هو شخصياً عن زوجته، هى أن أحد أجدادها من أصل يهودى.. وقد تأكد من زوجته فيما بعد من صحتها.. وقبل أن يعبر عن خوفه منها بادرته قائلة:

ـ احمد ربنا.. لولا هذا العرق اليهودى لما كانوا قد وثقوا فيك.

وفى وكالة المخابرات المركزية أعطوه كتاباً اسمه «العائلة» وهو كتاب طبعته إحدى دور النشر المعروفة.. وطلبوا منه أن يقرأه.. والكتاب يروى تاريخ العائلة.. عائلة المخابرات الأمريكية.. وأحياناً يسمونها الشركة.. أو القبيلة.. ومهمة هذه القبيلة التقاط المعلومات وغربلتها.. مهما كانت هذه المعلومات بسيطة وساذجة.. إنهم يجب أن يعرفوا كل شىء.. من شحمة الأذن اليسرى لموظف مغمور فى مصر إلى نوعية الميكنة الزراعية فى السعودية... ومن الحسابات السرية للرئيس العراقى صدام حسين إلى لون الشعر الذى يستخدمه وزير خارجية جنوب أفريقيا.. وليس مهماً حجم المعلومات بقدر ما هو مهم دقتها.. لذلك كانت الوظيفة التى عرضوها عليه فى الوكالة هى أن يراجع معهم بعض المعلومات التى يحصلون عليها من مصر.. على أن يكون الغطاء الذى سيختفى وراءه هو غطاء شركة لاستيراد التوابل من كل بلاد الشرق بما فيها مصر.. إن هذه الشركة ستتيح له معرفة أكبر عدد من المصريين فى أمريكا وفى مصر.. فتصدير التوابل لن يثير انتباه أجهزة الأمن المصرية.. وبيعها للمصريين المهاجرين سيسعدهم وسيشعرهم بمزيد من الارتباط بالوطن.. ولم ينس ضابط التشغيل أن يقول له فى نهاية اللقاء الأول:

ـ إنك واحد منا الآن.. وقد دخلنا إليك من أقصر الطرق.. ونحن نعرف أنك خائف.. لكن تأكد أننا نخاف عليك أكثر مما تخاف على نفسك.. فأنت شخص.. ونحن دولة.. وسمعتنا تهمنا فى المقام الأول خاصة إذا ما هددت هذه السمعة دولة صغيرة مثل مصر.. عرفت كيف تثير الصخب حول نفسها.. ونجحت فى توجيه ضربات محرجة لنا.

فسأل وهو متردد:

ـ لكن.. كيف تكشفوننى بهذه السهولة.. وقبل أن أعمل معكم؟

فكانت الإجابة:

ـ إن أقرب الأشياء فى الحقيقة أكثرها بعداً عن الخيال.

على أنهم فى الواقع أرادوا تجنيده من أول لحظة.. وبدون تفكير أو تردد..

فالمخابرات المصرية لا يمكن أن تكون قد علمت بزيارته إلى مقر الوكالة.. ولكنهم استغلوا مشاعر الخوف التى تكونت فى قلبه منها فى قطع كل الطرق وكل الجسور بينه وبين مصر.. ليصبح واحداً من عملائهم منذ أول وهلة.. هو الآن يشعر أنه لا مفر.. يجب أن يعمل معهم.. وفى نفس الوقت شعر بالسعادة مما جرى.. فهو لن يعود إلى مصر مرة أخرى.. وهو فى «لانجلى».. أو فى مقر المخابرات المركزية سيساعدونه فى كل شىء.. فى كسب النقود.. وتراكم الثروة.. والحصول على الجنسية.

ووجد كل شىء جاهزاً لتبدأ شركته.. شركة «آمون عبر البحار للاستيراد والتصدير».. فى نيويورك وراح الزبائن يتوافدون عليه دون أن يعرف أيهم زبون حقيقى.. وأيهم ضابط مخابرات متخفٍّ.. لقد اختلط عليه الأمر.. لكن.. لا شىء يهم.. سوى الدولار.. الحاكم الحقيقى لأمريكا وللعالم.. والدولار الآن يتدفق بين يديه.

لم يكن يعرف ما الذى سيطلبونه منه بالضبط.. ما الذى عليه أن يقدمه لهم من خدمات مقابل كل هذه الأبواب التى فتحوها له؟.. وقد مر عام دون أن يطالبوه بشىء.. هل هؤلاء الناس بلهاء.. هل يردون له الجميل بعد خدمته معهم فى القاهرة.. هل هم مستعدون لأن يدفعوا لأى مصرى يعادى جمال عبد الناصر؟.. هو كل يوم ينتظر.. ولكن الانتظار طال.. حتى نسى تقريباً كل شىء.

فى يوم من الأيام يتذكره جيداً وجد من يلقى فى حجره بكومة من الأوراق ويطلب منه قراءتها.. فقط عليه قراءتها.. ثم بعد أن ينتهى منها عليه أن يقول هل هى مقنعة أم ساذجة.. ومن يومها عرف أن فى المخابرات الأمريكية إدارة كاملة مهمتها تأليف الروايات الخيالية عن الجاسوسية.. وتأليف الروايات التى تبدو حقيقية عن الزعماء السياسيين المعادين للولايات المتحدة.. وهى تسربها إلى صحافيين وكتاب يعملون معها.. فينشرونها.. ويكسبون من ورائها.. ويشتهرون بسببها.

كانت الأوراق تروى قصة شاعت فيما بعد.. قصة التخلص من الدكتور أنور المفتى طبيب جمال عبد الناصر الخاص الذى كان يعالجه من مرض السكر.. لقد

صدمته سيارة نقل (لورى) وهو فى سيارته بعد أن خرج من بيته فى صباح يوم ٢ أبريل ١٩٦٣.. ولكنه نجا من الموت بأعجوبة.. وفى منتصف ليلة ١٦ يناير ١٩٦٤ وجدته زوجته السيدة فاطمة العبد وقد تحول لونه إلى اللون الأزرق.. ورغاوى بيضاء تخرج من فمه.. ولا يرد على من ينادى عليه.. وفى دقائق صعدت روحه إلى السماء.. وقد قيل أنه قتل بالسم لأنه نصح جمال عبد الناصر بالخروج من الحكم فوراً.. لأن مرض السكر يجعله فى حالة لا يقدر معها على تقدير الأمور بدقة.. ولهذا تخلصت منه المخابرات المصرية فى ذلك الوقت.

كان عليه قراءة هذه الرواية.. وتحديد إلى أى مدى يمكن أن يصدقها الناس البسطاء فى مصر.. كجزء من مسلسل الحرب النفسية الذى لا يتوقف فى واشنطن ضد جمال عبد الناصر.. كان المطلوب منه أن يحدد إلى أى مدى يمكن أن تكون هذه الرواية مقنعة ومحبوكة لتصل إلى الناس وكأنها حقيقة.. وكان عليه أن يروج لها وسط المصريين فى أمريكا.. وخاصة أن ابنة الدكتور أنور المفتى ترافق زوجها وابن عمها فى بعثة للحصول على الدكتوراه فى جامعة «نيويورك سيتى».. وكل المطلوب منه أن يسألها المصريون هناك عن حقيقة هذه الرواية.. فتتردد.. وتنتشر.. وتتحول من دعاية سوداء مغرضة إلى حقيقة مستقرة فى عقل كل من يسمعها.. حسب قواعد الحرب النفسية.

ولابد أنه نجح فى مهمته.. فقد تحولت الشائعة إلى حقيقة.. راحوا يساندونها بكذبة طبية وهى أن جمال عبد الناصر كان مصاباً بنوع السكر الأحمر.. وهو أخطر أنواع السكر.. وهو يأتى من زيادة تخزين الحديد فى الجسم.. ويؤدى إلى تلف بعض الأعضاء مثل الكبد والقلب والمخ.. ويؤدى إلى ضعف العضلات واضطراب الذاكرة والأرق والميل للهستريا والهلوسة.. ومع أن جمال عبد الناصر لم يكن مصاباً بهذا النوع من السكر إلا أنه استخدم فى تلفيق قصة لا شهود عليها وهى أن الدكتور أنور المفتى قال بعد الكشف على الرئيس: إن صحته تقتضى أن يخرج من الحكم فوراً.. لذلك قتلوه بالسم.

وبعد وفاة جمال عبد الناصر تحولت التهمة من أحاديث المقاهى إلى مقالات الصحف.. وراح يتبناها كاتب اتهم بالتجسس لصالح المخابرات المركزية هو مصطفى أمين.. الذى نجح فى إقناع زوجة الدكتور أنور المفتى بتقديم بلاغ إلى

النائب العام للتحقيق فى هذه التهمة.. وكان ذلك فى ٥ أغسطس ١٩٧٥ لكن التحقيق انتهى بالحفظ.. وإن بقى هناك من هو مستعد أن يواصل اتهام جمال عبد الناصر بالقتل.

وكانت هناك رواية أخرى ساهم فى الترويج لها وهى أن جمال عبد الناصر قتل بالسم بواسطة التدليك الذى كان يقوم به الدكتور على العطفى الذى جندته المخابرات الإسرائيلية.. ورغم أن الرواية إسرائيلية إلا أن التعاون الوثيق بين الموساد والمخابرات المركزية سمح للرواية أن تأتى من تل أبيب إلى القاهرة عبر لانجلى.. والمعروف أن جمال عبد الناصر كان قد أصيب بجلطة فى الساق اضطرته للسفر إلى مصحة فى تسخالطوبو فى الاتحاد السوفيتى لإجراء جراحة عاجلة.. وبعد عودته كانت معه توصية بإجراء جلسات علاج طبيعى.. وهذا الجزء من الرواية صحيح.. وقد أضيف له.. أن رئاسة الجمهورية رشحت الدكتور على العطفى لهذه المهمة دون أن تعرف أن الموساد قد جندته.. وأنه بتعليمات من الموساد كان يدس نوعاً من السم فى مراهم التدليك حتى قتل جمال عبد الناصر.. وهذا الجزء من الرواية غير صحيح، فقد ثبت أن الموساد لم تجند على العطفى إلا بعد وفاة جمال عبد الناصر بعامين.. حسب أوراق القضية التى اتهم فيها وحوكم وقضى فترة العقوبة فى السجن حتى فقد بصره ومات.

كان المطلوب تحطيم جمال عبد الناصر حياً وميتاً.. لذلك روجت الموساد هذه الرواية وطبعتها فى كتاب مجهول المؤلف والناشر.. وساهمت المخابرات المركزية فى مراجعته.. وقد أعطوه الكتاب قبل طباعته ليعرفوا تأثيره عليه.. وليقيسوا مدى الانفعال به والاستجابة إليه.. إن مهمته فى كواليس المخابرات الأمريكية هى تذوق الأكاذيب المصنوعة بدقة والموجهة إلى مصر والمصريين.. وهو هنا مثل الذى يشم العطور.. أو يفرق بين أنواع السجائر.. أو أنواع النبيذ.. هو هنا عليه أن يفرق بين أنواع الروايات الملفقة ليعرف الجيد من الردئ.. وهى مهمة ليست سهلة.. تحتاج إلى مواصفات خاصة كان يتمتع بها.

لكن.. هذه المرة كان عليه أن يقابل رجال الموساد ليقول لهم رأيه وجهاً لوجه.. دون وسطاء.. وشعر بالقلق والاضطراب.. وحاول التهرب من اللقاء.. لكن ضابط تشغيله فى لانجلى رفض.. وفوجئ به يعامله بقسوة لأول مرة.. وفى هذا

اليوم شعر أن الجاسوس لا كرامة له.. وأن أبسط ثمن لخيانة الوطن هو أن يهينوه.. بل إن الطامة الكبرى كانت عندما طلبوا منه السفر إلى إسرائيل والتفاهم مع رجال الموساد هناك على الطبيعة.. لقد سقط الحجر من الجبل وليس هناك ما يمنع وصوله إلى الأرض.. ويبدو أن بعض الحياء كان لايزال فى دمه.. فقد أصيب وهو عائد من تل أبيب فى الطائرة بنوبة قلبية وكاد أن يموت فى الجو.. وفى هذه اللحظات تمنى أن تسقط الطائرة فوق قريته فى الصعيد..

فى هذه اللحظات أيضاً تذكر ابنه الذى كان على وشك التخرج من جامعة القاهرة.. لقد أجبره ضابط التشغيل على إرسال ابنه.. للدراسة فى القاهرة.. على أن تلحق به شقيقته عندما تصل لسن الجامعة.. هم يريدون الابن هناك.. لقد مات جمال عبد الناصر.. وجاء أنور السادات الذى يثقون فيه. ولكنهم يريدون أن يعرفوا عن قرب ما الذى يجرى فى مصر.. وكان الحل الوحيد هو الاعتماد على أجيال جديدة من العملاء تنتمى لهم ويمكن زراعتهم فى أماكن حساسة لقياس الرأى العام مثل الجامعة التى كانت فى ذلك الوقت ميدان صراع شرس بين اليسار والجماعات الإسلامية المدعومة من النظام والمسلحة بأسلحة بيضاء قدمها لها بعض رجال الأمن.

كان على الابن ـ بطل هذه القصة ـ أن يكتب إلى أبيه كل ما يشاهده فى الجامعة.. وكان الأب يحمل هذه الرسائل إلى ضابط التشغيل.. وكان ضابط التشغيل يطلب من الأب أن يستدرج الابن إلى موضوعات بعينها.. ولم يقدر الأب أن يرفض.. لقد عجز عن الرفض عندما طلبوا منه أن يسافر إلى القاهرة.. قال لهم:

ـ إلا ابنى.

فقالوا له:

ـ المهم ابنك.

ـ لكنى أخشى عليه من أن يحدث له مكروه فى القاهرة.

ـ نحن نخشى عليه أكثر.

ـ لكن...

ـ ليس فى عملنا «لكن».. فى عملنا.. «حاضر».

وتخرج الابن فى الجامعة.. وعندما عاد إلى نيويورك كان الأب قد أصبح تابوتاً فى مقبرة مجهولة هناك.. لقد أصيب بألم شديد فى العمود الفقرى أجبره على النوم على الأرض مبحلقاً فى سقف الغرفة لمدة ثلاثة شهور.. وعندما أصبح قادراً على الحركة شعر بوخزة حادة فى صدره.. وفى دقائق حملته سيارة إسعاف إلى المستشفى.. وخلال ربع ساعة توالت الأزمات القلبية.. فخرجت روحه ولم تعد بجهاز الصدمات الكهربائية.

شعر الابن أنه فى شباك صيادين.. يرمونها ويسحبونها كما يشاءون.. شعر أنه يتعامل مع وحش خرافى لا أحد يقدر على قهره أو الإمساك به.. وشعر أنهم فى لانجلى قادرون على أن يعلقوا جلده بالدبابيس على الجدران.. وأنه فى مواجهتهم لا يقدر على التمدد.. وكل ما يقدر عليه هو التبخر..

لكنه فى الوقت نفسه كان يشعر بأنهم سيساعدونه فى تحقيق طموحه الذى يوجع الشمس.. وربما يعالجون أصابعه لو احترقت وهى تصطاد النجوم.. وتنكش فى ضوئها.. وهو ليس طموحاً فقط وإنما هو مغامر أيضاً.. وقد تعلم أن يكسب بأى ورقة لعب بغض النظر عن مصدرها.. هو بلغة الأمريكان برجماتى.. أى نفعى.. مصلحته فوق الجميع.. وفوق القانون والأخلاق.. ليكسب دولاراً حتى لو مات نصف سكان العالم بالتسمم.. ليصبح الأقوى والأغنى.. حتى لو جمع ثروته بالفساد والرشوة والدعارة.. فالنقود تصيب الناس بفقدان الذاكرة.. لا أحد يعرف عيوب من يدفع له.

وقد دعوه فى لانجلى لزيارتهم.. وفى هذه الزيارة فتحوا له كل أبواب الفرجة.. وأبواب الثروة.. وقالوا له عبارة لا ينساها:

ـ لا أحد يستطيع إيقاف الماكينة.. لا أحد يستطيع..

كانت الماكينة التى انطلقت هى ماكينة التغيير فى مصر.. من دولة معادية إلى دولة صديقة.. على الأقل.. فالأفضل أن تكون دولة تابعة.. خاضعة.. خانعة..

خاشعة.. ولكن كل خطوة يجب أن تكون متأنية وبحذر.. إن النفس الطويل من صفات الناس والسياسات فى لانجلى.. السياسات لا تموت بموت الأشخاص حتى لو كانوا يعترضون عليها.. السياسات دول وليست أشخاصا.. وكل شخص عليه دور فى تنفيذ السياسات.. ودوره لم يأت بعد.. دوره سيحددونه فى الوقت المناسب.. وساعتها لن يقدر على الرفض.

وفوجئ بهم يطلبون منه أن يغلق شركة التوابل التى طلبوها من أبيه.. وأن يفتح شركة جديدة للمبانى والمقاولات.. ثم ما أن أصبحت الشركة قائمة حتى طلبوا منه السفر إلى السعودية والدخول فى مناقصة لبناء عنابر للطائرات الحربية فى قاعدة الظهران التى يسيطر عليها الأمريكيون.. وقبل أن يفتح فمه ويعترض فوجئ بابتسامة أشبه بابتسامة الثعابين ترد عليه.. كان يعرف أن السعودية لا تميل إلى التعامل مع غير المسلمين.. وكان يريد أن يقول أنه لا يفهم فى المقاولات والمناقصات.. وأنه درس العلوم السياسية بناء على أوامرهم.. فكيف سيصبح مقاولاً بناء على أوامرهم أيضاً.. لكنه لا يجرؤ على الاعتراض.. لا هو ولا أحد من أهله يجرؤ على ذلك.. هذا هو الدرس الوحيد الذى يجب ألا ينساه.

وسافر إلى الظهران هو وأمه وشقيقته.. وفى الطائرة كان يحمل فى حقيبة يده أكثر من كتاب عن السعودية وتوقف طويلاً عند قصة المستشرق تشارلس كرين.. أول أمريكى بارز يعرفه السعوديون.. لقد كان مليونيراً.. جمع والده ثروة كبيرة من بيع الأدوات الصحية.. لكنه تركها ليرافق صديقه الچيولوچى كارل توتشيل إلى المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية.. حيث كان توتشيل يحاول تنفيذ مشروع لمد المياه والكهرباء بواسطة طواحين الهواء.. لكن المشروع فشل.. لكنهما نجحا فى اكتشاف النفط فى هذه المنطقة مقابل ٣٠ ألف جنيه إسترلينى.. وهكذا وصلت شركات البترول الأمريكية إلى السعودية.. وقد أدى وصول الأجانب إلى هذا المجتمع البدوى المتزمت إلى صدام حضارى بينهم وبين الناس هناك.. وهو ما جعل الملك عبد العزيز بن سعود يضع الأجانب فى معسكرات خاصة بهم.. يفعلون وراء أسوارها ما يحلو لهم.. ويستخدمون كل ما أتوا به من ماكينات وأجهزة كان السعوديون فى ذلك الوقت يعتبرونها رجساً من عمل الشيطان.

فى إحدى المدن العسكرية الأمريكية وجد بيتاً ليعيشوا فيه.. وبدأ فى تقديم العروض لبناء عنابر الطائرات.. ولم يكن من الصعب الحصول عليها.. ولا على غيرها من المشروعات.. وخرج من المشروعات الأمريكية إلى المشروعات السعودية.. ومن الظهران إلى الرياض.. ومن التعامل بالدولار إلى التعامل بالريال.. وعرف هناك كيف ترسو المشروعات بالرشوة التى يسمونها بلباقة اسم «السعى».. أى مقابل السعى إلى الصفقة.. لكن.. تعلم أكثر كيف يهرب الخمور ليقدمها هدية ثمينة لمن فى يده الحل والمفتاح.. ثم وجد أن النساء أفضل.. فراح يفتح شركته لنساء الأجانب الذين يعملون معه.. ولم يكن من الصعب توصيلهن إلى الأمراء.. مقابل مبالغ طائلة كن يحصلن عليها.. ولم يكن له نصيب فيها.. وإنما كان له نصيب فيما هو أكثر دسامة.. وهى المشروعات العملاقة التى كانت بملايين الريالات.

سنوات طوال مرت دون أن يعرف ما الذى عليه أن يقدمه لمن يساندونه فى لانجلى؟.. إنهم يفتحون له الأبواب المغلقة فى السعودية.. لكنهم لا يطلبون منه أى شىء.. لقد تغير الضابط المسئول عن تشغيله ثلاث مرات.. ولا يكلفونه بشىء.. وقد تصور أنهم استغنوا عنه وعن خدمات أسرته.. لكنه.. فجأة وجدهم يستدعونه على عجل.. وعلى الفور دخلوا فى الموضوع مباشرة.. عليه أن يساعد ـ تحت غطاء شركة المقاولات التى يملكها ويديرها ـ الشباب المسلم الذى يريد أن يتطوع للسفر والجهاد فى أفغانستان.. عليه استيراد هؤلاء الشبان من مصر تحت غطاء العمل فى شركته.. ولم يقدر على الرفض.. ولكنه راح يتفاوض فى المبالغ التى سيدفعونها لتنفيذ العملية.. ولم يختلفوا معه.. فهم لا يدفعون من جيوبهم.. وإنما من جيوب السعوديين الذى رصدوا مليارات الدولارات للجهاد ضد الكفار من السوفييت الذى احتلوا بدباباتهم أفغانستان.

وفتحت شركته مكتباً لها فى القاهرة.. أشرفت عليه أخته التى دخلت الجامعة الأمريكية.. كان عليه إخراج الشباب المصرى بطريقة تبدو طبيعية.. وتوصيله إلى جدة.. وفور وصول كل دفعة كان يحصل على ١٠٠٠ دولار على كل رأس بخلاف المصاريف.. وقد فتحت له هذه العملية أبواباً واسعة لفهم علاقة البيزنس بالسياسة والمخابرات والدين والتطرف.. وقد كان مثيراً للدهشة أن الرجل المسئول عن توريد المجاهدين إلى أفغانستان هو نفسه المسئول عن توريد الخمور والنساء

إلى الكبار فى السعودية.. لكنه كان يردد ما يردده الذين يجمعون بين العهر والتقوى.. هذه «نقرة» وهذه «نقرة».

فى الوقت نفسه بدأت المعونة الأمريكية تتدفق على مصر بعد أن وقع السادات معاهدة الصلح مع إسرائيل.. وسافر بنفسه فى ذلك الوقت إلى واشنطن.. وطلب مقابلة ضابط تشغيله فى لانجلى.. وسأله:

ـ ألم يحن الوقت للعودة إلى مصر؟

ـ ليس بعد.

ـ لكنها فرصتى للحصول على نصيبى من مشاريع المعونة الأمريكية.

ـ نصيبك محفوظ.. ستحصل عليه فى الوقت الذى نحدده.

ـ لكن...

ـ قلنا لك لا تستعمل كلمة.. لكن..

لكن قبل أن ينصرف.. أعطوه ملفاً مغلقاً بصورة محكمة.. وطلبوا منه أن يتخلص منه بعد أن يقرأه فى بيته الذى يملكه فى نيويورك.. وفى البيت وجد الملف يتحدث عن المشكلة القبطية فى مصر.. وعن أقباط المهجر. وكيفية استعمالهم فى الوقت المناسب للضغوط السياسية على النظام فى مصر.. وفهم فى هذه اللحظة.. ما هو مفتاح كنز «على بابا» الجديد فى مصر.. وسرح طويلاً وهو يتخلص من الملف بالطريقة التى تعلمها منهم.

فى ذلك الوقت بدأ يفكر فى المرأة.. لقد شعر أن الأيام خطفته من نفسه.. وحرمته من متع الحياة.. لقد تعلم التقشف من تجربة الأب الذى وجد نفسه فجأة وحيداً.. فقيراً.. قبل أن يهاجر أمريكا.. وظل يخاف أن يعضه الزمن بأنياب الفقر رغم الثروة التى بدأت تتراكم فى خزائنه.. وقد ورثت أسرته عنه ذلك.. الحرص الشديد.. والخوف من غدر الأيام.. والتعامل مع النقود فى اتجاه واحد.. أن تأتى إليهم ولا تذهب.. فلم يعرف طعم السيجارة.. ولم يدفع نقوداً فى الخمر.. ولم يقرب المرأة حتى لا يدعوها على عشاء.. أو يقدم لها هدية.. وكان كل ما يفعله هو الجنس المجانى.. فقد اقترض المجلات العارية من أصحابه.. وراح يفرغ

فيها طاقته.. حتى أصبح مدمناً.. وكان يؤمن بأن المرأة الفقيرة أفضل.. فمطالبها أقل.. وأى شىء سيرضيها.. وحتى عندما أصبح واحداً من أغنى أغنياء مصر.. لم يتخلص من عاداته.. فظل يركب الدرجة السياحية فى الطائرات.. وظل يخرج من بيته وهو يحمل السندوتشات.. ولم يضبطه أحد وهو يدعو غيره على الطعام.. وهو معروف بثقل الظل.. لا يستسيغ النكتة المصرية.. ولا غيرها.. وليس له أصدقاء.. وفى معظم الحفلات كان المدعوون يجدونه يرقص بمفرده.. وهو فى التحليل النفسى شخصية تجمع بين الغطرسة والجبن الشديد.. بين التعالى والدونية.. وقد وجد فى ابنة أسرة مصرية مهاجرة.. فى أمريكا مواصفات المرأة التى يريدها.. فهى جميلة.. مثيرة.. من عائلة متوسطة.. رشيقة.. تجيد أكثر من لغة أجنبية.. تعرف كيف تتعامل مع الناس.. وقد اتفقا أن يجربها قبل أن يتقدم إليها.. ولم تجد مانعاً.. ولا يمكن أن ينكر أنه فكر فى استعمالها فى الفراش مجاناً.. على أن يتخلص منها.. ويكرر التجربة مع غيرها.. لكنها كانت تريده بأى ثمن.. طمعاً فى ماله.. وثروته.. ومثل أى امرأة متفائلة.. تصورت أنها قادرة على تغييره.. والحصول منه على ما تريد.

تزوجا فى نيويورك.. وسافرا فى اليوم التالى إلى الظهران.. وقبل أن يصلا كان قد طرد الخادم الهندى الذى يعد له الطعام ويغسل ثيابه وينظف البيت.. لقد جاءت خادمة جديدة.. ستنظف له كل شىء.. حتى توتراته الجنسية.. وكان الخادم الهندى لا يتقاضى أكثر من ٥٠٠ ريال سعودى.. بدون طعام.

وقبل أن ينتهى الأسبوع الأول من الزواج وقع حادث لا علاقة مباشرة له به.. لكنه غير مسار حياته.. لقد قتل السادات وهو فى يوم مجده.. قتل أمام شاشات التليفزيون التى أدمنها وعشقها واستفاد منها.. وشعر بالقلق.. وتصور أن مصر ستقع فريسة للمتطرفين الإسلاميين.. وأنه قد حكم عليه بالبقاء غريباً فى بلاد غريبة.. إن سنوات الدراسة الجامعية التى قضاها فى مصر جعلته يتعلق بها.. إنها سنوات الشباب التى يتفتح فيها الوعى.. ومن أيامها وهو لا يشعر بالراحة إلا فى مصر.. لكنه الآن وبعد أن وصل المتطرفون إلى رئيس الدولة ـ بكل ما يتمتع به من حماية وحراسة ـ لا يتصور أنه يمكن أن يعيش فيها.. على أنه فوجئ فى اليوم نفسه بمن يتصل به ويطلب منه استكمال شهر العسل فى القاهرة.. ولأنه لا يقدر على الاعتراض.. كان فى اليوم التالى فى القاهرة.. كان

عليه أن يعيش عن قرب تجربة أقدم حكومة مركزية في العالم وقد قتل حاكمها الفرعون لأول مرة في تاريخها.. كانت القاهرة صامتة.. موحشة.. خالية من الحياة رغم أن الناس كانت تحتفل بعيد الأضحى.. ولفت نظره أن المصريين الذين صدمهم الحادث لم يكفوا عن إطلاق النكات على السادات.. وشعر لأول مرة أنه لا يفهم هذا الشعب الصبور.. الفيلسوف.. ولكنه خرج بدرس مهم هو أن الحكومة هي أهم شيء في حياة المصريين.. مهما كانت طبيعة النظام السياسي الذي يحكمهم.. نظام ملكي أو جمهوري.. نظام ليبرالي أو اشتراكي.. نظام ديمقراطي أو دكتاتوري.. الحكومة في مصر هي الحكومة.. يسبها الناس ويحترمونها.. يلعنونها ويخافون منها.. ويقلدونها.. ويزايدون عليها.. فلو رفعت شعار الاشتراكية أصبحوا ماركسيين.. ولو رفعت شعار حرية السوق عرضوا كل شيء في حياتهم للبيع.. ولو كانت الحكومة فاسدة أصبح الفساد مؤسسة شعبية.. ولو كانت الحكومة بالدف ضاربة فإن الناس ستسارع بالرقص.. من يسيطر على الحكومة يسيطر على كل شيء.. ومن يشترى الحكومة يربح كل شيء.. ولو سقطت الحكومة صب عليها المصريون كل ما يملكونه من لعنات.. وبحثوا عن الحكومة الجديدة ليقدموا لها الولاء والقرابين.

وصدرت الأوامر، أن ينقل استثماراته إلى مصر، فالدنيا ستتغير فيها.. وستفتح أبوابها على مصاريعها.. وعليه أن يكون فيها حتى يحصل على الكريمة.. وحتى يعرفوا منه أولا بأول كل ما يحدث.. ونصحوه بأن يقوى علاقته بالسفارة الأمريكية في القاهرة.. ليرث نفس المستوى الذى كان عليه والده.. ولكن.. هو الآن رجل من رجالهم.. ويحمل جنسيتهم.. ويمكن أن يصلوا إليه في مكانه.. دون الحاجة أن يصل هو إليهم في مكانهم.. ونصحوه أن يبدأ في مجالين.. السياحة والمقاولات.. ثم يتوسع ويتوحش ويتوغل.. وقد فتحت له أبواب مشروعات المعونة الأمريكية يغرف منها ما يشاء.. ونصحوه أن يبتعد في هذه المرحلة عن الشهرة.. وأن يركز على تقوية علاقاته برموز السلطة.. وأن يصدرها في الحصول على ما يريد.. ونصحوه أن ينافق بقدر ما يستطيع.. وأن ينسب ما هو فيه إلى الدولة.. وإلى سياستها الحكيمة والرشيدة.. وأن يفكر فيما بعد في المشروعات التي يخترق بها مناطق الضمير والرأى العام.. مثل الصحافة والسينما والموسيقى.. يجب أن يسيطر عليها في الوقت المناسب.. المصريون

يمشون وراء المطربين والصحفيين ونجوم السينما أكثر من أى شخصيات أخرى.. وقد عمل بكل هذا النصائح.. أولا بأول.. وحسب الخطة.. ودون تقصير.

لكن.. فى الوقت الذى راح فيه ينفذ الخطة تلقى ضربة شديدة من أقرب الناس إليه.. أخته.. لقد أحبت شاباً مسلماً.. وقررت أن تتزوجه.. وصرخت الأم.. وكادت أن تنتحر.. وحاول هو معها المستحيل لكى تعدل عن قرارها.. حتى أنه عرض عليها مليون دولار هدية منه بعيداً عن نصيبها فى الميراث.. لكنها رفضت.. وتزوجت من تحب.. والناس فى مارينا يعرفونها.. ويعرفون رومانسيتها المفرطة التى تحطمت من جراء ما فعله شقيقها معها.. فقد راح يستخدم التوكيل الذى سجلته له فى إخراجها من الميراث بطريقة تبدو قانونية.. وعندما عرفت بما فعل راحت تقاتله فى المحاكم وتشهر به فى كل مكان.. وربما عاشت سهرات الصيف حتى الفجر فى مارينا كثيراً على هذه السيرة.. وربما كان أول اتهام له بالعمالة للمخابرات المركزية قد جاء على لسان شقيقته.. وربما كان ما نرويه عن قصة حياته، هى أول مصادره.. ثم راحت المصادر تتوالى وتتدفق.

وفى الوقت الذى وصلت فيه الخطة إلى درجة كبيرة من النجاح.. تلقى صدمة أخرى.. لكنها من زوجته هذه المرة.

لكن.. كان لهذه الصدمة مقدمات ضرورية يجب أن تروى.

فى نادى العاصمة ـ وهو ناد شهير لرجال الأعمال يلتقى فيه نجوم المجتمع ـ كان على موعد غداء مع مجموعة من سيدات المجتمع تمثل جمعيات خيرية مختلفة.. كن يتوقعن منه أن يتبرع لمشروع خيرى لإنشاء وحدات لغسيل الكلى فى بعض مناطق العشوائيات فى القاهرة والإسكندرية.. والحقيقة أنه رفض الغداء حتى لا يتورط فى التبرع.. ولم يقبله إلا بعد أن أعلن أنه لا يتبرع إلا من خلال نظام ثابت تتولاه شركته.. ولم ينته الغداء إلا وكان قد تبرع بعشرة آلاف جنيه.. وهى معجزة بكل المقاييس.. ولم يكن السبب أنه أحب فجأة عمل الخير.. أو فتح الله على قلبه بالطيبة.. وإنما لأن شيئا ما ارتعش فى جسده وهى تطلب منه التبرع.. لم يقدر على المقاومة.. لم يقدر على أن يقول: لا.

يمكن أن نقول أنه أحس لأول مرة أنه رجل فى حاجة حقيقية إلى امرأة.. لأول مرة يلغى الحسابات من جسده.. ومن عقله.. ويشعر أنه يريد هذه المرأة بالتحديد.. ومهما كان الثمن.. وهى عرفت تماماً ما فعلت.. فقالت له عندما التقيا مرة أخرى:

- حان الوقت لأعيد صياغتك على طريقتى الخاصة.. حان الوقت لأرسمك على مزاجى.. وكما أريد.. كل النساء اللاتى كتبنك ورسمنك واكتشفنك قبلى كن يجهلن مبادئ الكتابة والرسم.. كلهن نساء يجهلن قراءة الرجولة.. ويعجزن عن الوصول إلى مساحة الجنون.. سأجعل جسدك ملتهباً.. حاراً.. ساخناً مثل الأسفلت فى أغسطس.. وسأجعل شفتيك تصرخان كأجراس النحاس فى وجهى.. لن تقدر على الحب بدون جغرافيا وشعر وموسيقى.. سأطلعك على خرائط الأنوثة.. سترى الهضاب.. التى تتعرج لتصبح سهولاً.. ثم تتفرع إلى أحراش.. وكهوف سرية تسكنها حوريات البحر.. وبالفعل علمته كل ما قالته.. ونفذت ما وعدت به.

ولم تصدق نفسها وهو ينطق بكلمة من كلمات الغزل: «إن جسدك ينتمى للعصر الجميل.. عصر مارلين مونرو.. وهند رستم».. وحمدت الله أنه سمع بهما.

لكن.. لم يمنع الجنس وجود البيزنس.. فهى ابنة شخصية مهمة.. تمرح فى غرف النوم.. ومكاتب البنوك.. وصالونات النميمة.. ومجالس إدارة شركات مختلفة وجد فيها أصحابها ما لم يجدوه فى البورصة.

وأفهمته أنها أصبحت له وحده.. حتى يفهم أن عليه أن يعوضها عن كل ما فقدته.. وراحت تحرضه على ما تبقى فيه من وقار.. فغيرت ثيابه.. ولون سيارته.. وفكر لأول مرة فى شراء طائرة خاصة.. وخرجا معاً فى أماكن مختلفة.. ولم يعد يهمه أن يعود إلى زوجته كل يوم فى الفجر.. ولم يعد يقترب منها.. والغريب أنها لم تكن تبدى أى اعتراض.. كانت تكتفى بالصمت.. وأن تعطيه ظهرها فى الفراش.

واستمر على هذه الحالة أكثر من ستة أشهر.. وزوجته لا تشكو.. وهو لا

يقدر على التراجع.. وفى يوم كانا معاً فى فندق فى شرم الشيخ.. وجد زوجته أمامهما وهما عاريان فى الفراش.. وأخذت الزوجة الطائرة إلى القاهرة.. ثم أخذت سيارتها وسافرت إلى مارينا.. وفى الليل لحق بها.. وكانت المرة الأولى - وأغلب الظن أنها ستكون الأخيرة - التى دخل فيها مارينا.. وفى الفيللا التى يملكها.. ولا تسافر إليها إلا زوجته.. وجد سائق سيارة زوجته فى الفراش معها.. وعندما دخل عليهما.. لم تهتز.. ولم تضطرب.. ولم تقفز من الفراش.. ولكن الذى قفز وهرب واختفى كان هو السائق الذى تخرج فى كلية الهندسة ولم يجد وظيفة سوى وظيفة سائق خاص للزوجة.

وسألها:

- هل هذا نوع من الانتقام؟

فهزت رأسها بالنفى فى ثبات.

وسألها:

- منذ متى؟

أجابت فى هدوء:

- منذ أكثر من عامين.

- ولماذا؟

- ولماذا أنت؟

- لكن.. أنت التى بادرت.

- أنت الآن تستطيع أن تتفهم. قبل ذلك كان من الصعب أن أشرح لك.

- الآن أستطيع أن أفهم المشاعر.

- نعم.

- هل كنت تنتظرين خيانتى لك؟

ـ كنت أنتظر الفرصة التى تتعلم فيها لتفهم ما أقول وما أفعل.

ـ والآن؟

ـ القرار في يدك.

ـ هل ستتزوجينه؟

ـ لا يصلح.

ـ ولماذا....

قاطعته:

ـ اتفقنا.. لا داعى لهذه الكلمة.

ـ الحل الوحيد هو الطلاق.

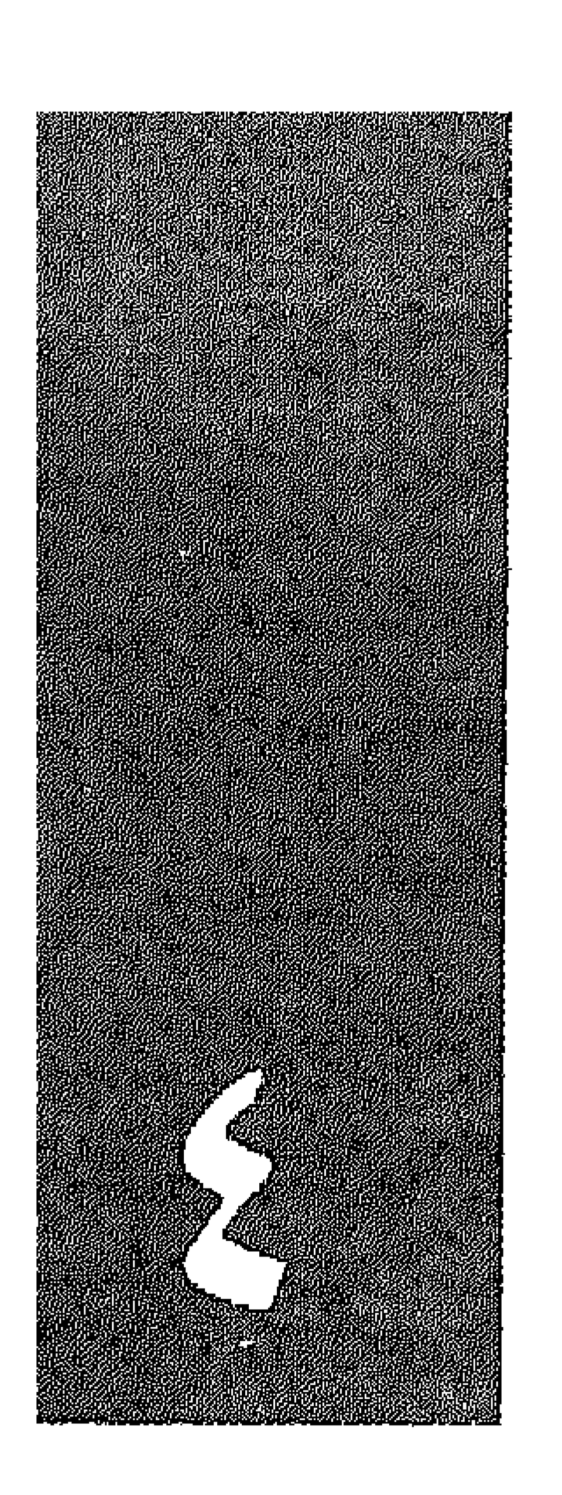
ـ ليكن..

لكن.. ما حدث هو أن الناس الذين يعمل معهم فى لانجلى أبلغوه بواسطة السفير الأمريكى فى القاهرة أن يكف عن ألعاب الأطفال.. وأن يسامح زوجته.. ويغفر لها.. فهناك مصالح أخطر وأهم.

ولأول مرة تساءل: هل تعرف زوجته الطريق إلى لانجلى؟

ولم يجرؤ على أن يوجه لها أو لأحد السؤال.

****



الحب والموت.. بالاسباجتي



قضيت أولى سنوات طفولتى فى الإسكندرية.. وفى هذه السنوات كنت أكتشف الخطر.. وضعت يدى فى الكهرباء لأعرف سر الصاعقة.. تسلقت أسواراً عالية لأكتشف المجهول الذى تخفيه.. ألقيت بنفسى من أماكن مرتفعة لأشعر بتعبيرات كانوا يحذروننا منها.. كالارتطام.. والسقوط.. وتسللت إلى بيوت وقصور مهجورة ضارباً موعداً مع العفاريت.. لكنها لم تأت.. وأغلب الظن أنها هى التى خافت.

وحتى هذه اللحظة.. أشتاق كثيراً إلى أصغر الأشياء التى كنت أعرفها فى ذلك الزمن الجميل.. أشتاق إلى تناول طعام العشاء مع أصدقاء الطفولة فى أحد المطاعم المفتوحة على كورنيش البحر فى الإسكندرية.. دون أن يخرج لنا أحد من طبق الشوربة.. أشتاق إلى التسكع فى الشوارع واستعمال فمى فى الغناء والصراخ دون أن يتهمنى أحد بالجنون.. ودون أن توجه لى تهمة إثارة السخط العام.. أشتاق إلى تأليف جملة مفيدة.. أو علاقة مفيدة.. من فعل وفاعل.. أو من مبتدأ وخبر دون أن يتدخل المتطفلون والنمامون.. فيرفعونها.. أو يكسرونها.. أشتاق إلى أبسط الأشياء.. وهى فى الوقت نفسه أصعبها.. ولكن من يمنحك الارتواء لهذا الشوق.. من يطفئ الظمأ لهذه النزوات الصغيرة.. والعالم من حولنا لا تسيطر عليه سوى الألغاز الكبيرة.. فقبل أن نحل لغزاً نجد آخر.. وقبل أن نفك طلاسمه نتحول نحن أنفسنا إلى طلاسم.

وعندما كبرت.. وشعرت أن أصابعى فى حالة شوق للكتابة.. وفى حالة حمل للتعبير.. بدأت مرحلة اكتشاف الخطر الأشد ضراوة.. والأشد صعوبة.. البشر.. إن الناس مرسومة فى كل كلمة وفاصلة وشرطة فى كتاباتى.. تشمهم فى رائحة الحبر الذى أكتب به.. وتشم رائحتهم مختلطة برائحة أوراقى.

وأنا أشعر أن الناس مثل الكلمات.. بعضها جميل.. وبعضها طيب.. وبعضها قبيح.. وبعضها قاس.. كلمة منى وكلمة منك.. وتتحول الكلمات إلى عقد من الفل.. ويولد الربيع.. كلمة منك وكلمة منى.. وتتحول الكلمات إلى مسامير.. ويولد الخريف.. الناس هم محطة السفر.. وميناء الوصول.. حبر القلم.. ولحظات السهر.. مدينة الحكمة.. ومصيف المتعة.. لذلك كان الناس دائماً.. سر المغناطيس الذى يشدنى إلى مارينا.

كانت حروف الأبجدية تمتد أمامى كأوتار مشدودة كلما وجدت نفسى بين الناس فى مارينا.. وكانت الكلمات تتراقص وتتماوج وأنا أراهم على طبيعتهم.. بملابس الصيف.. وببساطة البعد عن المقامات والهامات.. لقد اكتشفت فى مارينا بشراً كان لابد أن أعرفهم من زمن.. واكتشفت بشراً حمدت الله على أننى لم أعرفهم من قبل.

عرفت فى مارينا بشراً هم فى الحقيقة من أعمال الموسيقى الصرفة.. أمين فخرى عبد النور.. ذاكرة تختلط بقدرة على تقييم الآخرين وتعبر عن ذلك بسخرية هى جزء من شخصية المصريين.. وبصراحة لا يعرفونها عادة.. والمستشار سعيد الجمل.. وهو واحد من رجال القانون الذين نذروا حياتهم للعدالة والحرية.. وحقوق الإنسان.. وقد ترك منصة القضاء ليعتلى منصة الرأى.. فى صحيفة «الوفد».. والمهندس فائق فريد.. وهو يسارى لم يتاجر بما جرى له.. ولم يبع أحزان الفقراء الذين آمن بهم فى سوق السياسة والنخاسة.. كما فعل غيره من مشاهير اليسار الذين لم يصدقوا أن السلطة يمكن أن ترضى عنهم.. فكتبوا لها كمبيالات وشيكات بدون رصيد لهم عند الجماهير.. أو بلغة الواقع.. عند «الأهالى».. إن قلوب هؤلاء على اليسار.. لكن جيوبهم ومحافظهم على اليمين.. والدكتور صبحى عبد الحكيم.. أستاذ الجغرافيا المعروف الذى أصبح رئيساً لمجلس الشورى.. والذى تستطيع الآن أن تستمتع بذكرياته وتحليلاته.. بعد أن ذهبت السلطة عنه.. وأنا شخصياً لا أقترب كثيراً من أشخاص فى السلطة إلا بعد أن يغادروها.. والأصح بعد أن تغادرهم.. فالسلطة نزوة.. لم تستطع أن تمتص أو تلتقط ذبذبات نفسى.. وهناك رجال أعمال يعيشون فى مارينا اقتربت منهم.. ومددت جسوراً من الحوار معهم.. ووجدت أنهم لا يمثلون الصورة الفظة الشائعة لرجال الأعمال.. محمد فريد خميس.. الدكتور هانى رزق.. وأبناء وجيه أباظة.. حسين وممدوح وشاكر وعزيز.. ولو رأيت هؤلاء فى مارينا.. فالغالب أنك سترى فى الوقت نفسه رجال بنوك ورجال إدارة.. محمود عبد العزيز.. ومصطفى حبلص.. وطارق حجى.. مثلاً فالناس تأتى إلى مارينا لتناقش مشاكلها فى القاهرة فى كثير من الأحيان.

ولابد أن تستمتع فى وجود الكاتب الساخر.. اللاذع.. أحمد رجب.. وهو بصحبة صديق عمره إبراهيم عبد الحفيظ.. وهو يوصف فى السوق بملك

الرخام.. وهو شخص محب للحياة.. لا تختفى الابتسامة من وجهه.. متواضع.. يحبه كل من يعرفه على الفور.. وتشعر أن الثروة الحقيقية التى يمتلكها هى هذا الحب.. وحسب تعبير أحمد رجب نفسه: هذا الرجل يمنح كل من يعرفه الإحساس بالسلام مع النفس.. وهو إحساس أعلى بكثير من الإحساس بالأمان.. والإحساس بالسكينة.. ويأتى أحمد رجب إلى مارينا شهراً فى الصيف.. ليكف عن قلق «نصف كلمة» .. طلقته اليومية فى الأخبار التى يكتبها منذ أكثر من نصف قرن.. وفهامة الصفحة الأولى فى «أخبار اليوم».. وهى فرصته الوحيدة فى أجازة.. وهو لا يأكل سوى وجبة واحدة فى اليوم هى وجبة الغداء.. ويفضل أن تكون ملوخية.. يتناولها فى بيت واحد من أصدقاء العمر.. هو يوسف إدريس الذى يعتبر بيته من علامات مارينا المميزة.. وفيه أولاده بهاء وسامح ونسمة وزوجته رجاء إدريس التى تحمل لقبه.. وفى هذا البيت يمكن أن تلتقى بجمال الناظر.. وعائشة راتب.. وكمال أبو المجد.. وهم وزراء سابقون.. ويمكن أن تلتقى بشخصيات أخرى تستمتع بحياتها الاجتماعية دون أن تفقد اهتماماتها العامة.. وهم يتبادلون الزيارات والدعوات.. فهذه هى متعتهم فى مارينا.. الحياة فى مجموعة متجانسة.. بعيداً عن صداع «النفو ريش».. وهو الاسم الشائع على كل لسان ـ حتى الذين لا يعرفون لغات أجنبية ـ عن الأثرياء الجدد فى مصر.

ولكن صداع «النفو ريش» لا يترك هؤلاء.. ولا غيرهم فى حالهم.. وقد عشت تجربة من تجاربهم.. عرفت بعدها.. لماذا هم منفرون.. متعالون.. مكانهم الحقيقى محكمة الجنايات.. فجرائمهم يعترفون بها علنا.. بل ويفخرون بها.. وإرهابهم من نوع خاص.. متعدد الأطراف.. إرهاب لغوى.. وأخلاقى.. ومادى.. ونفسى.. ودينى.

كنا فى بيت أحد الأصدقاء.. كتاب.. ورجال أعمال.. ونجوم سينما.. وخبراء فى البنوك والبورصة.. خليط من مجتمع مارينا.. لا يربط بينه سوى الشهرة.. والرغبة فى قضاء ساعات نهاية الأسبوع فى لقاء صاف.. يغادرون بعده مارينا إلى «فك مفترس».. لا يرحم.. اسمه القاهرة.

جاء أحد رجال الأعمال الذين قفزوا فجأة على سطح الحياة.. وهو يرتدى قميصاً مشجراً على شورت من نفس القماش.. كأنه أحد «جرسونات» قرية

سياحية فى الغردقة.. أو شرم الشيخ.. فالثياب التى يرتديها لا تليق به.. ويبدو أنه لبسها بعد أن خلع فى التو الجلباب البلدى.. وبمجرد أن جلس شعر أن السهرة من حقه بمفرده.. فيبدو أنه شعر أنه الأكثر ثراء.. فوضع ساقاً فوق أخرى.. وراح يتكلم بلا انقطاع.

تكلم عن رأيه فى كل شىء.. من إسرائيل إلى النساء.. ومن البورصة إلى المرور.. ومن الموضة إلى الصحافة.. ومن الفن التشكيلى إلى فن الغزل.. وتكلم عن مغامراته فى أفريقيا مع الحيوانات المفترسة التى اكتشف فجأة أنه يعشقها.. وتكلم عن تحايله على أجهزة إنذار الحريق فى فنادق أوربا ليدخن «الشيشة».. وتكلم عن النساء اللاتى يقعن فى غرامه من أول نظرة.. ولم يقل من أول دولار.

مساكين هؤلاء الأثرياء الجدد.. يشعرون أنهم قادرون على كل شىء.. كتابة الشعر.. وعزف الموسيقى.. وفك طلاسم السياسة.. ومعرفة أسرار الغرام.. ولا مانع عند حد معين من جنون العظمة أن يقولوا أنهم يتلقون الوحى من السماء.. إن الثروة التى هبطت عليهم بلا حساب.. مثل الأمطار الاستوائية جعلتهم فى هذه الحالة.. لكن.. لابد أن نعترف أن الناس أعطتهم أحاسيس إضافية من القوة والعبقرية.. ليست فيهم.. على أمل الحصول على الثمن.. والمقابل.

كان يشرح مزايا تدخين «الحشيش».. عندما وجدناه يعرج فجأة وبصورة حادة إلى قصة حياته.. وكيفية تكوين ثروته؟

كان رأيه أن هذا البلد لا يمكن أن يكسب فيه من يمشى مستقيماً.. وأن رجل الأعمال الشاطر هو الذى يكون على علاقة متينة بالأمن.. حتى لو استدعى الأمر أن يعمل مرشداً.. يتجسس على من حوله ويوصل أخبارهم.. فالأمن هو الذى يتدخل فى الوقت المناسب للإنقاذ.. مهما كانت الجريمة.. فالقانون لا يطبق إلا على من لا ظهر له.. والمال هو الظهر القوى.. أقوى من ظهر الحكومة.. فهو قادر على شراء ظهر الحكومة أيضاً.

ويبدو أن ظهره القوى جعله يتكلم بهذه الصراحة المذهلة.. فكشف عن أنه يدفع ما لا يقل عن مليون جنيه فى «عزومته» السنوية فى مارينا التى يدعو إليها أصدقاءه الوزراء وكبار المسئولين وهو يرفع فى هذه «العزومة» الشعار

المصرى القديم.. «أطعم الفم تستحى العين».. ولم يتردد فى وصف الضيوف الكبار بأوصاف سوقية.. فهذا المسئول «طفس».. وهذا الوزير «بطنى».. وهذا «الذى يدعى الشرف والأمانة يأخذ حقه ناشف».. ولا ينسى بالقطع أن يتحدث عن أصناف الطعام المستورد من كافة أنحاء العالم.. ويصعب عليه أن ينطق الأسماء «المستوردة» بلغة سليمة.. ولا يهتم بالضحكات التى تحاصره.. فهو يتصور أننا نضحك على رواياته.. ولا نضحك عليه.

ولم يقل لنا أنه حتى وقت قريب كان موظفاً فى الحكومة.. وكان مرتبه من الحكومة هو أعلى دخل عرفته أسرته الفقيرة.. لكنه قال ما هو أسوأ.. كشف كيف كان يهرب البضائع التى كان يتاجر فيها من الجمارك برشوة شبكة كاملة من الموظفين الذين كان واحداً منهم فى يوم من الأيام.. وكشف كيف دبر حريقاً فى جمرك الإسكندرية لتأتى المطافئ والإسعاف وينشغل الناس فى الحريق.. فتخرج الشحنة.. دون جمارك.. وهى ليست أى شحنة.. إنها بالأطنان.. دون أن يدفع جماركها.. بل إنه لم يتردد فى أن يقاضى مصلحة الجمارك.. بدعوى أن الشحنة احترقت وعليهم تعويضه عنها.

وقبل أن يسترسل.. ويكشف المزيد من مغامراته مع الثروة.. والسلطة.. جاءت زوجته.. وهى محجبة.. ترتدى ثياباً تمسح الأرض بذيلها.. وما أن دخلت علينا حتى صرخت فى هيسترية من يمشى على الشوك.. أو يرقص على الجمر المشتعل.. أو هى صرخة من لدغته عقرب.. أو ضربه بذيله ديناصور.. «بيرة».. «بيرة».. ثم جرت وكأن الموت يطاردها.

تساءلت بينى وبين نفسى: هل البيرة حرام والرشوة والسوق السوداء والحرائق العمد وتخريب المنشآت العامة بهدف التربح وتكوين ثروات فاسدة.. معطوبة.. عفنة.. حلال؟

وانسحبت من السهرة.. شعرت أن النفاق الذى يغطينا من جميع الجهات قد وصل إلى حد يصعب تصوره.. ويصعب تقبله.. لكنى.. لا أنكر أننى تعاطفت مع هذه المرأة.. فما الذى تملكه أمام فساد زوجها الذى تعيش معه طوال الليل والنهار سوى أن تلجأ إلى التدين ولو على هذا النحو؟

إنه التدين الشكلى الذى أصاب المصريين وجعلهم يقبلون الرشوة.. ويصرخون فى وجه المرأة غير المحجبة: حرام.. يقبلون التزوير.. ويصرون على أن صوت المرأة عورة.. يمارسون كل أنواع الخطأ.. ويحاربون «البيرة».. هذا التدين الشكلى جعل الناس تشترى كتب المشايخ ولا تعمل بما فيها.. المهم أن تكون موجودة.. وظاهرة.. وجعل الناس فى حالة من الاستنفار والعدوانية.. لا يمكن أن يسببها التدين.. وإنما يسببها التدين الشكلى.. والتدين الشكلى هو أن نهتم بمظاهر الآخرين.. ونحاسبهم عليها.. دون أن نتوقف عند تصرفاتنا.. ونتساءل.. هل هى حرام أم حلال؟

وقد عرفت أن هذه الزوجة هى واحدة من المترددات على الشيخ عمر عبد الكافى.. وهو ظاهرة لفتت الانتباه.. وكان مثار جدل فى الصحافة انتهت بأن توارت من التليفزيون والمساجد إلى البيوت.. وما لفت النظر هو أن الغالبية العظمى من المترددين عليه.. نساء.. وبعضهن نساء فعلن ما فعلن.. ثم وجدن عنده باب التوبة مفتوحاً.

وأتذكر أنه أثناء إحدى حملات «روز اليوسف» على دعوة عمر عبد الكافى بعدم السلام على المسيحيين.. أن جاءت إلى مكتبى امرأة فى الأربعين.. ترتدى ملابس سوداء تماماً.. وصرخت فى وجهى غاضبة:

ـ لقد كنت مضيفة طيران.. وفعلت كل شىء فى حياتى.. زنيت.. وشربت الخمر.. وهربت بضائع من الجمرك.. وخالطت الغرباء من الرجال.. ثم فتح لى الشيخ عمر عبد الكافى باب التوبة.. ما الذى تريدونه منه؟

ووجدتنى أقول لها:

ـ هل ارتكبت كل هذه الخطايا.. فعلاً؟

أجابت بقوة:

ـ نعم.

سألتها:

ـ هل أنت متأكدة؟

قالت بإصرار:

ـ نعم.

قلت فى هدوء:

ـ إذن لا تصلح التوبة إلا بعد أن توفى الحدود.. على الأقل يجب أن ترجمى بسبب جريمة الزنى.. لا توبة بل عقابا فى مثل حالك.. حتى لو قالوا لك غير ذلك.. ليس فى الإسلام من يمنح صكوك الغفران.. حتى ولو كان عمر عبد الكافى.

لكنها لم تقتنع بما سمعت.. وقالت:

ـ سوف أفتح له فيللتى لتصبح مسجداً له لو أخرجوه من مسجده.

ولم أشأ أن أدخل معها فى مزيد من الجدل.. فهى مقتنعة بأن كل ما يفعله الإنسان من أخطاء وخطايا يمكن غفرانه بصك من صكوك الغفران يمنحه له شيخ من المشايخ.. وأن الأموال الحرام التى جمعها من الدعارة والتهريب.. يمكن غسلها بفتوى ممن يدعى الإيمان.. ومعرفة شريعة الله.. وقوانينه.. ولعل هذا سر إقبال البعض على العمرة.. يعودون منها ليتحدثوا عن أنفسهم التى غسلت بدموعهم.. وكيف عادوا منها أبرياء كما ولدتهم أمهاتهم.. ثم.. يعودون إلى ما كانوا يفعلون.. ثم يذهبون للعمرة والغسيل مرة أخرى.. وهكذا.. بلا توقف.. وهو ما يكلف الاقتصاد القومى أكثر من ثلاثة ملايين جنيه من العملات الصعبة.. ولا جدال أن عملية غسيل النفس من الفساد.. مثل عملية غسيل النقود القذرة.. عمليات لا تتوقف فى المجتمع.. ولا أحد يتوقف لتأملها.. وإلا اتهموه بالكفر والإلحاد.

ولم تكن المضيفة وحدها المقتنعة بذلك.. كانت هناك أيضاً زوجة رجل الأعمال التى لدغتها البيرة.. ولم يلدغها فساد زوجها المعلن والصريح والمعترف به.. إنها واحدة من فريق من زوجات رجال أعمال لكل منهن قصة مع فساد زوجها.. وكل منهن لم تجد ما تلجأ إليه لتحقيق قدر من التوازن النفسى سوى عمر عبد الكافى.

كانت هناك زوجة محجبة أخرى.. كانت قبل أن يطلقها زوجها.. رجل الأعمال المعروف زوجته الثانية.. وكانت مشهورة فى مارينا بنزول البحر ثلاث مرات فى اليوم.. فى كل مرة كانت ترتدى «مايوه» مختلفاً.. وأمام فيللتها فى المنطقة التاسعة كانت تقف ثلاث سيارات حديثة.. واحدة للسهر.. وثانية للشاطئ.. وثالثة للتسوق.. وكانت تمشى فى أى مكان وخلفها فرقة من الخدم من جنسيات مختلفة.. فقد استوردهم لها زوجها من الحبشة والفلبين وسيريلانكا بخلاف دادة طفلتها السويسرية.

والحقيقة أنها وهى بالمايوه كانت تبدو كأنها شربت كل حليب النجوم.. وأنها تسبح فى بحار من القطيفة.. وريش العصافير.. والحقيقة أيضاً أن الرجال كانوا يحسدون زوجها.. ويقولون أن الرجل الذى يمتلك مثل هذه المرأة يمتلك العالم.. أهرام مصر.. وسحر باريس.. وعرش شاه إيران السابق.. وتاج المملكة البريطانية.

والحقيقة كذلك.. أنها كانت تشبه زوجته الأولى عندما كانت شابة.. والزوجة الأولى عندما تزوجها كانت فى الستين من عمرها.. أما هو فكان فى الثلاثين من عمره.. وهى إيطالية من أصل بولندى.. عرفها فى لندن عندما كان يتسكع هناك بحثاً عن لقمة عيش بعيداً عن الوطن الذى لم يستطع أن يجد فيه وظيفة تناسب طموحه.. وهناك وجد نفسه يعمل فى مهن مختلفة. ماسح أحذية فى مدخل فندق دوشستر الشهير.. وحارسا على أحد أبواب «هارودز».. يفتحه.. ويغلقه.. و«مرمطون».. يغسل الأطباق فى مطعم صينى فى حى «السوهو».. ثم.. سائقاً على سيارة «ليموزين».. فى شركة يملكها مهاجر مصرى.. وتتعامل مع الأثرياء العرب..وزوجاتهم.. خاصة فى الصيف.

وسائق الليموزين له مواصفات خاصة يفرضها ويشترطها الأثرياء العرب.. وزوجاتهم.. أن يكون وسيماً.. ويعرف الإنجليزية.. والعربية.. ويعرف أماكن الشراء.. والرقص الشرقى.. ونوادى القمار.. فهو ليس مجرد سائق.. إنما هو سكرتير خاص.. وكاتم أسرار.. ومرشد سياحى.. أيضاً.. وفى مقابل ذلك يدفعون بسخاء.. وقد كسب من وراء ذلك الكثير.. ودخل فى علاقات خاصة مع زبائنه من النساء العربيات.. منهن زوجات لشيوخ وأمراء.. كان يوصلهم لعشيقاتهم

بعيداً عن الزوجة والأولاد.. وغالباً ما كانت الزوجة تشعر بالملل.. فيأخذها للتسوق.. لكن الملل لا يذهب.. فيأخذها للسهر.. لكن الملل لا يذهب.. وربما يزداد.. فتأخذه للفراش.. فيذهب الملل.. ويأتى المال الوفير.. وغالباً ما كانت الزوجات يعدن إلى بلادهن وهن يحفظن أرقام تليفونه وعنوانه.. وغالباً ما كن يعطين أرقام التليفون والعنوان إلى إحدى صديقاتهن قبل أن تسافر إلى لندن التى أصبح هو من معالمها بالنسبة للنساء العربيات.. مثل ماركس أند سبنسر أو سان مايكل.. ونادى قمار «راند فو».. والمطاعم اللبنانية.. وشارع اكسفورد.

وقد أصبح بعد سنوات شريكاً فى شركة السيارات.. بالمجهود.. مجهوده البدنى.. فلولا هذا المجهود لخسرت الشركة أكثر الزبائن ثراء.. وسخاء.. ثم باع نصيبه فى الشركة.. وفتح شركة باسمه.. وساهمت أميرة سعودية فى رأس المال.. وتقاضت الثمن من جسده.. واشترطت أن يكون هذا الجسد ملكاً لها وحدها.. فكانت تطلبه فى مدينة خارج بلدها.. تسافر إليها.. باريس.. زيورخ.. القاهرة.. نيويورك.. بل ذهب إليها فى سيدنى فى أستراليا.. بعد ساعات من وصول الاستدعاء.. حتى أن أصدقاءه أطلقوا عليه الإسعاف الجنسى الطائر.

لكنه.. كان ينفق الكثير مما يكسبه.. وهو ما أصابه بالقلق.. فلو ضعف جسده.. سيفقد أهم زبائنه.. وسيعود مثل أى سائق ينتظر بالساعات حتى ينتهى الزبائن من مهامهم أو سهراتهم.. لن يجد من يعامله كما لو كان مثلهم.. لابد أن يبحث عن وسيلة جديدة لتحقيق مستقبله.. وقد سقطت هذه الوسيلة.. أو الفرصة من السماء.. أرملة عجوز.. فى الستين من عمرها.. تحمل الجنسية الإيطالية.. وتتردد كثيراً على لندن.. ترك لها زوجها مصنعاً للمكرونة.. فى نابولى.. لا ينازعها فيه أولاده من زوجته المتوفاة.. وفى لندن كانت تطلب سيارة.. ولم يكن ممن يتحمسون لقيادة السيارة التى تختارها.. فمهما كانت ثرية وسخية فلن تكون مثل نساء النفط.. ولكنه قاد سيارتها ذات مرة فى الشتاء.. وخطر على باله وهو يعبر منطقة البكاديللى متجهاً إلى الجزء القديم من لندن.. قبل أن يوقف السيارة أمام أشهر شركات العقارات.. خطر على باله أن يوقع هذه العجوز فى حباله.. وأن يقنعها بالزواج.. ويصبح المسيطر على كل ما تملكه.. ورغم أن الفكرة بدت له ساذجة فى البداية.. إلا أنه لم يجد ما يخسره.. لو جربها.. فابتسم ابتسامة عريضة ذات مغزى وهو يوقف السيارة.. ويفتح الباب.

وليس من الصعب أن نعرف كيف نجح فى الوصول إليها.. فمثل هذه العلاقة تناولها عشرات الكتاب فى الروايات والأفلام ومسلسلات التلفزيون.. رجل صغير.. يحترف بيع جسده.. وامرأة ثرية فى الستين.. تشتريه بمالها.. لكن عادة ما يصور الكتاب هذه المرأة فى صورة ساذجة.. بلهاء.. تخسر نصف مالها فى لحظة جنس.. وتخسر النصف الآخر فى لحظة شر.. فهى فى حاجة لمن يمثل عليها الحب.. وهى مستعدة أن تصدق من أول كلمة أو قبلة أو لمسة أو همسة.. وهى تعطى بلا حساب.. وتضاعف العطاء كلما مرت الأيام.. حتى تجد نفسها مفلسة.. فى عرض الطريق.. أو فى أفضل الأحوال فى بيت للمسنين.

لكن.. ما حدث لابد أن يصدم خيال كل هؤلاء الكتاب.. فصحيح أن العجوز الإيطالية قد سقطت فى هواه.. وصحيح أيضاً أنها وجدت حواسها تستيقظ من جديد.. وصحيح كذلك أنها شعرت أن الدنيا يمكن أن تعيد نفسها معها.. لكن.. كل ذلك لم يسقطها فى حجره.. ولم يجعلها تسلم له مفاتيحها.. وتوقيعها على بياض.. بالعكس.. كانت بعد الزواج تعطى بحساب.. وتعطى على قدر ما تأخذ.. وكانت تفضل ألا تعطيه مالاً.. وأقنعته بأن كل طلباته مجابة.. بشرط أن تشتريها هى بنفسها.. فليطلب ما يشاء.. حتى لو كان لبن العصفور.. لكن هى التى تشترى.. واشترت له سيارة فاخرة.. وسمحت له باستعمال طائرتها الخاصة.. وملأت حياته بثياب من «سمالتو».. تحف شخصية من «كارتييه».. وأحذية من «بالى».. كل ما يشتهيه يجده.. لكن.. لا للنقود.. لم تمنحه السلاح الذى كان سيقتلها به.. فظل وراءها كالخادم الأمين.. ويكاد يقسم لأصدقائه: أن هذه العجوز الشمطاء كانت تشترى له حتى السجائر بنفسها.. وأنه ذات مرة حاول أن يعبر عن غضبه من موقف لم يعجبه وسط مجموعة من أقاربها.. فرفع صوته فى وجهها.. فإذا بها ترد عليه بقسوة.. ثم تتركه بمفرده غارقاً فى خجله.. وعندما لحق بها أجبرته أن يقبل قدميها أمام أقاربها.. وكانوا فى مكان عام.. وعرف فى هذه اللحظة أنه وقع فى الفخ الذى نصبه لها. وعرف أنها الأقوى بالمال.. فهى قادرة بالمال على شراء ألف جسد وجسد مثله.. وعرف أنها امرأة لا علاقة لها.. بالحزن أو الموت.. بالبرد أو الحر.. وأنها تجلس على فراش الحب مثل لوح الخشب.. لكنها تضع تحت «الوسادة» الخالية دفاتر الشيكات.. وبطاقات الائتمان.

وأصبحت كل أحلامه أن يتخلص منها.. وأن يعرف سر صناعة المكرونة الإيطالية.. وأن يفتح مصنعاً لها فى مصر.. ويتزوج فتاة تناسبه.. يحبها.. وينجب منها طفلاً.. لقد تعب من بيع جسده.. وتعب من إهانة نفسه.. وتعب من أن يكون عبداً لامرأة شرهة.. قاسية.. لم يستطع أن ينال منها ما يريد.

وفى روما عرفها.. وأحبها.. هى زوجته الثانية.. عوضته عن الحرث فى أرض بور.. واسترد معها مشاعره الإنسانية.. هى مصرية.. كانت تعمل فى المكتب التجارى المصرى هناك.. مثيرة.. لا هم لها سوى أن تقيس صدرها.. وخصرها.. وتشد عضلات ساقيها.. وتعتنى ببشرتها.. كانت تعتبر جسدها ثروتها.. لو فقدتها انتحرت.. ولو كان للجسد ثقافة فهى مثقفة جداً.. ولو كان للجنس فنون فهى متفوقة الإبداع.. هى امرأة تعرف كيف تدخل فى دم الرجل فى الوقت المناسب.. وكيف تخرج من دمه فى الوقت المناسب أيضاً..

وهى تعمل فى المكان الذى تعرف فيه أسرار الصفقات التجارية مع مصر.. وتعرف حقيقة معظم رجال الأعمال المصريين الذين يتعاملون مع إيطاليا.. وقد أحبته.. فعلاً.. وأعطته ما لم تعطه له امرأة أخرى.. لكنها من نفس عينته.. تريد أن تستثمر جسدها.. وهو لا يقدر على دفع الثمن الذى تطلبه لتعيش معه زوجة وأماً لأطفاله.. هو يمنحها متعة مؤقتة.. وهى أيضاً.. لكنه لا يعطيها المستقبل كما تتخيله.. وهو أيضاً لا يجدها سوى فتاة مثيرة.. تدفئ برودة أيامه ولياليه.. لكنها لا تعطيه المستقبل كما يتخيله.

هى تريده رجلاً.. لا زوجاً.. وهو يريدها امرأة.. لا زوجة.. لكن بمرور الأيام شعرا أنهما فى حاجة لأن يعيشا معاً إلى الأبد.. وأن يكونا بيتاً وأسرة.. وحياة مشتركة.. لكنهما كانا فى حاجة إلى ضربة أو صفقة تضعهما على أول الطريق.. ولم يكن أمامهما سوى أن يتخلصا من زوجته العجوز.. وأن يرثاها.. وأن يعودا إلى مصر.. ليفتحا صفحة جديدة.

ورغم أن الفكرة بدت سخيفة فى البداية.. وبدت صعبة التنفيذ.. لكن لا شىء مستحيل.. أمام الرغبة المقترنة بحلم الثروة.. وفى عمر امرأة فى الستين تتناول يومياً أكثر من ١٥ قرص دواء من مختلف الألوان.. ولمختلف الأسباب ليس من الصعب أن يجدا وسيلة للقتل النظيف.. القتل بلا دماء.

ولا أحد فى مارينا ممن يروون هذه الرواية يعرف كيف تخلصا من المرأة العجوز.. لكن.. المفاجأة المذهلة أن المرأة العجوز كانت قد كتبت فى وصيتها تنازلاً عن معظم ثروتها له.. مؤكدة أنه الوحيد فى حياتها الذى أعطاها كل شىء بإخلاص.. وشرف.

وعاد إلى القاهرة وهو يحمل الثروة.. وفى ذراعه كانت الزوجة الجديدة.. وقد هبط القاهرة فى وقت لم يعد الناس فى مصر يسألون رجال الأعمال عن مصادر ثرواتهم.. ولا من أين جاءوا بها.. بل لم يعد الناس فى مصر يسألون عن حقيقة هؤلاء البشر.. من هم.. ومن أين أتوا.. وما الذى يفعلونه بالضبط؟.. إن الصحف تنشر كل يوم أخبارهم فى صفحات المجتمع.. وتنشر آرائهم فى صفحات المال والاقتصاد.. وتنشر حوادثهم فى صفحة الجريمة.. لكن.. رغم ذلك كله.. لا أحد يعرف من هم؟.. هم بلا تاريخ معروف أو مجهول.. وبلا جذور أو فروع.. أسماؤهم كالطبل.. وصورهم كالضوء.. لكن.. ليس أكثر من ذلك.. فهل جاءوا من كوكب آخر.. هل هبطوا علينا من السماء؟.. وقد راح معظمهم يحاول أن يصنع أو يكتب له تاريخ.. فمن ادعى أنه كان مناضلاً فى حركة الطلبة فى السبعينات.. ومن أخرج شهادة دكتوراه حصل عليها من جامعة لم نسمع عنها.. فى مقابل حفنة دولارات.. وهو حتى لا يعرف كيف يكتب اسمه باللغة الإنجليزية.. أو يقدر على قراءة عنوان الغلاف الكبير لمجلة «نيوزويك».. أو يستطيع أن يرد على مكالمة تليفونية طرفها الآخر أجنبى.. ومن بحث على زوجة جديدة.. ارستقراطية.. أو من عائلة معروفة حتى ينتمى لهذه العائلة.. ويغسل أيام الفقر والشقاء.. الثروة مقابل السمعة.. والمال مقابل الأصل.. وذهب الجميع لشراء الصحافة.. لتضع على تاريخهم كل ما تقدر عليه من مساحيق وأصباغ.. وكل ما تملك من تزوير وتزييف.. فحولوها من صاحبة جلالة إلى خادمة سيرلانكية.

لم يسأل أحد فى القاهرة عمن يكون هذا القادم من روما بكل هذا الثراء.. فالمال يخرس الألسنة.. ويفقدها الرغبة فى الأسئلة.. وأستورد مصنعاً كبيراً للمكرونة من إيطاليا.. ومد أصابعه بسرعة فى مجتمع السلطة.. وبدأ بتشغيل أبناء الكبار بمرتبات كبيرة فى مصنعه.. وعرف الكبار من خلال الصغار.. ثم.. راح يدعو أصحاب النفوذ فى حفلاته الخاصة فى الأماكن التى يترددون عليها..

مارينا فى الساحل الشمالى.. الجونة فى الغردقة.. فندق الموفينبيك فى شرم الشيخ.. أو فى الأقصر.. ولأنه يعرف الكثير عن العالم.. بدا مختلفاً عن الذين جاءوا بثرواتهم من الخليج.. أيام كان الخليج ثرياً.. ولأنه يعرف قيمة الجنس فى الحياة.. وفى البيزنس.. وفى السياسة.. كان أهم مستشاريه قوادا من نوع خاص غير متداول فى ملفات شرطة الآداب.. كان هذا القواد أهم رجاله.

والقواد زمان كان يفقد اعتباره القانونى.. وكان يفقد أمواله بالمصادرة.. وفى العصور القديمة كان القواد فى إيطاليا.. طبقاً لقانون كان يسمى قانون «فرارا» يوضع على عربة وهو يلبس قرنين لخروف أو عجل وتطوف به العربة المدينة.

والقواد زمان كان يبدو واضحاً بسوالفه الطويلة وشعره الممشط بالصابون وعضلاته المنتفخة وثيابه المميزة.. وكنت تراه فى أماكن محددة.. كورنيش النيل.. الكباريهات الرخيصة.. وأحياناً الفنادق الفاخرة.

لكن القواد الآن اختلف تماماً.. فأصبح يركب المرسيدس.. ويستخدم الكمبيوتر.. والإنترنت.. ويعرف فنون العلاقات العامة.. والخاصة.. ويتحدث أكثر من لغة.. بما فيها لغة الجسد.. ويجيد التفرقة بين أنواع النساء.. ويعرف كيف يسيطر عليهن.. وفى رأى الدكتور النفسى ممتاز عبد الوهاب.. القواد هو شخص منحرف نفسياً.. متبلد الأحاسيس.. جامد المشاعر.. يفتقد معنى الغيرة والحب.. ميت الضمير.. لا يحس بالخطأ.. مغامر.. يخاطر بنفسه وبالآخرين.. ولا ينتظر سوى المقابل المادى.

القواد الآن.. له وظيفة أكبر من تسهيل الدعارة.. هى تسهيل الصفقات.. ومن ثم يجب أن يكون فى مركز يتيح له الاتصال بأهم شخصيات المجتمع.. من أثرياء إلى وزراء.. ومن نجوم السينما إلى نجوم المجتمع.. ومن رجال المال إلى رجال الأعمال.. وعليه أن يقدم كل ما يطلب منه.. وعليه أن يوصل لسيده أى شخصية مستعصية.. وعليه أن يجعلها تنفذ ما يريدون منها.. إنهم وسطاء فى كل شىء.

ويمكن أن يكون القواد سكرتيراً خاصاً لسيده.. ويمكن أن يعمل لحسابه.. ويقدم خدماته للجميع.. ويمكن أن يكون فى مركز مرموق.. أو فى منصب حساس.. ويمكن أن يبدو فى عيون الجميع شخصية محترمة.. ويمكن.. ويمكن..

ففى هذا الزمن لا أحد يعرف رأسه من قدميه.. والفاسد من الشريف.

وقد بدأ القواد – الذى استعان به – حياته موظفاً فى التليفزيون.. ثم استقال منه ليعمل فى شركة سياحة.. ثم ترك السياحة ليعمل سكرتيراً.. و«لبيساً» لنجم كبير.. وهو ما أتاح له تكوين ثروة من العلاقات.. وثروة من العقارات.. وقد ذاعت شهرته.. عندما بلغه نبأ قتل ابنته فى حادث سيارة.. وكان يرتب موعداً لسيده.. فلم يهتز.. أو ينفعل.. ولم يترك ما يفعل ليذهب ويرى ابنته لآخر مرة.

لقد فعل القادم من روما كل ما هو ممكن ليصل ويصبح من النجوم اللامعة فى المجتمع المصرى.. واستطاع أن يصل إلى مجلس الشعب.. وأن يصبح واحداً ممن تأخذ الحكومة رأيهم فى كثير من الأمور الاقتصادية.. فى زمن يسمونه.. زمن الخصخصة.. وزمن خدمة السلطة.. للثروة.. زمن فيه الثروة السمكية أقوى فى البورصة من الثروة السماوية.

لكن.. كل سنوات القهر والذل التى عاشها فى الغربة عكست نفسها على ما يبدو فى الوطن بعد أن أصبح واحداً من أقوى الأقوياء فيه.. فراح يثبت لنفسه أن الكل مثله يبيع نفسه بالمال.. ونزل ليشترى كل ما يصادفه بأعلى الأسعار.. وكان يشعر بسعادة غامرة عندما تقع فى هواه.. أو فى فراشه.. زوجة رجل مهم.. أو ابنته.. أو شقيقته.. المهم أن تكون من دائرة نساء رجل مهم.. ليس مهما أن تكون قبيحة.. أو عانساً.. أو على ذمة رجل.. أو تحب زوجها.. أو تخافه.. المهم أن يشعر أنه انتصر على هؤلاء البشر الذين يرفعون أنوفهم فى السماء.. وكأنهم مثل المتسولين الأتراك الذين يقولون: حسنة.. وأنا سيدك.

على أن الشاطر لابد أن يقع.. والدائرة تدور على من بدأها.. والصياد الماهر قد يجد نفسه أحياناً فى الشبكة.

فى بيته.. فى مارينا.. كانت ضمن الضيوف الذين دعاهم على العشاء.. كلهم ضيوف مهمون.. وهى زوجة واحد منهم.. لم يتردد فى الاقتراب منها.. وراح يتحدث ببراعة عن رفضه لعلاقات الثبات.. المستقرة على البر.. فالثبات والاستقرار يعنيان الموت.. أما الحيوية ففى العلاقات البحرية.. علاقات المد والجزر.. والسباحة.. ضد التيار.. وركوب الأمواج الصعبة.. والقلق.. والخطر..

ثم النوم فى جزيرة مهجورة.. بعيداً عن العيون.. والشجون.. وتقارير الأمن.

وانتهت السهرة بأن أخذها هى وزوجها وزوجته فى جولة باليخت الذى يملكه فى مارينا.. كان القمر على وشك الاكتمال.. وفى لحظة سقوط خيوطه الفضية عليها.. طار ثوبها الحريرى القصير.. فبرقت ساقاها بلون النجوم.. وشهق جسدها فى الليل.. وبدا مثل كائن أسطورى ينتمى إلى عصور أفروديت.. وربات الجمال.. فى هذه اللحظة شعر أن كل شياطين الرغبة تقفز أمام عينيه.. وأن كل شياطين الروعة ترضى عنها.

وفهمت زوجته أن عاصفة من النوع الثقيل فى الطريق إليهم.. هى وهو وابنهم الوحيد.. وفى تلك الليلة طالبته بحقها فى المتعة.. لكنه أعطاها ظهره.. وحاول النوم.. لكنه لم يستطع.. فقام ليدخن سيجارة.. ولأول مرة فى حياته راح ينظر إلى القمر.. وينفث دخان سيجارته.. وبين غلالات الدخان راحت تنكشف له وهى ترقص وتتلوى.

وشعر فى تلك الليلة أنه يتمنى أن يتخلص من زوجته.. وأن يمحوها من الوجود.. ويمحو معها سرهما القديم.. وجريمتهما المشتركة.. على الأقل تأكد فى تلك الليلة أنه لم يعد يريدها.. لم يعد يحبها.. بل إنه قرر لأول مرة أنه لم يحبها.. أبداً.. وعندما يقرر رجل مثل هذا القرار.. يشعر أن المرأة أصبحت مثل ورقة يانصيب خاسرة.. مثل جريدة توقفت عن الصدور.. أو مدينة فقدت الوجود.. وأن الشمس لن تظهر من جديد.. وأن الكلمات الحلوة هاجرت.. والبحر نفسه رمى نفسه فى البحر.

أما المرأة الأخرى فقد شعر أنها تأخذ الزمن معها.. وتدخل فى دورته الدموية.. ويصبح فى بحار عينيها مثل السمكة التى لو خرجت منها.. تموت.. وأنه بعيداً عنها يصبح هشاً.. ينكسر.. مئات القطع.

وشعرت زوجته أنه يتعامل معها وقد علق على صدره لافتة.. «الرجاء عدم الإزعاج».. أو لافتة.. «عفواً الشخصية فى حاجة إلى إعادة ترتيب».. فهو فى النهاية لا يختلف كثيراً عن حجرات الفنادق.. حتى لو كانت فنادق خمس نجوم.

وفقدت زوجته صوابها.. وراحت تبوح بسرهما.. وجريمتهما.. ولكنها اكتفت

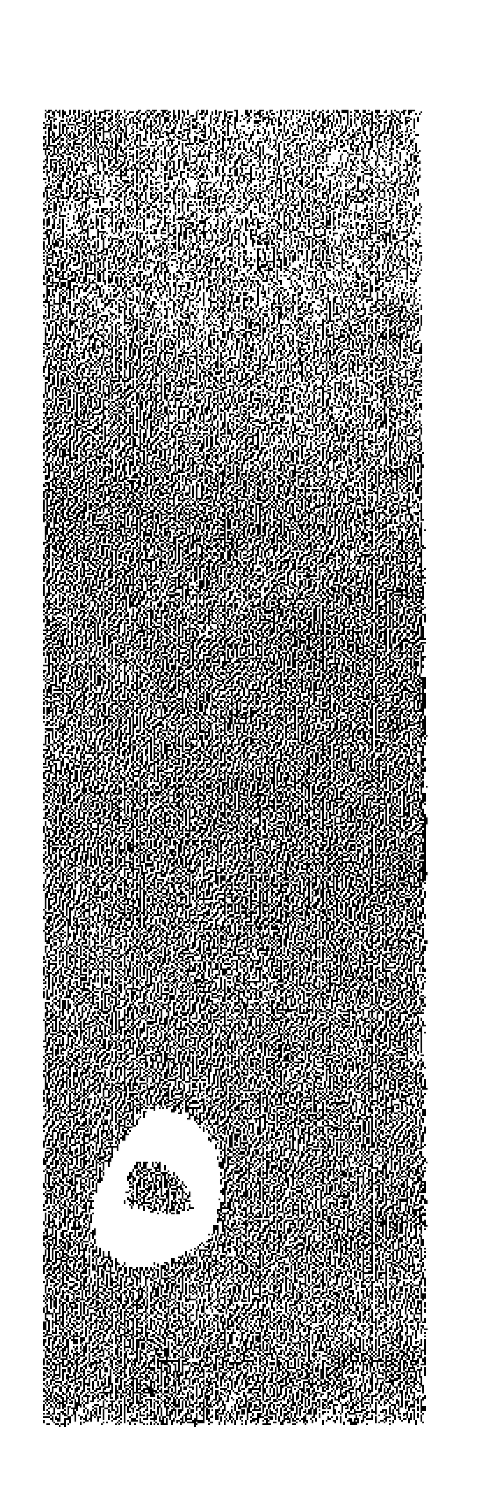
بأنه القاتل.. وأنه الجانى.. وكشفت عن سيرة حياته.. لكن.. المثير للدهشة أن أحداً لم يصدقها.. والمثير للدهشة كذلك أن كل من سمعها.. كان يشفق عليها.. ويبرر ما تقول بالغيرة.. والإهمال.. والهجر.. وهو ما ضاعف من جنونها.. وسخطها.. فراحت تسب الناس علنا.. وراحت تحطم كل ما تصل إليه يداها.. وانتهى بها الحال فى مستشفى للعلاج النفسى فى سويسرا.. وتعمد الزوج أن يرافقها فى رحلة العلاج طاقم من كبار الأطباء المصريين حتى يكونوا شهوداً على جنونها.. وجنوحها.

وقد أبدى استعداده لدفع عشرة ملايين جنيه لزوج حبيبته ليتركها.. ويطلقها.. خلو رجل.. أو خلو فراش.. وكان الزوج على استعداد لقبول الصفقة.. ولكن.. كان هناك من نصح الجميع بالكف عن هذا العبث.. وأن تبقى الأمور على ما هى عليه.. وبدا أن الصراع هنا ليس على امرأة بين رجلين.. أحدهما يملك الثروة.. والآخر يملك الثروة.. وإنما هو صراع داخلى بين أفراد عائلة واحدة تحكم وتسيطر.. وهنا يجب على الجميع أن يلتزموا بقوانين اللعبة.. وألا يكشفوا ما تحت السطح.. ليصبح فوقه.

ليبقى الحال على ما هو عليه.. لتكن الخيانة.. وجريمة القتل.. والزوجة المنهارة.. والزوج المشتاق لزوجة غيره.. وليبقى غيره فى موقعه.. وفى فراشه.. ومع امرأته.. لا أحد يغير موقعه.. لا أحد يغير موقع الآخر.. الكل يحترم القانون.. فالسلطة ناد مغلق.. كى ـ كلوب.. من يخرج منه.. لا يعود إليه.. ومن لا يحترمه.. يفقد كل شىء.. يفقد الزوجة والعشيقة والثروة والسطوة.. بل ويمكن أن يدخل الشجن.. ويصبح مادة لحيتان الصحافة تنهش فى لحمه.. وفى سمعته.

واستسلم الجميع لشروط اللعبة.. إلا زوجته.. فقد عادت من مصحتها النفسية فى سويسرا.. وهى تعانى من اكتئاب حاد.. لا علاج له.. ولا رغبة لها فى الشفاء منه.. وأصرت على طلب الطلاق. وأجبرته على ذلك بعد أن هددته بخيانته مع «كلاب السكك».. ومع كل من هب ودب.. ووجد نفسه يستأذن فى الطلاق.. حتى لا يخرج على قانون اللعبة.. وفور أن حصلت على الطلاق عرفت طريقها إلى عمر عبد الكافى.

****



ووقعت في شر أعمالها

يسمونها.. «الجهنمية».. ويصفونها بذرية الشيطان.. مع أنها أجمل الزهور في الساحل الشمالي.. ومع أن الذي نشرها في الساحل الشمالي راهب شهير.. يعيش في عزلة هناك.. هو الأب متى المسكين الذي يعرفه المسلمون قبل الأقباط.. فهو يؤمن بأن الخضرة أقصر الدروب بين الأرض والسماء.. وأنها عطر الأنبياء.. ولغة الشعراء.. وهو يعرف معنى الشجن.. ويقرأ أحسن منا في كتاب الوطن.

والجهنمية شجرة كل أوراقها زهور.. وزهورها كثيفة.. وألوانها صريحة.. بيضاء.. وحمراء.. وقد قلب الأب متى المسكين الصحراء بهذه الجهنمية إلى جنة.. بل لعل الجنة الصغيرة التي يعيش فيها تثبت إلى أي مدى فشلنا في فهم الساحل الشمالي.. وفي التعامل معه.. ولكن هذه الجنة التي صنعتها يداه هي في الحقيقة منفاه.

قبل مارينا بحوالي ٢٥ كيلومتراً تقع قرية «الحمام».. حاجز أمني.. ومحطة وقود.. وجنود مدججون بالسلاح.. يوقفون السيارات أحياناً.. ويفتشون على الأوراق.. وهم لا يفعلون ذلك في الصيف كثيراً.. فهم يعرفون أن معظم الذين يمرون عليهم ممن يطلق عليهم.. المهمين.. الذين ستعود إليهم أوراقهم المسحوبة حتى بيوتهم.

والحمام قرية بدوية.. تصل إليها عبر طريق فرعي يمتد من الطريق الصحراوي.. وقد تحولت بعد أن جاء الأثرياء إلى الساحل الشمالي إلى «بوتيكات» للشامبو والشيكولاتة.. والبضائع المهربة من ليبيا.. وأحياناً تأتي البضائع من القاهرة.. لكن سكان القرى السياحية الذين أعمتهم عقدة المهرب.. وهي عقدة تتجاوز عقدة المستورد.. يندفعون إلى «الحمام» لشرائها.. وكأنهم قد وجدوا كنزاً.. ويحملونها معهم إلى القاهرة.. مع أنها موجودة عند أقرب بقال.

ومن مشاهد التناقض الحضاري.. أن تجد نساء ورجال قرى الساحل الشمالي وهم بثياب المصيف.. يتعاملون مع البدو الذين أصبحوا أثرياء.. فقد تاجروا في الأرض التي وضعوا أيديهم عليها.. وتاجروا في المخدرات.. وتاجروا في البضائع المهربة.. لكنهم ظلوا على حالهم.. لم يتغيروا.. ولم يتحولوا إلى المشروعات السياحية.. أو الصناعية.. كما حدث للبدو في منطقة العجمي.

بعد أن تعبر حاجز الأمن عند «الحمام» بقليل ستجد على شاطئ البحر مساحة كثيفة من الخضرة.. لا يوجد مثلها فى المنطقة الممتدة من العجمى إلى مرسى مطروح.. ولابد أن تلفت نظرك هذه الخضرة وسط غابات الأسمنت التى خبأت البحر والتى تعرف بالقرى السياحية.. والتى يبدو بعضها مثل التجمعات السكنية.. فالكل يريد أن يجد موضع قدم فى الساحل الشمالى.. هذه الخضرة هى واحة من الحياة.. صاغتها أصابع.. تعرف الشرائع.. وخلف أسوارها تجد الشموع والدموع والركوع.. ويسوع.. تجد الأب متى المسكين.

جاء إلى هنا فى عام ١٩٦٥ وهو يحمل الزمن المحترق فى عينيه.. كان يبحث عن مساحة للتعبد.. بعيداً عن اضطهاد من يصفون أنفسهم بأنهم أصفياء الله.. وأصدقاء الله.. وهو أصعب اضطهاد.. أصعب نفى.

وقد قال لى عندما قابلته فى منفاه الأخضر:

ـ كنت أول من جاء إلى الساحل الشمالى ليزرعه.. وليحنن قلب تربته الرملية على الخضرة.. فتركتها هذه التربة تنمو.. ولم تخنقها.. واستشرت اثنين من أبرع الچيولوچيين فى مصر.. هما الدكتور رشدى سعيد والدكتور مصطفى العيوطى فقالا لى: عليك بالساحل الشمالى.. المياه هناك سطحية يسهل الحصول عليها بحفر لا يزيد على ثلاثة أمتار.. والأرض هناك تحمل فى ذاكرتها الخصوبة.. لقد كانت تمنح الإمبراطورية الرومانية القديمة الخبز والنبيذ.. أو القمح والعنب.. وجئت إلى هنا.. وسألت صاحب الأرض أو من يضع يده عليها عن مساحتها.. فقال: لا أعرف.. إنها من الطريق إلى البحر.. ومن حدود الجار إلى حدود الجار.. وبالقياس وجدتها ٣٨ فداناً.. طلب فيها صاحبها ٦٠٠ جنيه.. ودفعت ٢٦٠ جنيها.

كنا نجلس فى غرفة فسيحة.. ممتدة.. تطل على البحر وعلى مساحة مذهلة من «الجهنمية» التى قلب بها الأب متى المسكين جهنم الصحراء إلى جنة.. و«كنا» تعنى الدكتور ميلاد حنا وأنا وزوجتينا.. والدكتور ميلاد حنا يحرص على زيارة الأب متى المسكين أكثر من مرة فى كل صيف.. حسب ظروف المضيف الذى يندر أن يستقبل ضيوفاً فى منفاه.

كانت الجهنمية قد استقبلتنا من البوابة الحديدية وظلت ترافقنا عبر ممرات مسفلتة.. لا تتسع إلا لسيارة واحدة.. رافقتنا هذه الزهرة البرية حتى المبنى

الذى كان ينتظرنا فيه الأب متى المسكين.. الذى استخار الله فى صلواته قبل أن يطمئن قلبه ويوافق على استقبالى.. ويبدو أنه فعل ذلك قبل أن يستقبل محمد حسنين هيكل الذى كان فى إجازة فى قرية «الرواد».. على بعد عدة كيلومترات من الصومعة.. المزرعة التى يعيش ويتعبد فيها الأب متى المسكين.

وهيكل له أسلوبه الخاص فى الحياة.. فهو مثلاً لا يركب سيارة المرسيدس الشائعة.. ويفضل عليها «الفولفو».. مثل الدكتور ميلاد حنا.. لكنه لم يفضل مارينا مثل ميلاد حنا.. وفضل عليها.. «الرواد».. وهى قرية سياحية هادئة.. وهيكل كان يدخن السيجار.. لكنه توقف عنه فى رحلة إلى أوربا فى صيف ١٩٩٧.. لكنه كان لايزال يدخنه عندما قابل الأب متى المسكين.. الذى قال لى:

ـ كانت المرة الأولى التى أقابل فيها هيكل.. وقد رفعت عنه الحرج من التدخين حتى يمتد حوارنا بلا قيود.. قلت له: إنك قصرت فى توجيه النصح للسادات ولو فعلت لتلافينا الصدام والعصبية.. لقد كان السادات يشعر «أنك عامل رأسك برأسه».. وقلت لهيكل: «كفانا استغراقاً فى الماضى.. علينا النظر إلى المستقبل.. المستقبل عقد من النور يجب أن نراه وهو فى حالة إضاءة».

تأملته وهو يصف المستقبل بهذا الوصف الملون.. إن عمره حوالى ٨٠ سنة (فى عام ١٩٩٩).. فهو من مواليد ١٩١٩.. سنة الثورة الليبرالية الأم فى مصر.. التى صاغت بالإجماع مفاهيم الحرية والمساواة والديمقراطية والدستور.. وسلطة الناس.. لقد كانت مصر تعانى من مشاكل طائفية حادة قبل هذه الثورة.. وبعد أن جاءت هذه الثورة بالبرلمان.. وحرية الصحافة.. وأفرجت عن المرأة المحبوسة فى سجن التقاليد.. انتهت الطائفية.. وأصبح الدين لله والوطن للجميع.

اسمه فى شهادة الميلاد يوسف إسكندر.. وقد تخرج فى كلية الصيدلة.. وامتلك لعدة سنوات صيدلية فى دمنهور.. لكنه ترك الدنيا ليدخل فى سلك الرهبنة.. وكان ذلك فى عام ١٩٤٨.. كان أول جامعى يصبح راهباً.. حسب التقرير الذى نشره عنه أسامة سلامة فى روز اليوسف.. فى يونية ١٩٩٥.

لقد كانت ظاهرة مفاجئة وملفتة للأنظار أن يقدم بعض شباب الأقباط من خريجى الجامعات بعد الحرب العالمية الثانية أنفسهم إلى الأديرة طالبين الالتحاق

بسلك الرهبنة حسب رصد هيكل فى كتابه «خريف الغضب» الذى استطرد: «ولم يكن ممكناً لهذه الظاهرة أن تكون محض صدفة وإنما وراءها بالتأكيد منطق محدد فى فكره وفى هدفه.. كان واضحاً أن هناك مجموعات من الشباب تؤمن أن الكنيسة القبطية لا تزال هى العنصر الأساسى فى حياة الأقباط فى مصر.. وكان واضحاً أيضاً أن هذه المجموعات من الشباب تعتقد أن السيطرة على شئون الكنيسة تتركز فى أيدى الرهبان الذين يرأسون الأديرة أو يشغلون مراكز الأساقفة وبالتالى يكونون المجمع المقدس.. وكان واضحاً أن هذه المجموعات من الشباب ترى أن القوة فى الكنيسة ومن ثم القوة فى المجتمع القبطى تكمن فى الأديرة».

إن الأب متى المسكين كان أول من فتح أبواب الأديرة أمام الجيل الجديد من الرهبان.. التكنوقراطيين.. وهو الذى أقنع نظير جيد المتخرج من كلية الآداب بأن يصبح راهباً.. وكان الأب متى المسكين هو أب اعتراف له.. وفيما بعد أصبح نظير جيد هو الأنبا شنودة وجلس على كرسى البابوية.. وفيما بعد أيضاً لم تعد العلاقة بينهما على ما يرام.

بل إن العلاقة بينه وبين الباباوات قبل البابا شنودة لم تكن على ما يرام.

لقد قضى الأب متى المسكين معظم سنوات الرهبنة فى دير السريان بوادى النطرون ولم يتركه إلا عندما اختاره الأنبا يوساب الثانى وكيلاً عاماً للبطريركية فى الإسكندرية.. وهو منصب يؤهل من يصل إليه لأن يكون بطريركاً للكنيسة القبطية.. ويقول لى الأب متى المسكين:

- لقد رفضت أن يتقاضى القساوسة العطايا من الناس وقررت لكل منهم راتباً شهرياً من الكنيسة، كان ٨٠ جنيهاً وكان مبلغاً محترماً فى ذلك الوقت.. وسعيت للقضاء على الإسراف فانقلب أصحاب المصالح على إصلاحاتى التى أخذت بها الكنيسة فيما بعد.. وكان أن أجبرت على ترك موقعى.

عقب وفاة الأنبا يوساب استبعد الأب متى المسكين من ترشيحات البابوية بحجة أنه لم يقض ١٥ سنة فى الرهبنة رغم أن القانون يكتفى بعشر سنوات.. لكنهم عدلوا القانون ليخرج من الترشيحات.

وجاء الأنبا كيرلس السادس ليجلس على الكرسى البابوى.. وقد أمر الأب متى المسكين أن يغادر «بيت التكريس» وهو مكان للعبادة فى حلوان خلال ساعات قليلة.. ويقول الأب متى المسكين لى:

ـ تركت القاهرة بصحبة ١٢ راهباً وذهبنا إلى مكان مهجور فى «وادى الريان» بالقرب من الفيوم.. وبقينا هناك فى مغارة موحشة وخطرة ١٠ سنوات.

كان من بين الرهبان العشرة.. الراهب أنطونياس السريانى.. الأنبا شنودة فيما بعد.. الذى اعترف فى كتابه «انطلاق الروح»: «أنه تأثر بالراهب الذى كان يزوره فى مغارته بصحراء وادى النطرون والتى كان يقيم فيها متعبداً بعيداً عن الشر والبشر وقد قادته أحاديثه إلى انطلاق الروح».. ولم يكن هذا الراهب سوى الأب متى المسكين الذى تبعه انطونياس السريانى حتى مغارة وادى الريان.. لكن قسوة الحياة هناك جعلته يعود ـ هو وبعض الرهبان ـ إلى الدير مرة أخرى.. ويرى البعض أن الخلاف بين الراهبين بدأ فى ذلك الوقت.. على أن الخلاف الأكبر كان مع الأنبا كيرلس.. ويقول لى الأب متى المسكين:

ـ لقد استدعانى الأنبا كيرلس قبل رحيله وبعد أن أحس بقرب النهاية وظل يلح على حتى أمنحه «الحل» ـ وهو مصطلح كنسى يعنى أن يحله من الضيق أو الذنب الذى فى صدره ـ فاعتذرت.. لأننى راهب بسيط ومن غير الممكن أن أقدم «الحل» للبابا.. أعلى سلطة دينية.. لكنه ألح بشدة.. حتى كان ما كان.. وشهد بذلك الأنبا ميخائيل مطران أسيوط ورئيس دير أبو مقار.

كان الأنبا كيرلس قد أصيب بجلطة فى الساق ويشعر بأنه أخطأ عندما نفى الأب متى المسكين إلى الصحراء.. لكن.. النفى كان قدراً مكتوباً عليه.. إنه يحمله تحت جلده.. لقد كان النفى صديقه.. لكنه لم يتصور أن يصبح وطناً يسكنه.. ومحراباً يصلى فيه.

على أنك لا ترى آثار ذلك فى وجهه.. وجهه فيه صفاء القديسين.. وصوته يحمل السكينة والقناعة فى كل كلمة على لسانه.. وعزلته لا تعنى انقطاعه عن الحياة.. فهو يقرأ الصحف.. ويرى أن مصر فيها كُتّاب.. ولكنهم لا يلعبون دورهم فى تربية الناس تربية سياسية.. ديمقراطية.. إنه دورهم وليس دور

رجال الدين.. وهو محور اختلافه مع البابا شنودة..

إن كليهما ـ حسب تفسيرهيكل فى «خريف الغضب» ـ يمثل «مدرسة فى الفكر وفى العمل.. وفى حين أن الأنبا شنودة.. كان يرى أن الكنيسة مؤسسة شاملة مكلفة بأن تقدم حلولاً لكل المشاكل وأجوبة عن كل الأسئلة المتصلة بالدين والدنيا.. فإن متى المسكين كان له رأى آخر.. هو أن الدين علاقة بين الله وضمير كل فرد.. وأنه لا ينبغى أن تكون له علاقة بالسياسة».

لم يغير الأب متى المسكين أفكاره.. وقد قال لى:

ـ إن الدين مسئولية شخصية وليس مسئولية جماعية من خلال ما يعرف بالمؤسسات الدينية.. إن اللذين ترتيب السماء وليس لسلطة بشرية أن تستعمله لصالحها مهما كانت.

لكن.. يبدو أن هذا المعنى لم يكن واضحاً لدى السادات ولدى وزير الداخلية ممدوح سالم اللذين كانا فى شدة الحماس لانتخاب البابا شنودة فى عام ١٩٧١ بعد وفاة البابا كيرلس لعلاقة قوية تربط بين ممدوح سالم والبابا الجديد.. رغم أنه كان يدفع بمناقشات الإنجيل الواسعة إلى القضايا السياسية والاجتماعية الحساسة.. من صراع الطبقات إلى تنظيم الأسرة.. ومن التعليم الدينى إلى الأوقاف القبطية.

وهكذا.. استبعد السادات اسم الأب متى المسكين من قائمة المرشحين لمنصب البابا.. ويقول لى الأب متى المسكين:

ـ فيما بعد اعترف السادات لى بأنه استبعد اسمى لأنهم قالوا له أننى شيوعى.. كانت وشايات من آخرين داخل الكنيسة.

أحسست وأنا أسمع منه ذلك أن لا مكان فى جسد هذا الوطن يخلو من أمراض الوشاية.. وأورام الحقد.. وأن رجال الدين ـ الذين نرفعهم إلى مستوى أعلى من مستوى البشر ـ يعانون من نفس الأعراض والأمراض.

ويبدو أن الأب متى المسكين قد التقط بحسه «الصوفى» مشاعرى.. فأمر أن نقوم لتناول طعام الغداء.. وكل ما تناولناه من طيور وخضروات وفاكهة هى من

إنتاج المزرعة التى نحن فيها.. وقد وجدت على المائدة طبق خوخ حجمه أكبر من المعتاد.. وملمسه غير خشن.. وحلاوته زائدة.. وبرقوق يحمل نفس الصفات.. وعنب فى لون الكريز وبطعم المانجو.. إنها ثمار خبرة الأب متى المسكين المذهلة فى الزراعة.. مستخدماً الهندسة الوراثية.

لقد تسلم الأرض صحراء.. قاحلة.. فحفر الآبار.. وبنى أحواضاً لتجميع مياه المطر.. وزرع أشجار الجازورينا العملاقة لتكون مصدات للرياح تحمى الزراعة.. واستورد شتلات أشجار الفاكهة من فرنسا.. وراح يجربها بعد إصلاح التربة ليصل إلى أفضل ثمار.

إنه الوحيد الذى زرع الصحراء فى الساحل الشمالى الذى أنفقنا فيه حوالى ٤٠ مليار جنيه على غابات الأسمنت.

ولا أحد يفكر فى الاستفادة من تجربته.. لا وزير الزراعة.. ولا وزير التعمير.. والمثير للسخرية أننا نستورد هذه الخبرة من إسرائيل. والوحيد الذى زار الأب متى المسكين كان حسب الله الكفراوى وزير التعمير السابق.. لكن كانت الزيارة من أجل أن يدفع الأب متى المسكين ثمن الأرض التى زرعها للحكومة حتى يمكن تسجيلها.. وطلب الوزير فى المتر ٣ جنيهات.. ورفض الأب متى المسكين.. ووجد نفسه يرفع الأمر للرئيس السادات.. ومن هنا بدأت العلاقة بين الراهب والرئيس.

وقد سبق أن حول الأب متى المسكين الصحراء عند دير أبو مقار ـ بالقرب من منتصف الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية ـ إلى جنة من الخضرة.. فزرع ٣٠٠ فدان منحها السادات للدير.. ثم زرع ألفى فدان غيرها.. بالإضافة إلى مزرعة متميزة للأبقار كان يجرب فيها زرع الأجنة.. أو أبقار الأنابيب.. وهو ما جعل السادات يختار المدينة التى تحمل اسمه بالقرب من الدير.. حيث التجربة ملفتة للأنظار.

ويبدو أن جذور السادات الريفية جعلته يميل إلى الأب متى المسكين.. كما أن إحساساً بالذنب ـ لاستبعاده من انتخابات البابوية بتهمة الشيوعية ـ لابد أن يكون قد سيطر عليه.. لكن هذه العلاقة لم تسخن إلا بعد أن أصبح السادات والبابا شنودة على طريق اللا عودة.

ويقول لى الأب متى المسكين:

ـ كان السادات يتحدث عن البابا شنودة والحمرة تسيطر على عينيه.. وكانت هذه على ما يبدو علامة الغضب الشديد لديه.. وقد قال لى عندما احتدم الصدام بينهما أنه سيتخلص منه.. وهو ما أفزعنى.. وجعلنى أتدخل.

لم يقل الأب متى المسكين أن عبارة السادات «سأتخلص منه» كانت تحمل أكثر من معنى.. كلها غير مريحة.. ولم يقل أن السادات كان يضع يده على قضية جاهزة سيقدم بها البابا شنودة للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى.. وهو ما أشار إليه أسامة سلامة فى تقريره المنشور فى روز اليوسف فى يونيه ١٩٩٥.. وهو ما اعترف به أيضاً عثمان أحمد عثمان لقس كنيسة الإسماعيلية فى ذلك الوقت.. والذى كان عثمان أحمد عثمان ـ المقرب جداً من السادات ـ يدين له بالجميل لمساعدته فى تجميع أصوات الأقباط فى الانتخابات التى يدخلها.

وتدخل الأب متى المسكين لتهدئة السادات وقام بعشرين جولة مكوكية بينه وبين البابا شنودة رغم خلافاتهما.. ونصحه بعدم الصدام مع السلطة.. ولكنه رفض.. فكان أن اقترح على السادات إصدار قرار جمهورى يرجع فى التصديق على البابا.. ومن ثم يذهب إلى الدير.. حتى تفوت الأزمة.. واختار لجنة من خمسة رهبان لإدارة الكنيسة.. أجبرها على الذهاب إلى البابا فى الدير ليقولوا له: إننا مجرد نواب عنك إلى أن تزول الغمة.. فيعود إلى كرسى البابوية.. وهو ما حدث فيما بعد.

وقد رفض الأب متى المسكين أن يكون مكان البابا وقال للسادات: ليس لدينا سوى بابا واحد.

ورفض أن يكون عضواً فى اللجنة الخماسية.. وتحمل مزيداً من الاضطهاد بسبب هذا الموقف الجديد.

إننى لا أجد حرجاً فى تنشيط الذاكرة السياسية بمزيد من الأسرار التى تنشر لأول مرة حتى تزول الحساسيات بين البابا والراهب المعلم.. الذى لا يريد من الدنيا سوى ثمرة لجائع.. ووظيفة لعاطل.. وحرية غير منقوصة لشعب يستحقها.

لم يعد فى عمر الأب متى المسكين ما يفرض عليه المزيد من النفى.. حتى لو كان هذا النفى فى مزرعة فى الساحل الشمالى.. بالقرب من مارينا.. وقد كتبت بعد أن قابلته.. أنه قد لا يكون فى عمره ما يمهل البابا شنودة أن يسامحه.. وطوبى للجياع من أجل الخير.. طوبى لهذا الراهب الذى يتبرع للمساجد.. ويحيى الأرض الميتة.. ويؤمن بالعلم.. ويستعد لإعلان تجربة جديدة فى زراعة الرى بالتنقيط.. وهى معجزة بكل المقاييس.. طوبى للأب متى المسكين.

إن لقائى بالأب متى المسكين.. كان من ثمار مارينا.. أو لعله من حسنات مارينا التى يمكن أن تغفر سيئاتها.. وعندما نشرت هذا اللقاء.. التقى البابا شنودة بالأب متى المسكين فى أحد المستشفيات.. ولم يعد الراهب منفياً.. ولم يعد البابا متحاملاً عليه.

وعرفت فيما بعد أن مارينا تأكل أحياناً مما يزرعه وينتجه الراهب.. الصابر.. متى المسكين.. فى مزرعته.. وصومعته.. ولكن.. ما أصابنى بالألم.. أن كثيراً من الأقباط فى مارينا والساحل الشمالى.. قد عرفوا مكانه.. أو بدقة أكثر.. اكتشفوا مكانه.. فراحوا فى طريق الذهاب والعودة يزعجونه.. ويطالبونه بالمغفرة.. والبركة.

لقد أحسست أننى كسرت أسوار عزلته.. ولفت الأنظار إلى موقعه.. وكشفت طريقه لمن يحلم بأن يلقاه.. وهم كثيرون.. كثيرون.. فالمعارضون من رجال الدين ربما يكونون أكثر شعبية ممن فى السلطة.. سلطة ظل الله على الأرض.

على أن الذين سعوا إلى تقبيل يد الأب متى المسكين من سكان مارينا كانوا أقل بكثير من سكانها الذين تمنوا تقبيل يد وقدم وثياب رجل دين قبطى من طراز غير شائع.. يفهم فى السحر.. ويعرف كيف يفك «الأعمال» حتى لو كانت مدفونة فى بطون الأسماك.. أو بين أسنان الديناصورات.

وهو يعيش ويعظ ويمارس «أعماله» فى مدينة صغيرة فى الوجه البحرى.. لكن صيته ذاع لعلاقاته القوية والشخصية مع بعض المشاهير من نجوم السينما ورجال «الأعمال».. أقصد هنا رجال «البيزنس».. فمعظم المشاهير والنجوم

والسياسيين ورجال السياسة له «المشعوذ» الخاص الذى يستشيره قبل أن يتخذ قراراً مهما فى حياته.. أو يكشف له مكائد الخصوم وأعمالهم السفلية.. بل إن الحكام أحياناً لا يستغنون عنهم.. فالرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان كان يحدد مواقفه من العالم الخارجى حسب النجوم.. والرئيس الأمريكى التالى له چورج بوش لم يقرأ طوال مدة رئاسته كتاباً واحدا إلا عن الخرافة وكان يصفها باللعبة المستحيلة عبر القرون، وكان يصفها بالوحش الجميل الذى يخرج لسانه لجميع صياديه.. أما الرئيس الفرنسى الراحل فرانسوا ميتران فكان يقرأ طالع الحكام قبل أن يلقاهم.. ولم يوافق الرئيس الروسى بوريس يلتسين على إجراء جراحة فى القلب إلا بعد أن استشار جورجى روجوزيم وهو چنرال سابق فى المخابرات الروسية اعتزل التجسس وتفرغ لفك طلاسم النجوم.. لكن هؤلاء الحكام هم فى الحقيقة أقل جنوناً بالنجوم من ملك فرنسا لويس الرابع عشر الذى كان يجبر العرافين على البقاء فى غرفة نومه ليحددوا له الوقت المناسب للإنجاب وهو ما كان يفعله الرئيس الأوغندى الأسبق عيدى أمين الذى أطلق النار على أشهر السحرة فى بلاده عندما أخطأوا فى نوع المولود الذى كان ينتظره من إحدى زوجاته.

جاء «أبونا» إلى مارينا مرة واحدة.. فى مهمة محددة.. الكشف عن «عمل سفلى تعانى منه فنانة معروفة قيل أنه قادم من المغرب.. ويجب استقباله وفكه وإفساده قبل أن يصل إلى الإسكندرية.. وكان المكان المناسب للانتظار هو مارينا.. وهكذا استأجرت النجمة المعروفة بيتاً على البحر لصيف كامل.. فلا أحد يعرف متى يصل «العمل».. وجاءت بنفسها.. وجاء بعدها «أبونا».

لقد تركت كل شىء وراءها لتنفيذ هذه المهمة.. فهى قضية حياة أو موت بالنسبة لها.. هى صفقة عمرها.. أن تزيل كل المعوقات بينها وبين الملياردير الشاب الذى تريد أن تتزوجه.. هى مصرة عليه.. مهما كانت ظروفه العائلية والعاطفية والدينية.. هى تريد أن تتزوجه بأى ثمن.. فالفن فى النهاية لا يغطى نفقاتها.. وسعرها فى سوق النساء يتراجع عاماً بعد عام.. ثم إنها تؤمن أن ما تبيعه لقاء دور فى فيلم.. أو تغيير ديكور شقتها.. أو تبديل سيارتها هو أقل من سعرها الحقيقى.. ولكنها تخشى لهذا السعر أن ينهار.. وفرصتها أن تمسك بهذا الشاب الشديد الثراء بيدها وأسنانها: حتى لو حاربت كل شياطين الجن

والإنس.. أو حتى لو تحالفت مع الخرافات والنبوءات والمخابرات.

لقد عضها الفقر فى طفولتها.. كان الناس من حولها يأكلون البيض والتفاح والمانجو وهى تأكل قشورها.. كان الناس من حولها يشربون الحليب والعصائر وهى تشرب دموعها.. كان الناس من حولها يلبسون ثياباً فاخرة وهى تلبس أحزانها.. كان الناس من حولها يركبون سيارات فارهة وهى تركب عنادها وطموحها.. وهى حلوة.. تعرف منذ أن عرفت صورتها المرآة أن الضباع ستنهشها.. وستنشر جسدها بمناشير ساخنة.. وأنها لن تستطيع أن ترد الصفعة.. ولن تستطيع أن تضربها بالكرباج.. فالفقراء لا ثمن لهم.. ولا دية.. والأثرياء يتحكمون فى عواطفهم ودموعهم ولذاتهم وفراشهم.. المال يحتكر كل شىء.. يحتكر الحكمة والمعرفة والسلطة والشهوة واللذة والقانون والتشريع والفهم والرأى.. يحتكر حتى المشاعر.

إنها جذابة.. وهى تعرف أنها ستسقط.. ستسقط.. وكان أن قررت أن يكون لسقوطها ثمن.. فلتسقط بشراسة لا بلين.. لتسقط بوحشية لا بطفولة.. بحق لا بغفران.. بكفر لا بإيمان.. بشجاعة لا بخوف.

قالت لى ذات مرة:

ـ أنها قررت أن تكون محتالة وكذابة وغشاشة.. فالمجتمع علمها ذلك قبل أن يعلمها أى شىء آخر.. وهذا هو قدر الفتاة الجميلة.. الفقيرة.. قدرها أن تُمضغ بلا ثمن.. أن تصبح منطقة من مناطق نفوذ من يملك النفوذ.. والنقود.. لا يشعر جسد المرأة الجميلة.. الفقيرة بالسلام مع صاحبته.. أو مع من حولها.. ومن ثم يجب أن يضاف للفقر والجمال.. الذكاء.. الذكاء ضرورة للخروج من المأساة الغارقة فيها حتى الركب.. فعندما يأخذون جسدها دون أن يفكروا فى رده إليها.. فعلى الأقل عليها أن تأخذ منهم.. الرهن.

ولا أريد أن أفرط فى وصفها حتى لا تعرفها.. فليس مهما أن تعرفها.. المهم أن تعرف مشاعرها.. وتجاربها.. ولكن يمكن القول أنها أكثر إثارة من إلهام شاهين.. ونيرمين الفقى.. ويسرا.. على الشاشة.. هى نموذج لنساء مجلة «البلاى بوى».. الصدر الممتلئ.. المتكور.. البارز.. النافر.. القابل للصدام..

والجسد ممشوق.. متجانس.. تعرف خطوطه كيف تنحنى فى المكان المناسب.. وكيف تنتفخ فى المكان المناسب.. وكيف تهرب من التكور فى المكان المناسب.. وهو فى لون الحليب.. وفى لون الفجر.. وشعرها يعرف موهبة الزحف على ظهرها.. وعيناها لا تعرفان كيف تخفيان سخونتهما.. وشفتاها هما فعل فاضح فى الطريق العام.

جسدها كان قضية من قضاياها الحيوية.. وهى تعشقه.. وتعشق أن تلمس قبابه.. ومرتفعاته.. وواحاته.. وتصلى كثيراً لمن صممه وعجنه وسواه.. وكثيراً ما تتأمله عارية أمام المرآة وتشعر أنه غابة من الإثارة.. فى النهد عصفوران.. وفى الساقين زرافتان.. وفى القدمين أرنبان.. وتحت الإبطين زهور البنفسج.. وقد غارت أماكن أخرى منهما.. فانتشر المزيد من البنفسج.. والريحان.

وهى تعترف أنها أهملته حتى بعد اكتماله.. لكنه بدأ يؤرقها.. ويأكل فراشها.. وأصبح متمرداً.. لا ينام.. ولم تكن تعرف ما يريد.. ولا هو قادر على الإفصاح.. فهو يحتاج إلى مترجم.. يجعله ينطق.. يصرخ.. ويجفف دموعه.. وهى تعرف أن الترجمة التى يحتاجها فى يد رجال يصعب أن تصل إليهم وهى لا تزال فى سنوات المراهقة.. لكنها.. اكتشفت أن نوعاً ما من النساء قادر على هذه الترجمة.. وكانت جارتها.. طبيبة الأطفال من هذا النوع.. فعلمت جسدها فى وقت مبكر كيف يصرخ.. ويثور.. ويغضب.. وينتفض.. ثم يهدأ.. ويقنع.. ويدخل فى غيبوبة.

إن الرجل الأول فى حياتها.. امرأة.. وقد كان من السهل أن تجدها.. وتتواجد معها دون شك.. أو قلق.. أو سهام طائشة تصيب سمعتها.. وقد علمتها هذه المرأة المسترجلة.. متعة أن تمشى عارية.. حافية.. متعة أن تحدد ما تريد بنفسها.. ألا تخجل.. أن تطالب بحقها.. ويبدو أن فى الحياة وفى غيرها.. يكون المعلم الأول أخطر من المعلم الأخير.. مدرس الابتدائى أخطر من أستاذ الجامعة.

لقد عشقتها.. وعلمتها.. وأعطتها أشهر كتب الحب الممنوعة.. كتاب «الكاما سوترا».. أو فن الحب عند الهنود.. وهو كتاب عمره حوالى ٣٠٠ سنة.. ترجمه إلى الإنجليزية السير رتشارد بيرتن.. الذى ترجم من قبل كتاب ألف ليلة وليلة.. وبعد الترجمة الإنجليزية ـ التى كانت فى عام ١٩٦٠ ـ وجدت اللغة العربية من

ينقله إليها.. ونشرته بيروت.. وتسللت نسخ منه إلى القاهرة.. سرعان ما توالدت وتكاثرت.. وخطورة الكاما سوترا أنه يعكس إيمان الهندوس بأن الجنس ليس قذارة.. وإنما يمكن أن يكون أحياناً «سبيلاً إلى السمو الروحى المؤدى إلى الاتحاد مع الآلهة.. وهو ما يجده زوار المعابد الهندوسية فى كونرك وكاجوراهور.. فكل أوضاع الحب محفورة هناك.. وأحياناً تكون هذه الأوضاع نوعاً من الاتحاد الجسمانى بين البشر والآلهة.. والمعروف أن الآلهة الهندوسية تتزوج وتعيش حياتها.. وليس بينها آلهة تحتفظ بعذريتها.. ويرى الهندوس «أن من الغريب عليهم أن يعبدوا إلهاً حرم نفسه من المتعة الجنسية».. ولأن الجنس حياة مكتملة عند الهنود فإن الكاما سوترا لا تهتم فقط بفنون الحب وفنون الجسد وإنما تهتم كذلك بفنون أخرى يجب دراستها وعددها ٦٤ فناً.. منها.. الغناء.. والرقص.. والرسم.. والوشم.. وتزيين الزهور.. وتثبيت قطع الزجاج الملون.. وصناعة الوسائد للاضطجاع.. والعزف على زجاجات مملوءة بالماء.. والتمثيل.. وتحضير العطور.. والطهى.. ورواية الألغاز.. والتقليد.. وتلوين الجواهر.. وتقليد الأصوات.. ونظم القصائد.. وصناعة التماثيل.

وكتاب الكاما سوترا يفرط فى شرح التقبيل.. والضم.. والضغط.. والضرب.. والعض.. وطرق المضاجعة الصحيحة والخاطئة.. ومتى تقوم المرأة بدور الرجل.. وما ينبغى على الرجل عمله.. وفن المغازلة.. ومميزات الرجل.. وصفات المرأة.. وأنواع النساء.. وكيفية الوصول إلى الذروة.

ويمتد الكتاب إلى وسائل أصحاب السلطة فى الحصول على نساء الآخرين.. وكيف أن على أصحاب السلطة ألا يرتكبوا أى عمل غير لائق علناً.. لأن الناس تقلدهم.. ولو فعلوا ذلك استحقوا اللوم.. ولو فعلوا ذلك فهذا معناه أن السلطة الفاسدة قد أصبحت سلطة فاجرة.. مجرمة.

لكن الفصل الذى توقفت عنده طويلاً.. هو فصل وسائل تحصيل العملة من العاشق.. وراحت تحفظها.. وتحفظ حيلها.. والذين عرفوها فيما بعد لم يعرفوا من أين تعلمت حيل الحصول منهم على الأموال... لم يعرفوا كتاب الكاما سوترا.. الذى ينصح هذا النوع من النساء بأخذ النقود فى مناسبات مختلفة لشراء ما تحتاجه هى أو بيتها ثم لا تشتريها.. أو تشترى بعضها.. والتظاهر

بأن الأشياء الثمينة قد سرقت.. أو تحطمت.. والتظاهر ببيع بعض حليها حتى يسارع بدفع قيمتها.. وأن تبلغ عشيقها بالمكاسب التى تحصل عليها الأخريات.. أو تبين سخاء منافسيه.. إنها ٢٦ حيلة وقد حفظتها كلها..

وفى الوقت نفسه لم تنس أن تتوقف طويلاً عند نصائح الكاما سوترا فى كيفية التخلص من العشيق.. ومنها.. وصف عاداته بأنها غير مقبولة مع ضرب الأرض بالقدم.. والتحدث فى موضوع يجهله.. وعدم إظهار الإعجاب بتعليمه.. وكسح كبريائه.. والتنديد بالرجال الذين فيهم نفس عيوبه.. وعدم السماح له بالاقتراب منها.. عدم تحريك أطرافها فى الفراش.. والتظاهر بالنعاس.. والضحك دون مبرر.. والانشغال بأى شىء وهو يتحدث.. وأن تطلب منه ما لا يستطيع تحقيقه.

لقد كان الكاما سوترا بالنسبة لها هو القانون والدستور والكتاب المقدس الذى حفظته.. وكانت ترجع إليه كلما وجدت نفسها فى مشكلة مع رجل من الرجال الذين عرفتهم.. وقد كانوا كثيرين.. وكان كل منهم أشبه بدرجة من درجات السلم الذى صعدت عليه.. كل منهم كان مرحلة فى حياتها.

كان أول رجل ركبت فوق كتفيه هو منتج أفلام يهوى اكتشاف النجمات.. ويبدأ الاكتشاف فى الفراش.. ومنه تذهب إلى الاستديو.. ومنه إلى صفحات الفن وأغلفة المجلات الملونة.. ولكنها كانت تعرف ما تريد جيداً.. وهى مثقفة ثقافة أنثوية متميزة.. ثقافة الكاما سوترا.. فكان أن رفضت أن تمشى المشوار من نفس البداية.. اختارت بداية أخرى.. المأذون.. الزواج.. فهى تريد أن تقدم نفسها على شاشة السينما فى صورة رومانسية.. ولا يمكن أن يقبل الجمهور هذه الرومانسية وهى متورطة فى علاقة غير شرعية.. والرومانسية شرط من أهم شروط النجومية.. فالشباب يجب أن يعتبرها فتاة أحلامه.. والبنات يجب أن يقلدنها.. وهو ما كان.. حتى أنها أعلنت فى الصحف أنها لن تسمح بالقبلات على الشاشة.. القبلات لزوجها فقط.. وضاعف ذلك من جنون الإقبال عليها.. ولم تقدر الكاميرا على كشف حقيقتها.. كانت ملاكاً على الشاشة.. شيطاناً من شياطين الجنس فى حياتها الخاصة.. وهى تقسم لأقرب صديقاتها فى الوسط الفنى أنها هى التى علمت زوجها كيف يصبح رجلاً.. وكيف يجد

نفسه فى الفراش.. وكيف أدمنها.. وشطب من ذاكرة جسده كل من مررن عليه من نساء.. ولكنها تقسم لهن أيضاً.. أنه لم يكن على المستوى المناسب لها.. وأن الفتاة التى فتحت عينيها على المتعة كانت قادرة على ما لم يقدر هو عليه.

وكانت درجة السلم الثانية رجل أعمال خليجى.. فاحش الثراء.. فظ السلوك.. ويبدو أن سلوكه لا يخصه وحده.. وإنما يخص أمثاله الذين هبط عليهم المال هبوط الأمطار الاستوائية.. والذين يرون الحب أو الجنس مستودع نفاق كبيرا.. فوجهه وجهان.. ونفسه نفسان.. وخارجه غير داخله.. وهو راهب مع زوجته.. نسناس مع عشيقاته.

هو واحد من النباتات الشوكية فى علاقاته الجنسية.. هو واحد من الذين أهانوا الجنس بأموالهم.. وجعله ورماً حقيقياً ينهش العقول والضمائر.. ويصعب أن نحدث تغييرات مناسبة فى حياتنا دون إزالة هذا الورم.

ولكنها.. كانت تريد منه المال.. هو مقرز.. يتعامل مع الحب معاملة المصارعة الحرة.. وكلما شعر بجسدها يتكسر تحته.. كلما دفع أكثر.. وهى تعرف أن قليلا من العنف لا يضر.. لكن.. كل هذا العنف لا يجوز.. ليس فى الكاما سوترا.. ولا فى غيره من خبرات البشرية.. شد الشعر.. والركل.. والخنق.. لقد خرجت من علاقتها به.. بملايين.. وبفضيحة ضرب وطرد فى الشارع.. وبعلاج شهر فى المستشفى.. وبدرس لم تتعلمه كثيراً هو أننا نبقى تحت مستوى الإنسان حتى نحب.

كانت الفضيحة مدوية.. فقد شعر بالشك يلعب كالفأر فى صدره.. ولم ينتظر حتى يذبح الشك باليقين.. ولماذا ينتظر.. فلا حب بينهما.. ولا احترام.. ثم إن النساء على حد إيمانه على قفا من يشيل.. فكان أن عاد إليها يترنح من شدة السكر.. وراح يضربها بعنف.. ويحطم ما فى بيتها بعنف.. ويلقى بثيابها من النافذة.. فراحت ثيابها الفاخرة.. وثيابها الداخلية تتساقط فى الهواء.. وتسقط على رؤوس الجيران والسيارات.. فى مشهد لم يمنع البعض من الاحتفاظ بعينات من الثياب على سبيل التذكار.. ثم وجدت هذه التذكارات من يشتريها..

فهى فى النهاية كانت أقرب شىء إلى جسدها.

وبهذه الفضيحة.. تراجعت أدوارها الرومانسية.. ولم تعد تسمح فقط بالقبلات.. وإنما بما هو أكثر.. والغريب أنها شعرت بالراحة.. فقد أصبحت على طبيعتها.. فالتمثيل عبء أمام الكاميرا وخلف الكاميرا.. وقد تخلصت من هذا العبء.

لكنها.. لم تهاجم الصحافة التى نشرت تفاصيل الفضيحة.. إنها رغم كل شىء أذكى من أن تستعدى الصحافة عليها.. لم تفعل مثل إلهام شاهين التى كانت تهاجم الصحافة وتستعدى عليها السلطة حتى أنها اشتكتها لرئيس الدولة.. ولذلك لم ترحمها الصحافة عندما أجبرت على أن تكشف عن زواجها السرى من مليونير لبنانى هو عزت قدورة بعد أن اتهمته بإرسال من يشوهها بماء النار.. وخسرت إلهام شاهين هذه المعركة.. وفقدت هى الأخرى معظم أدوارها الرومانسية على الشاشة.

ويبدو أن الفضيحة قد شجعت أثرياء كثيرين فى العالم العربى على أن يضعوها فى جداول مواعيدهم الغرامية.. لكنها لم تكن من الغباء أن تكرر أخطاءها.. ووجدت أن الثروة وحدها لا تكفى.. لابد من حماية السلطة.. فليست النقود هى المقابل الوحيد لجسدها.. هى فى حاجة لأكثر من النقود.. وإلا وجدت نفسها فى قضية آداب.. وأصبحت فضيحتها بجلاجل.. وأصبح سعرها هو سعر الكومبارس.. لا سعر النجوم.

ولكن الرجل القوى الذى طلبها لم يطلبها لنفسه.. طلبها لرجل أقوى منه.. ثم طلبها لرجل ثان أقوى منه أيضاً.. وتكررت طلباته.. وهى لا تندهش.. لم تعد تندهش.. وهى تشعر بالقوة.. وهو يشعر بمزيد من القوة.. وهو يعطيها القوة التى تريدها.. وهى تعطيه مزيداً من القوى التى تجعله فى موقعه.. لعبة لا أول لها ولا آخر.. لا أحد يعرف أين تبدأ.. ولا أين تنتهى.. ولكن.. لا أحد من الذين يلعبونها يريد الخروج منها.. فليس مهماً أن تكسب.. أو تخسر.. المهم أن تظل تلعب.

على أنها بعد سنوات طويلة من «البهدلة».. و«المرمطة».. شعرت بالتعب.. تمنت أن تستريح.. تمنت أن تتكور فى صدر رجل واحد.. يمنحها الأمان.. وتمنحه الحنان.. إن الإحساس بالأمان هو الإحساس الذى يجعل أشد النساء

شراسة مثل القطة الأليفة التى تلعق صاحبها كما تلعق الحليب.

كانت تنتظره.. عندما قابلته.. أو شعرت أن السماء أرسلته لها فى الوقت المناسب.. هو يعرفها.. وهى سمعت عنه.. سمعت أنه يملك خبرة الأيام وحنكة العمر وثروة تجاوز المليار.. لم يعد المليون ثروة.. فالمليون لم تعد سوى سيارة.. أو ثلث شقة.. أو ربع بيت فى مارينا.. أو طاقم مجوهرات من اسم شهير فى فرنسا.. الثروة الآن بالمليار.. اختفت كلمة أرنب.. التى كانت تعبر عن المليون.. القاموس الآن فيه حوت.. فيل.. ديناصور.. وهو ديناصور.. ولكنه رغم انه تجاوز الخمسين من عمره فهو.. لم يعرف جو الأضواء من قبل.. كان ينبهر بالنجوم.. ولا يصدق أنهم بشر مثلنا.. مثله.. وكان لا يصدق أن المال يفتح أبواب السلطة.. وأبواب الشهرة.. وأبواب المتعة.. فهو منذ أن تخرج من كلية الزراعة وهو يعمل ف التجارة مع والده.. وببراءة أحب.. وتزوج.. وأنجب.. وعاش حياة عائلية محافظة.. حياة قاموسها.. الأسرة.. الصلاة.. لقاء الأصدقاء القدامى.. العمل.. النوم.. الطاولة.. السفر.. الطعام.. المرح.. الموسيقى.. أم كلثوم.. فيروز.. الموسيقى الكلاسيكية.. لكن.. ما أن عرفها بالصدفة حتى انقلبت حياته رأساً على عقب.

كانت فى أسوان هى وأقرب صديقاتها فى الحياة وفى الوسط الفنى.. عندما لمحته.. أو عندما عرفته.. لم يكن معروفاً كما أصبح بفضلها فيما بعد.. ولكنها بحكم اقترابها من كواليس السلطة كانت تعرف وزنه الثقيل.. فى السوق.. فرفعت صوتها بالشكوى عندما تأكدت أنه لمحها.. واحمر وجهه.. صرخت فى موظف الاستقبال:

ـ لقد أخطأت فى عدم تأكيد حجز الطائرة.. يجب أن تتحمل خطأك.. فأنا لابد أن أعود إلى القاهرة الليلة.

وعادت إلى القاهرة بالفعل فى نفس الليلة.. ولكن ليس على طائرة «مصر للطيران».. وإنما على طائرته الخاصة.. وعلى ارتفاع ١٨ ألف قدم فى الجو بدأت ترمى بشباكها عليه.. والمؤكد أن الفريسة وقعت فى الشباك.. الثروة عند حد معين تحتاج الشهرة.. والشهرة عند حد معين تحتاج الثروة.. ولم تضيع الوقت.. فراحت تروى له قصة حياتها بصياغة أنثوية تظهرها ضحية.. والأنثى الذكية هى التى تبادر وتكشف ما سيعرفه الرجل عن حياتها.. حتى لا يفاجأ بما يهز

صورتها.. وهى تعيد الرواية بما يوحى بأنها كانت مغلوبة على أمرها.. وأن ما فعلته هو من فعل أشخاص أشرار.. لم تستطع أن تردهم.. فهذا استغلها فى السينما.. وهذا استغلها فى السياسة.. وهذا استغل جسدها.. وهذا لعب بحياتها.. ولا مانع ـ والبطلة هنا ممثلة قديرة ـ أن تبكى.. وترتعش.. وتنتفض.. ويمكن أن يغمى عليها.. وعندما يكشف الإغماء عن الجسد المنقوع فى حليب النجوم.. فإنها تكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد.. كسبت شهقته.. كسبت ثقته.. وهو ما كان.

ولأنه لا يعرف من الدنيا الكثير بعيداً عن أعماله.. فقد راح دون أن يقصد يتحدث عن مشاريعه.. وما يفعله.. ولم تكن هى تسمع فقط.. وإنما كانت تترجم الحروف إلى أرقام بالمئات.. وتترجم الكلمات إلى أرقام بالملايين.. وتترجم العبارات إلى أرقام بالمليارات.. ولم تنزل من الطائرة إلا وقد قررت أن تتزوجه.. مهما كانت العقبات.. والصعاب.. والشروط.. فهى تريد أن تستريح.. وتعمل قليلاً.. وتسترخى كثيراً.. ولأنها قررت ودبرت ورسمت بسرعة لم تتردد أن يكون التنفيذ بنفس السرعة.. فأوحت له بالسفر إلى باريس.. فوافق.. وفى المطعم الرئيسى الفاخر فى فندق «چورچ الخامس» تناولا العشاء.. وقبل أن يغادر المطعم وضع حول عنقها عقداً طلبه بالكتالوج بالتليفون من «كارتييه».. وابتسمت فى سعادة.. واكتفت بتقبيل خده.. وبعد أن انتهى العشاء أصرت على أن تعيد العقد إليه.. وأن تنام بمفردها فى غرفتها.. إنها لا تبحث عن مغامرة.. أو صفقة.. أو سهرة.. أو علاقة عابرة.. هى تبحث عن مشروع عمرها.. استثمار ما وصلت إليه فى بورصة الشهرة والنشوة والجاذبية.. عليها أن تنزل البورصة قبل أن تنخفض قيمة أسهمها. عليها أن تقنعه أنها ليست امرأة سهلة كما يقال.. وأنها تريده هو لشخصه لا لماله.. ومن ثم رفضت العقد.. ورفضت النوم معه فى تلك الليلة..ونجحت فى أن تزيل من عقله كل ما يمكن أن يكون سمعه.

وشعر هو بالسعادة.. فهى امرأة شريفة.. مظلومة.. ترفض عقداً بنصف مليون فرنك.. ولا تقترب منه حتى تتأكد من حبه لها.. لقد نفذت وصايا الكاما سوترا فى إقناع الحبيب أن لا أحد قبله.. ولا أحد بعده.. وفى الوقت المناسب بدأت تشممه الجنس.. وتعطيه جرعة.. جرعة.. حتى أصبح يدمنها.. هى فتحت عينيه على عوالم المتعة المحترفة.. رقصت له عارية.. وعلمته أن كل خلية فى

الجسد خلية جنسية.. وأن ما يعرفه عن الجنس الذى عرفه عشرات السنين هو فقط وسيلة للإنجاب.. وأقنعته أنه الرجل الوحيد الذى دوخها.. وأرهقها.. وجعلها تصاب بالدوار.. والإغماء.. وأوصلها إلى بر النشوة.

وقررت أن تصيبه بمزيد من جنون الجنس المحترف لينسى كل من حوله.. فراحت تثيره هى وصديقتها معاً.. ثم انضمت لهما واحدة ثالثة.. وهو لا يصدق أن الدنيا فيها كل هذه المتعة.. وأن امرأة واحدة يمكن أن تلخص كل نساء العالم.. وبدأ يتعلم السفر.. والسهر.. ويتأمل القمر.. ويلعب بأوراق الشجر.. بدأ يهمل حياته.. ويتبعها.. وهى لا ترحم.. فقد راحت تواصل تنفيذ خطتها فى الوصول إليه.. وكان عليها أن توصل الخبر لزوجته.. ولم يكن ذلك صعباً فخراب البيوت فن تجيده صديقاتها.. وأولا بأول كانت الزوجة تعرف كل شىء.. أين كان زوجها.. وماذا فعل.. وما الذى تناوله فى طعامه.. والعلامات المميزة فى جسده.. وفى ثيابه الداخلية.

وصدمت الزوجة.. وبهتت.. وغضبت.. ولكنها قررت وهى حزينة أن تخوض المعركة.. وهى معركة بين الحب والعهر.. بين الاحترام والابتذال.. بين قدسية الزواج وسهولة خراب البيوت.. وجرت مواجهة بينها وبين زوجها.. ولم ينكر وقرر أن ينسحب من هذه العلاقة.. لكن منذ متى يقدر مدمن الهيروين أن يتركه مرة واحدة.. ففعل ما يفعله المدمنون.. يأخذ الجرعة.. ثم يقسم ألا يعود إليها.. لكن ما أن ينقص مخدرها فى لحمه حتى يعود إليها.. وهكذا.. على أنها شعرت بالقلق.. فضاعفت الجرعة.. وطلبت من أصدقائها المهمين أن يعلموها كيف تسجل له شرائط فى الفراش.. حيث اللسان يخرج عن عقاله.. وينطلق بما لا يقال عادة فى الجنس وفى السياسة.. وأرسلت له نسخة من الشريط حتى يعود إليها.. وقد عاد بالفعل.. ولكن وهو يفكر كيف يحصل على أصل الشريط.. وكيف يتخلص منها دون أن تطارده.. أو تضره.

ونصحتها إحدى صديقتها بأن تسحر له.. وتربطه بها إلى الأبد.. وعرفتها على «أبونا» الذى كشف لها بعض المستور.. وأقنعها بأنه قادر على النفع والضرر.. وطلب منها أن تحصل على بعض ما يخرج من جسده بعد أن يلتقيا.. وحملته صديقتها إليه.. ولكن ما جرى أن صديقتها دفعت للمشعوذ أكثر ليبتعد

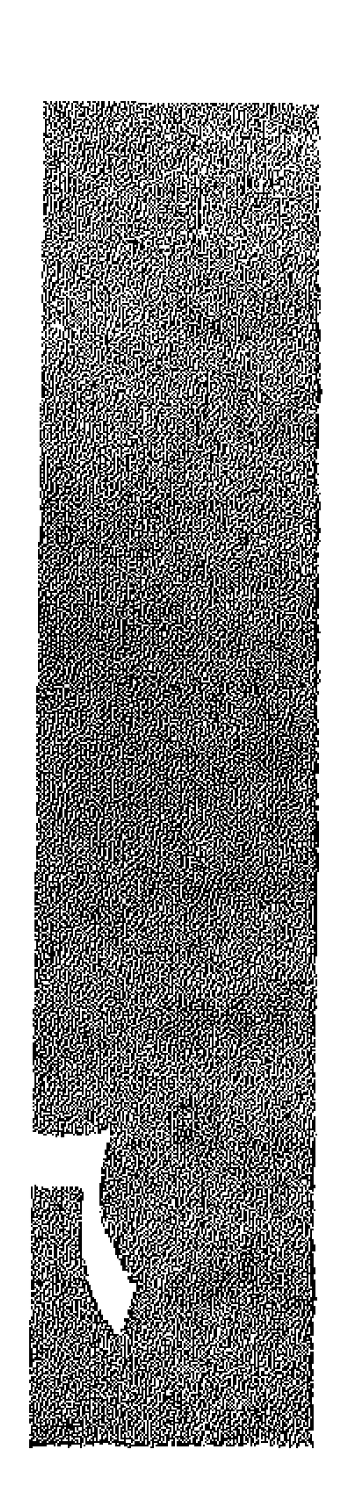
عن صديقتها ويقترب منها فالصيد ثمين.. والتضحية لابد أن تجنى من ورائها أكثر مما تدفع.

وعرفت بما فعلته صديقتها.. وفى الوقت نفسه اقتنعت أنها بما فعلته مع الدجال هى السبب فى أنه هجرها.. لكنها لم تفهم.. لماذا لم يقترب من صديقتها إذا كان سحرها قد أثمر.. وأفلح.. ويقال أن صديقتها أخذت المشعوذ معها إلى المغرب ليستشيروا الأكثر خبرة فى هذه الأعمال.. وأن ما فعلوه ألقوه فى البحر لتدفعه الأمواج إلى الإسكندرية.. فيبتعد عنها مع كل موجة.. وليقترب من صديقتها مع نفس الموجة.. وهو ما أصابها بالجنون.. فراحت للرجل ومعها مليون جنيه ليفك ما فعله فى المغرب.. ويدمر صديقتها.. ويفك عقدتها.. ويعيدها إليه.. وفى مارينا كانت هناك عملية سرية على شاطئ البحر.. فى انتظار.. العمل القادم مع الأمواج من المغرب.. للقضاء عليه.

وبينما هى تنتظر «العمل» كان الوجه الآخر للقصة فى باريس هو وزوجته وأولاده الكبار وأحفاده الصغار يعيد صورته العائلية إلى مكانها.. وقد أقسم لها أنه شفى من الإدمان.. وقد صدقته.. فهو لم يندم فى حياته على شىء كما ندم على هذه العلاقة.. وكان يتمنى ألا يقع فيها.. لكن منذ متى لا يدفع الإنسان ثمن ما يتعلمه؟

أما هى فكانت غارقة فى شر أعمالها.

****



قصة حب
كتبتها الرياح

وأنا صغير كنت أتصور الموت فى صورة رومانسية.. كل الأطفال يتصورون الموت فى صورة رومانسية.. يتصورونه رشيقاً.. فارعاً.. يلبس معطفاً داكناً.. ويتجول فى حقول الريف ليجمع الأزهار.. والثمار.. والأطفال.

كنت أتخيل نفسى وأنا أتعلق بمعطفه وهو ينطلق بعربته إلى حدائق الله.. لنلعب هناك.. فالأطفال يعتقدون أن الألعاب السماوية أكثر إثارة من الألعاب البشرية.. ومثل الأطفال يتصرف الأنبياء والصوفيون والرهبان مع الموت.. فهم لا يخشونه.. ولا يشقون بحضوره.. فشرط أن تخاف الموت.. وتتمسك بالحياة هو أن تملك شيئاً.. سلطة.. شهرة.. متعة.. ثروة.. وأتذكر أننى وأنا صبى فى الثامنة من عمرى سمعت أن القيامة ستقوم بعد أيام.. فسارعت بكسر حصالتى.. وجريت لأنفق ما بها من قروش.. يجب أن تبكى على شىء فى الدنيا حتى تخاف الموت.. لذلك يبدو الموت بالنسبة للكبار مثل زجاجة مبيد حشرى.. بينما هو بالنسبة للصغار.. قطعة شيكولاتة.

وعندما كبرت.. ظللت أشعر أن الموت صديقى.. وقد تعرفت عليه بصورة شخصية عندما تركنا أبى ورحل.. ولازلت أذكر أن الموت هزنى من كتفى وأنا أشاهد فيلماً فى السينما.. وهمس فى أذنى أن أعود إلى البيت لأودع أبى.. فقمت من مكانى. ووجدت تاكسى على باب السينما.. فى وقت كان الحصول فيه على تاكسى معجزة.. ولحقت الكلمات الأخيرة لأبى.. ثم زارنى الموت مرة أخرى بعد أن أقنع أمى أن تذهب معه.. وحاولنا نحن إقناعها أن تبقى.. فابتسم الموت فى ثقة جعلتنا نسكت.. ورافقنى الموت فى رحلة إلى الإسماعيلية بعد الثغرة التى فتحها الإسرائيليون فى حرب أكتوبر.. ونمنا فى خنادق المقاومة الشعبية.. ومعنا أسلحة من جذوع الأشجار.. ورأينا الموت فى الانفجارات من حولنا.. لكنه ابتسم.. ورحل وهو يضع كشفاً من الأسماء فى جيبه.. ورافقنى الموت فى رحلة إلى القرن الأفريقى أيام الحرب بين أثيوبيا والصومال.. لكننى اعتذرت له عندما عدت إلى القاهرة.. ووجدته يراقبنى فى كثير من معاركى الصحفية.. مرة متنكراً فى صورة إرهابى.. ومرة متنكراً فى صورة بلطجى.. وعندما كنت أجرى جراحة خطيرة وجدته يطرق باب حجرتى فى المستشفى ولكننى لم أفتح له.. فترك بطاقته الشخصية.. وذهب.

وقد كنت أومن دائماً أن الموت لا يهزمه سوى الكتّاب.. فهم الوحيدون الذين يخافهم الموت ويحسب حسابهم.. فطه حسين وعباس العقاد وعبد الرحمن

الشرقاوى وأحمد بهاء الدين وصلاح عبد الصبور وصلاح چاهين وصلاح حافظ زارهم الموت ولكنه لم يستطع أن يصرعهم بالضربة القاضية.. فأعمالهم لاتزال حتى الآن واقفة فى حلبة الملاكمة ترد ضربات الموت.. والمباراة لم تنته بعد.

إننى عندما أكتب أشعر بالقوة والمناعة.. فالكتابة هى شهادة تأمين ضد الموت.. ومادمت قادراً على الكتابة فإن الموت لا يقترب منى. لأنه لا يحب رائحة الحبر والورق.. وسيمفونية المطابع.

لكننى فى نهاية صيف ٩٨ وأنا عائد إلى القاهرة لم أكن أكتب وإنما كنت أقود سيارتى.. لذلك كاد الموت يقنعنى بالذهاب معه فى حادث مفزع.. فقد راحت سيارة نقل مجنونة تطاردنى حتى صدمتنى وكادت تركب على ظهر سيارتى.. ولكن الموت وافق على أن يتركنى بمجرد أن قلت له: أن هذه الطريقة فى إنهاء الحياة لا تناسبنى.. وعرفت وقتها أن الموت يمكن أن يكون شهماً وفارساً ونبيلاً.

لذلك لم أتردد فى أن أوافق على عرض الأفلام التى تصور الموت وهو يحب نساء الأرض ويمارس معهن الجنس.. إننى عضو اللجنة العليا التى لها الكلمة الأخيرة فى قرارات الرقابة على الأفلام.. وقد عرض علينا مدير الرقابة على أبو شادى فيلمين أمريكيين يصوران الموت وقد تحول إلى كائن بشرى.. الفيلم الأول اسمه «مدينة الملائكة».. وفيه نرى الموت وهو يقع فى غرام طبيبة فى مستشفى وظيفتها مواجهة الموت.. وهى تقنعه بالحياة.. وتعلمه الحب.. وفى تحوله إلى صورته البشرية.. يشعر بالألم.. والدم.. واللذة.. والحزن.. ولكنه سعيد بكل هذه المشاعر والأحاسيس المختلفة.. فالبشر أثرياء بالمشاعر.. أما الملائكة فهم كائنات لا تعرف الاختيار.. ولا تحمل عبء أمانة العقل.. وهو العبء الذى رفضت أن تحمله الجبال والسماوات والأرض وأبين أن يحملنها.. وحملها الإنسان.. ولكن الموت بعد أن يجرب الحب والحياة مع من يحب.. تموت حبيبته فى حادث سيارة.. يخطف الموت الحالى من الموت السابق أعز ما فى الحياة.. يجرب الموت معنى الموت.. فيقفز فى البحر ليموت هو الآخر.. ليلحق بمن يحب.. فالموت رحمة أحياناً.

أما الفيلم الثانى فاسمه «قابل جو بلاك».. وجو بلاك هو الاسم الذى اختاره الموت لنفسه عندما تجسد لرجل أعمال على وشك الاحتفال بعيد ميلاده الخامس والستين.. ويعطيه مهلة أسبوعاً ليرتب أحواله وأعماله.. ويرافقه الموت فى صورة شاب كان قد قابل ابنته بالصدفة فى كافيتريا ثم صدمته سيارة ومات بعد

دقائق من الوداع.. ويقع چو بلاك فى حب ابنة الرجل وهى أيضاً طبيبة.. وتعلمه دون أن تعرف حقيقته فنون الحياة والحب وهى تعتقد أنه رجل خام لم يسبق له التعامل مع امرأة.. وهو ما أسعدها كثيراً.. أن تفض بكارة رجل يعرف الجنس لأول مرة.. وفى الموعد المحدد وبعد أن يحتفل رجل الأعمال بعيد ميلاده يذهب مع الموت.. ولكن سرعان ما نجد الموت يعود بمفرده إلى الحياة.. ليبقى مع من يحب.. فقد جرب الضعف والقوة.. اللذة والمتعة.. ويصعب أن يعود لوظيفته الأولى.. قبض أرواح البشر.

ويتألم الأحياء من الموت.. ربما أكثر من الذين يأخذهم الموت معه.. فهم يفقدون شخصاً أو شيئاً يملكونه.. وإحساس الفقد.. أو الفقدان.. أو الضياع هو أسوأ ما فى الموت.. وهو إحساس بشرى يرتبط بالطمع.. وبالملكية.. ولو تحرر الإنسان من إحساس الملكية فإنه لن يخشى أى شىء.. لن يخشى أى قوة.. ولو كانت قوة الموت.. لذلك.. لا يخاف الصغار مواجهة الموت.

وعلى الطرق الصحراوية يركب الموت مع الصغار الذين يقودون سيارات قوية منحها لهم آباؤهم.. وتجرى مباراة سرعة بين الموت وبينهم.. فى تحدٍ.. لا يتراجع عنه الصغار.. حتى لو كسب الموت السباق.. وحصد أرواحهم.

كنت فى مارينا.. فى منطقة السوق المزدحمة.. عندما راح رجل الأعمال الثرى يحذر ابنه الطالب فى المرحلة الثانوية من القيادة المتهورة لسيارته المرسيدس «الأسبور» وهو فى طريقه إلى العجمى ليلاً للسهر هناك.. قال الأب:

ـ السيارة جميلة فحافظ عليها.

فرد الابن فى سخرية:

ـ لا تخف.. السيارة ستبقى.. لكن هل سأبقى أنا؟

وبينما كنا نسهر فى «السيجال» جاء خبر وفاة الابن هو وسيارته عند مدخل العجمى.. وجرى الأب بكل ما يملك من ثروة وقوة لينقذ ابنه الوحيد.. وحملوه إلى المستشفى.. ثم نقلوه فى طائرة رجل أعمال خاصة إلى سويسرا.. لكن كان الشاب يخطط لرحلة الموت بسلوكه وكلامه.. ولم يشأ أن يخبر أحدا بسره.. كان يخاف أن يحرج أهله وأصحابه إذا أخبرهم عن نيته بالرحيل.. فعاد إلى القاهرة فى تابوت بارد.. مبطن بألواح الرصاص.

وقد ذكرني موت هذا الشاب بموت توفيق ابن نزار قباني.. مات هو الآخر في حادث سيارة.. وساعتها تساءل أبوه: هل الموت رجل أم امرأة؟.. واستطرد:

ـ لم أكن أناقش جنس الموت من قبل.. ولكن بعد أن ذهب توفيق بكل وسامته وملاحته وصورته اليوسفية تأكدت أن الموت امرأة.. ربطت خصلات شعره الأشقر بمنديلها الحريري.. وخطفته إلى بيتها قبل أن تخطفه واحدة من بنات البشر.. فياسيدتي التي تخبئين ولدي في غرفة نومك التي ستائرها غمام وشراشفها غمام ومخداتها غمام.. لا اعتراض لي على زواج توفيق منك.. فأنا أب عصري أحترم العشق.. وأقف مع العشاق في جميع معاركهم.. ولكن من حقي كأب أن أعقد ربطة عنق توفيق في ليلة عرسه.

إنني أنحني أمام رهافة ذوقك وروعة اختيارك يامن تستحمين الآن مع ولدي في مياه السحب البنفسجية وتقطفين له الفاكهة من بساتين الله.. ليس في نيتي أن أذهب إلى المحاكم وأقيم عليك الدعوى بتهمة اختطاف طالب صغير.. إنني أعرف سلفاً أن دعواي مردودة.. وأن جميع القضاة في العالم ـ إذا رأوا صورة توفيق معك ـ حكموا لك بالبراءة.. وحكموا علي بالصبر.. إنني أعرف سلفاً أنك لن تعيديه.. من ذا الذي يختطف ملكاً خرافي الملامح مثل توفيق.. ويرضى أن يعيده إلى العرش؟

وقد وجدتني أكتب هذه الكلمات المرصوصة بحروف من نور قلب أب شاعر قادر على تحويل الموت من كائن قبيح إلى كائن رائع.. يعرف كيف يختار.. كتبتها.. وقدمتها لأم فقدت ابنها هي أيضاً في الطريق الصحراوي وهو في طريقه إلى مارينا.. وكان مثل توفيق ابن نزار قباني طالباً في كلية الطب.. وقلت لها وأنا أعزيها.. الموت يخاف من الأطباء.. وقد كان ابنك الذي نعرفه منذ أن كان طفلاً ذكياً سيواجه الموت وينتصر عليه في غرف العمليات.. لذلك اختاره مبكراً قبل المواجهة.

وعندما بكت الأم بحرقة لم أعرف.. هل تبكي حالها.. أم تبكي ابنها.. أم تبكي موتا أصعب.. موت المشاعر التي لايزال أصحابها ـ وقد كانوا من أقرب وأحب الناس إليها ـ على قيد الحياة؟

ولدت في برج الأسد.. برج المجانين بالضوء.. والطموح.. والقفز إلى السماء.. لتطول الشمس.. برجها الناري الذي يحرق من يقترب منها.. حتى أصحابها..

والمنتمين إليها.. ولكنها لم تتعب فى الحصول على الضوء.. فقد كان الضوء فى بيتها قابعاً.. وإن حاصرته بعض الظلال.. كان أبوها من رجال القانون الذين أيدوا ثورة يوليو.. وسهلوا وجودها بتفسيراتهم القانونية التى كان الثوار الشبان فى حاجة إليها.. وقد قبض الثمن.

كانت أول مشكلة دستورية قابلت الثورة هى الموقف الدستورى بعد طرد الملك فاروق.. ما مصير العرش من بعده.. فالدستور الذى وضع فى ظل الملكية كان ينظم وراثة العرش بعد وفاة الملك.. لكنه لم ينظم وراثة العرش بعد خلع وطرد الملك.. فقد كان من الصعب أن تذكر كلمات مثل الخلع والطرد فى الدستور.. وقد حمل فاروق ولى عهده.. الذى تنازل له عن العرش - وكان رضيعاً - معه إلى منفاه فى إيطاليا.. وأصبحت مصر بلا حاكم ولو بصورة اسمية.. واختلف فقهاء القانون.. هل تعنى الثورة انهيار كل ما عداها من قوانين ودساتير.. أم أن القوانين والدساتير تبقى وتظل سارية.. وقد فهم أبوها اللعبة مبكراً.. فتحمس لإلغاء القوانين والدساتير التى سبقت الثورة.. ووقف ضد رجل قال: لا.. وهو يسبح ضد التيار.. وأصر على احترام القانون والدستور هو الدكتور وحيد رأفت.

واندفع الأب فى تياره.. ولم يتعلم مما جرى لأستاذه الدكتور عبد الرازق السنهورى الذى شجع الثورة على ضرب حزب الوفد.. ثم شجعها على إلغاء الأحزاب.. ثم وجد الثورة تحرض عليه عمال الترام الذين هاجموا مجلس الدولة الذى كان يرأسه.. وضربوه بالطوب والحجارة.. وأهانوه فى مكتبه.. وانسحب بعدها.. وبقى فى بيته وحيداً حتى مات.

لم يتعلم الأب الدرس من أهم مرجعية فى القانون الدستورى حتى الآن.. وكان أول ترزى قوانين عرفته مصر بعد عام ١٩٥٢ .. وكان أن أصبح من المقربين من جمال عبد الناصر.. وأصبح واحداً من مستشاريه.. ثم أصبح وزيراً فى حكومته.. وهى تتذكر أنها عندما كانت طفلة صغيرة كانت تلعب مع أبناء الرئيس.. وأبناء الكبار.. والوزراء.. وكثيراً ما رفعها جمال عبد الناصر من على الأرض إلى السماء.. وكثيراً ما وضعها على رجله وهو يقدم إليها الحلوى والبالونات الملونة.

كان أبوها جزءاً من السلطة.. عندما كانت السلطة سلطة.. لا يشاركها فى الحكم رجال أعمال.. ولا يلتف حولها عملاء لقوى خارجية.. يحاولون اختراقها..

وقد ظل وزيراً فى أكثر من حكومة.. وكانت موهبته الحقيقية هى قدرته على قراءة أفكار الرئيس بسرعة مذهلة.. وتحويلها إلى قوانين.. ولكن.. للإنصاف.. كان يؤمن بما جاء به جمال عبد الناصر.. وكان يصر على أن مصر تحتاج إلى دكتاتور عادل.. فهى دولة مركزية.. متجانسة.. يختلف الناس فيها مع الحكومة ويلعنونها.. ويلعنون أجدادها.. لكنهم لا يستغنون عنها.. والحكومة يجب أن تكون قوية ولكن دون بطش.. ويجب أن تكون مسيطرة على المشاريع الحيوية.. ولكن دون فساد.. وكان يؤمن حتى آخر يوم من عمره.. أن محمد على.. وجمال عبد الناصر هما أفضل حكام مصر منذ عصر الفراعنة.

على أنه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام المشير عبد الحكيم عامر.. لقد كان يعتقد أن جمال عبد الناصر هو الأقوى.. والمسيطر.. وصاحب الكلمة العليا فى كافة مؤسسات الدولة.. ولكنه بعد فوات الأوان اكتشف العكس.. اكتشف أن عبد الحكيم عامر ـ الذى كان يتصرف مثل عمدة أو شيخ بلد ـ قد صنع لنفسه إمبراطورية من البشر زرعهم فى كل مكان.. وكان يغدق عليهم ما لا يقدر عليه سواه.. وفى يوم استدعاه المشير.. وطلب أن يراه فى بيته فذهب إليه.. وبصراحة متناهية.. دخل المشير فى الموضوع مباشرة.. وطلب منه أن يخبره أولا بأول ما يكلفه به الرئيس من مهام وأفكار.. وفى المقابل عرض عليه أن يكون نائباً لرئيس الوزراء فى أقرب تعديل وزارى قادم.. وكان أن سكت الرجل تأدباً.. وجرى على الرئيس ليخبره بما سمع.. وهز الرئيس رأسه أكثر من مرة.. وكعادته فى إنهاء المقابلة سأله عن الأولاد.. وبالذات سأله عن ابنته الوحيدة التى نتحدث عنها.. وفى أول تعديل وزارى وجد نفسه فى بيته.. خرج من الوزارة.. وأصبح وزيرا سابقاً.. أو من أصحاب السوابق.

لم يكن مثل أى وزير سابق.. فقد خرج من الوزارة بتحريض من الرجل القوى الذى غضب عليه.. وغضب هذا النوع من الرجال المدللين بالسلطة لا يختلف كثيراً عن غضب الأطفال المدللين بلا مبرر.. غضب فيه حماقة وشماتة وسخافة.. غضب بلا ذاكرة.. ينسى كل الحسنات.. ولا يتذكر سوى كلمة «لا» التى سمعها.. والحقيقة أنه لم يكن فى حاجة إلى غضب عليه من أى نوع.. فالمصريون لا يترددون بعمل الواجب واللازم تجاه أى شخص تعطيه السلطة قفاها.. فهم يتطوعون بما هو غير مطلوب منهم.. يتطوعون بكافة خدمات البطش والتجاهل والإيذاء.. هم يسبقون السلطة ويزايدون عليها.. وليست نكتة تلك التى قيلت عن مدرس اللغة الإنجليزية الذى طلبته ابنة أحد رؤساء

مصر لمساعدتها فى دروس خصوصية.. فقبضوا عليه.. وألقوا به فى السجن.. ولعل هذا هو السبب فى «فرعنة» السلطة فى مصر.. فنحن نتعامل مع من فى السلطة على أنهم آلهة من «عجوة».. نعبدهم.. ونقدسهم.. ونقدم إليهم القرابين.. ونتحمل منهم الكرابيج.. لكن.. ما أن يسقطوا.. أو يتركوا السلطة حتى نأكلهم..

وقد سحبوا منه كشك الحراسة.. والسيارة الرسمية.. والتليفون الإضافى.. وحرموه من كافة اللجان.. ومنعوه من التدريس فى الجامعة.. ولم يعد يتحدث فى الراديو.. ولم تعد صوره وأفكاره تنشر فى الصحف.. ولم يعد يُدعى إلى السهرات والمناسبات الاجتماعية.. ورفض الحلاق أن يأتى له فى البيت.. وبدأ البواب يتجاهله.. وزادت أعباء المعيشة.. فكثير مما كان يأتى له مجاناً لم يعد يأتى.. الخضروات والفاكهة من وزارة الزراعة.. السلع التموينية من وزارة التموين.. البدل والقمصان من شركة غزل المحلة.. إن المسئولين فى مصر يحصلون على كل ذلك مجاناً بحكم مواقعهم.. وقد اضطر أن يترك الفيللا الفاخرة التى ورثها عن أسرته فى طريق العروبة فى مصر الجديدة.. ويؤجرها مفروشة لإحدى شركات البترول الهولندية.. لا الأمريكية حتى لا يتهم بمساندة القوى الإمبريالية.. واستأجر شقة صغيرة ليعيش فيها هو وزوجته وابنته الوحيدة.

وأغلب الظن أننى عندما التقيت به فيما بعد.. بعد وفاة جمال عبد الناصر.. ووفاة أنور السادات سمعت منه تعبير «الاستعمار الوطنى».. أى الاستعمار الذى يخرج من هذا الوطن.. ويحتل السلطة.. ويفعل فيها وفينا ما يشاء.. وهو أصعب من الاستعمار الأجنبى.. فالاستعمار الأجنبى نقاتله ونكافحه ونفاوضه حتى يجلو ويرحل.. لكن.. لا نقدر على ذلك مع الاستعمار الوطنى.. فهو باسم الوطنية يعتقل الوطنيين.. وهو باسم العدالة الاجتماعية يلقى بالثروات فى حجر من يشاء.. وهو باسم مصلحة المواطنين يتجاهل المواطنين.. لكن.. رغم موافقتى على ما سمعت منه.. فقد قلت له:

ـ لماذا تنتقدون السلطة بعد أن تغادروها.. أو تغادركم؟.. لماذا الشجاعة بأثر رجعى؟.. لماذا لم تقولوا رأيكم فى الوقت المناسب؟

ـ عندك حق.. فقد علمناهم الشحاذة فسبقونا على الأبواب؟

وسألته:

- تقصد من؟

فقال وهو يغير الموضوع:

- إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

فقلت له بنفس اللغة:

- ومن أنفسكم سُلط عليكم.

وأمسك الرجل بالمصحف.. إشارة مهذبة كي أنصرف.. وكان المصحف فى الحقيقة هو ما كان يستمد منه الصبر والعزاء.

فى عز السلطة كانت طفولتها وصباها.. وفى غروب السلطة كانت أحلى سنوات عمرها.. وقد ظلت طوال عمرها تجمع بين النقيضين.. القوة والضعف.. الشموخ والانكسار.. الغرور والتواضع.. الكرم والحرص.. الحب والكراهية.. خفة الظل وثقل الدم.. وقد كان الأمر يتوقف دائماً على الأسلوب الذى يتعامل به معها الآخرون.. إما يخرجون أجمل ما فيها.. أو يظهرون أسوأ ما فى أعماقها.

وهى ليست صارخة الجمال.. ولا صارخة الأنوثة.. لكنها صارخة الجاذبية.. امرأة لها شخصية.. لها حضور.. لها مفردات تميزها بين الكائنات.. تلفت النظر من جميع الجهات.. كان الناس ينادونها بسيدة السيدات.. وقد اختارت فى وقت مبكر من حياتها العملية أن تتنازل عن اللقب الذى يشير إلى أبيها.. أرادت أن تكون هى بمفردها.. حتى بعد أن رحل جمال عبد الناصر.. ورُفع البطش عن أبيها.. لقد قررت أن تنسى كل ما يذكرها بالسلطة.

ولكنها أحبته وتزوجته فى زمن جمال عبد الناصر.. لفت نظرها بطموحه.. وبطوله.. وبوسامته.. وبقدرته على أن يسبق من حوله بأكثر من خطوة.. فهو يملك قرون استشعار جعلته يرى الخطوة القادمة التى سيصل إليها المجتمع قبل غيره.. فكان يسعى نحوها بخطى ثابتة.. واثقة من نفسها.. فى وقت كان فيه الآخرون يدافعون عما هم فيه دون أن يدركوا أن الواقع قد دُفن وأصبح تحت التراب.. فقد عرف مبكراً أهمية الكمبيوتر.. وأهمية جمع المعلومات.. وأهمية العلاقات.. وأهمية السياحة.. وترك وظيفته فى البنك.. وقدم طلبا للعمل

فى إحدى شركات السياحة التابعة للدولة.. أراد أن يتعلم حرفة المستقبل.. ولكنه.. وجد رئيس مجلس إدارة الشركة يستدعيه فى مكتبه.. ويسأله عن حماه الذى لم يكن يأتى بسيرته.. هل هو ذلك الوزير السابق.. ولم يقدر على الإنكار.. وفى اليوم التالى كان فى الشارع.. وروى لحماه ما جرى.. وتجمدت الدموع فى عينى الوزير المتقاعد.. وأمسك بسماعة التليفون وجرب أن يطلب جمال عبد الناصر فى رقمه السرى الذى كان يطلبه فيه زمان.. وكانت مفاجأة أن سمع صوته.. ولم يتمالك نفسه ولا دموعه وهو يروى للرئيس ما جرى لزوج ابنته.. وفى الليلة نفسها عاد زوج ابنته إلى عمله.. وعندما وجد رئيس مجلس الإدارة التوصية هذه المرة من الرئيس.. تصور أنه من المرضى عنهم.. فأرسله للعمل فى مكتب الشركة فى لندن.

وسافرت معه إلى لندن.. وهناك تعرف على تاجر سلاح مصرى.. كان يعيش فى الغربة منذ طفولته.. لم يعد مصرياً إلا بالاسم وانتماء أسرته القديم الذى تراجع مع الزمن ومع الأب الذى هرب إلى لندن خوفاً من المحاكمات التى جرت قبل الثورة لتجار الأسلحة الفاسدة.. وكان منهم.. وإن كان أصغرهم.. وهى القضية التى فجرها فى روز اليوسف إحسان عبد القدوس وكانت سبب شهرته.. وكادت أن تقضى على حياته.

تعرف على تاجر السلاح المصرى البريطانى.. ولم يكن حذراً فى علاقته به.. فقد مات جمال عبد الناصر.. وجاء أنور السادات.. وأدرك بقدرته على قراءة المستقبل أن عصراً جديداً مختلفاً قد بدأ.. بل إنه قدم استقالته من الشركة.. وأصبح موظفاً فى مكتب تاجر السلاح.. لقد كان كل منهما فى حاجة للآخر.. هو يحتاج أن يفهم أسرار مهنة يعرف أنها ستكون مصدر ثرائه.. والآخر فى حاجة إليه ليشرح له ما غاب عنه فى منطقة ملتهبة بالحروب وعلى وشك الدخول فى صراعات ساخنة.. وهى مرشحة لأن تصبح السوق الأولى لتجارة السلاح فى العالم لمدة ٢٠ سنة قادمة.. منطقة قتل من الدرجة الأولى.. لم تشبع بعد من الدم.. وباعت كل شىء ورهنت كل شىء - حتى الشمس والقمر والكحل فى العيون - من أجل الموت.

لقد دخل «الكار» مبكراً.. فى وقت كانت فيه تجارة السلاح مهنة قذرة فى عيون المصريين.. وفى وقت كان فيه عدد كبير ممن أصبحوا رجال أعمال فيما بعد يتاجرون سراً فى العملة.. أو فى تهريب البضائع المستوردة.. أو فى توزيع

المخدرات.. أو فى بيع تراخيص البضائع المدعومة.. بينما كان البعض منهم فى بلاد النفط يجمع جنيهاته الأولى.. إن قصة الرأسمالية الجديدة فى مصر قصة تستحق أن تروى.

كان هو أول من اقتحم عالم السلاح وغطى نفسه بالسياحة.. وعندما عاد هو وزوجته إلى القاهرة لتضع طفلها قبض عليه.. لقد أصرت زوجته أن تضع طفلها فى مصر.. لم تكن موضة ولادة الأطفال فى الولايات المتحدة قد بدأت وهى موضة شائعة الآن بين الفنانين والسياسيين ليولد أولادهم وأحفادهم هناك حتى يحصلوا على الجنسية الأمريكية.. أقوى جنسية فى العالم.. والذين لم يحصلوا عليها سعوا للحصول على جنسيات أخرى.. مثل الجنسية الكندية.. أو الكينية.. المهم أن يكون له جواز سفر يمنحه ـ لو قرر الهرب من مصر ـ مكاناً للإقامة فى مكان آخر.. ففى ضمير معظم رجال الأعمال فى مصر رغبة وخطة للهروب فى أى وقت.. وفى ضمير بعض محترفى السياسة الشىء نفسه.. أن يجد أبناؤهم مكاناً آخر يلجأون إليه لو حدث ما يفرض عليهم الهروب من مصر.. إنهم يكسبون ويسيطرون على هذا البلد.. ولكن عيونهم على بلاد أخرى.. وهى أحد أعراض.. «الاستعمار الوطنى».

عاد إلى القاهرة لتضع زوجته طفلها.. وفى المطار.. كانت بعض جهات الأمن فى انتظاره.. لقد كان تحت المراقبة فى لندن.. وهو أمر معروف أن تراقب الدول تجار السلاح.. وصبيانهم.. وقد كان من سوء حظه أن كل شىء كانت متوتراً بسبب بداية العد التنازلى لحرب أكتوبر.. الكل يقف على أظافره من الترقب والتوتر.. وقد انعكس ذلك على قسوة التحقيقات معه.. وبعد أن اختفى وراء الشمس ثلاثة أشهر كاملة عاد إلى الحياة بعد أن تدخل حماه عند السادات.. لقد قويت علاقتهما القديمة.. خاصة بعد أن أعلن حماه أنه يكتب مذكراته التى تكشف أن القانون فى مصر كان فى إجازة أيام جمال عبد الناصر.. وأنه يحمد الله على أنه عاش حتى رأى اليوم الذى عرفت فيه مصر سيادة القانون.. لقد كان السادات فى أشد الحاجة فى ذلك الوقت إلى مثل هذا التأييد.. ولم يكن من الصعب رد الدين والإفراج عن زوج ابنته.. ولكن بشرط أن يوضع على قوائم منع السفر.. وأن ينتظر محاكمة فى قضية أمن دولة عليا.

ولم يكن هناك ما يفعله وزوجته مشغولة بطفلها سوى أن يتسكع فى النوادى والشوارع ويسهر فى البيوت السرية لأصحابه.. حيث كل شىء مباح.. بلا قيود..

وبلا شرط.. وراح كل أسبوع يعرف امرأة جديدة.. وهو ضعيف أمام النساء.. وتستطيع أى امرأة ساذجة أن تكتشف ذلك بمجرد النظر فى وجهه.. ملامحه تكشفه.. وجسده يفضحه.. هو لا يجلس على بعضه فى وجود امرأة مثيرة.. ومع كل امرأة جديدة كان يشعر أنه يمزق كل شىء حوله.. يمزق اسمه.. ويلغى رسمه.. ويبعثر أوراق جنسيته فى الهواء.. ويلقى بصورة زوجته من الشباك.. لقد كانت الظروف دائماً تجعله فى حاجة إليها وإلى أبيها.. وهو يشعر أنه يملك من المواهب ما يجعله لا يحتاجها.. لكنه متأكد أنه هو الذى سيكسب.. ربما بعد خطوة.. ربما بعد عشر خطوات.. لكنه.. سيكسب.. سيكسب.

ولو دخلنا فى أعماقها لما وجدنا امرأة تحب رجلاً مثلما تحبه.. هى تعشقه بجنون.. ولكنها.. وقد تربت فى بيت من بيوت السلطة.. أصبحت مثلها.. تكتم عواطفها.. ولا تظهر ضعفها.. وتصر دائماً على أنها فى أحسن حال.. هى أصيبت بنفس أمراض السلطة.. لكنها.. فيما بعد.. قالت لى:

ـ إنه الرجل الوحيد الذى أراه فى الدنيا.. هو الرجل الوحيد الذى مارس علىّ سحره.. وكنت معه تزداد عيناى اتساعاً.. وتزداد حركتى رشاقة.. وتزداد تصرفاتى حماقة.. وأشعر بمتعة الخروج على القانون.. وبمتعة التمرد على السلطة التى تعيش تحت جلدى.. لقد أحببته.. وعشت حياتى وأنا أقضى عقوبة «الحب الأبدى».

لقد خلطها بالحليب والعسل والسكر والدقيق وعجنها وخبزها وحولها إلى كعكة شهية وراح يلتهمها قطعة.. قطعة.. ثم بعد أن تغيرت الدنيا.. ولم تعد بالنسبة لها دنيا.. خلطها بالقسوة والهجر والنزيف.. وعجنها وخبزها من جديد وحولها إلى كعكة من الأحزان.. لكنه تركها تأكل نفسها.. قطعة.. قطعة.

وشعرت أنه معها.. لكنه بعيد عنها.. وطاردتها أحاسيس الإهانة التى سببتها لها علاقاته التى فاحت روائحها فى سماء القاهرة.. ولم تقدر على مواجهته.. فهى تعرف أنه فى منفى وهو فى بلده.. فهو لا يقدر على العمل.. ولا يقدر على تحقيق أحلامه.. لا يقدر إلا على النساء.. إنهن نوع من المخدرات يغيب فيه عن الوعى.. هو لا يملك سوى التسكع.. والتشرد.. والتمزق.. والركض عارياً على أجساد النساء.. هو فى الغربة لم يكن يشعر أنه فى منفى.. لم يكن يشعر بالوحشة.. لم تكسر الغربة عظام أصابعه.. ولم تخفض جبينه.. مادام قادراً على العمل والمكسب والنجاح ليس عنده مشكلة.. وهو قادر فى هذه النشوة أن

يصنع الوطن الذى يختاره فى دقائق معدودة.

وفكرت فى إنقاذه.. فكرت فى إعادته إلى لندن.. وطنه المالى والعملى.. لكن.. كيف.. وهو ممنوع من السفر.. وعليه قضية.. وتنتظره محاكمة.. وهى ليست أى محاكمة.. إنها أمن دولة عليا.. واستشارت أباها.. ولم تكن بحاجة أن تكشف له عن أسبابها الحقيقية والنفسية التى دفعتها إلى تهريبه خارج البلاد.. حتى لا يموت قهراً وغضباً فى السجن.. واستسلم الأب لقرار ابنته الوحيدة.. لكنه لم يجرؤ أن يفاتح أصحابه الجدد فى السلطة الجديدة بما يريد.. فالبلد فى حالة حرب.. وحالة طوارئ.. ثم لا يمكن أن يطلب طلباً من هذه النوعية وهو الرجل الذى عاش حياته يتحدث عن القانون.. وسيادة القانون.. ولم يكن أمامه سوى اللجوء للطرق السفلية.. للطرق التحتية.. للمهربين.. لعصابات التهريب.. وراح يسأل ويفتش ويتحسس طريقه.. حتى عثر على ضالته.. لكن كان الثمن أكبر من طاقته المالية.. حوالى ١٠٠ ألف جنيه تُدفع بالدولار الذى كان يباع بأكثر من ضعف ثمنه فى السوق السوداء.. على أنه أمام دموع ابنته الوحيدة لم يجد مفراً من أن يبيع فيللته التى كان قد كتبها باسمها.

وفى ليلة السفر وجد نفسه فى ميناء الإسكندرية.. بجواز سفر جديد.. واسم جديد.. ومهنة جديدة.. ومن شخص إلى شخص.. كان هناك من يعرف ما يجرى.. يعرف الحقيقة.. وركب السفينة المتجهة إلى ميناء «بيريه» فى اليونان.. وهو يقسم لبعض أصحابه أنه لم يدخل كابينته.. فبعد دقائق كان يعرف امرأة يونانية شابة.. وقد دخل كابينتها.. ولم يخرج إلا والسفينة ترسو فى اليونان.

لم يمكث فى اليونان سوى ساعات.. فقد سافر فى نفس اليوم إلى لندن.. عاد إلى صديقه.. تاجر السلاح.. وراح يتعلم منه أصول المهنة.. وقواعدها الصارمة.. إنها مافيا أنيقة تتشكل من ألوف الدوائر حول خصر الكرة الأرضية.. تتاجر فى الموت.. فلا يهمها أن يموت من يخرج عن كتبها المقدسة.. وهم يرفعون شعار «الله يغفر الأخطاء الكبيرة والصغيرة.. نحن لا».. وفى هذه المافيا حكام ووزراء وجنرالات.. وأصحاب فضيلة.. وأصحاب رذيلة.. والكبار منهم تفتح لهم قصور السلطة فى العالم كله ليستقبلوا استقبال الملوك.. فهم كما قال أحدهم فى مذكراته: يحملون تصريحاً خاصاً بالتجول بين ملايين النجوم.. وهم يحددون لكل وافد جديد عليهم الحد المسموح من الطموح والأحلام.. من حقهم أن يحاسبوه على أحلامه.. لا أحد يحاسب الصحراء على أن تحلم بالماء.. ولا

أحد يحاسب الفقراء على أن يحلموا بالثراء.. لكن هناك من يحاسب تجار السلاح على أحلامهم.. الكبار هم الذين يحددون هذه الأحلام.. فدخول مغارة على بابا.. والغرق فى خزائن البنوك يحتاج ضبطا شديدا للجهاز العصبى.. حتى لا يكون الطمع.. ثم الموت.

وقد فهم قوانين الحرفة واللعبة من أول لحظة.. كان يمشى على حد السيف ولا ينحرف.. أو كان يمشى على العجين ولا يلخبطه.. وتعلم الجرأة.. والتحكم فى صفقاته.. لكنه لم يتعلم التحكم فى نزواته.. بل زادت هذه النزوات.. فقد كان عليه فى كل ليلة أن يخلع تماسكه وأقنعته وتحكمه فى لسانه ويخلع ملابسه أيضاً.. أن يصرخ عارياً بكل اللهجات فى وجود الهيروين الذى أدمنه.. النساء.

سنوات طوال قضاها فى الغربة.. تجمعت الثروة نقطة.. نقطة مثل مياه المطر فى الصحراء.. ثم انهمرت الثروة كالأمطار الاستوائية.. وتحققت النبوءة وأصبح الشرق الأوسط أكبر منطقة لاستهلاك السلاح بعد الجنون الذى أصاب أسعار البترول فى أعقاب حرب أكتوبر.. ورغبة الغرب فى امتصاص عائدات النفط.. لقد اشترت المنطقة بسذاجة كل المخزون القديم.. غير المتطور من السلاح.. ودفعت فى العشر سنوات التالية لحرب أكتوبر حوالى ٣٠٠٠ مليار دولار.. وفيما بعد تضاعف الرقم.. وقد كان الأمراء والوزراء يوقعون على أوراق لا تنتهى مقابل عمولات لا تنتهى.

طوال هذه السنوات كانت تسافر له شهراً كل عام وكان معها ابنها.. وكان يتفرغ لها.. فلا عمل.. ولا نساء.. ولا سحب جديدة من الثروة تمطر مالاً.. وفى إحدى هذه المرات جاءت تحمل له مفاجأة.. الحكم بالبراءة فى القضية التى دفعته للهروب من مصر.. هو الآن حر يستطيع أن يعود إلى وطنه.. لكن.. وطنه لم يكن الوطن الذى وُلد فيه.. أو بقى فيه ابنه وزوجته.. وإنما هو الذى يكسب منه.. وطنه بريطانيا.. وليس مصر.. وربما أصبح وطنه فى يوم من الأيام.. السعودية.. أو ماليزيا.. أو جنوب أفريقيا.. المهم أن يكسب منه.. فالمال لا وطن ولا دين ولا لغة ولا جنسية له.. وأذكر أنه قال لى ذات مرة وكنا نسهر فى مارينا فى بيت محمد فريد خميس وسط صخب عمرو دياب:

– رجال الأعمال هم الحكومة العالمية التى تسيطر على العالم.

فقلت له ساخراً:

- لكنكم لا تكفون عن نفاق الحكومة فى مصر وكأنكم موظفون عندها.. فكيف تنافق حكومة عالمية حكومة محلية؟

فقال وهو يدخن سيجاره الكوبى «كوهييه» الذى لا يفارقه:

- مصر دولة فرعونية.. الحكومة فيها ظل الله على الأرض.. سواء كانت هذه الحكومة رأسمالية.. أو اشتراكية.. فاشية.. أو ليبرالية.. شريفة.. أو فاسدة.. ونحن ننافقها.. لأنها لا تتصور قوة أخرى فى المجتمع غيرها.. تتصور أنها قادرة على أن تعز من تشاء.. وتذل من تشاء.. ولكنها فى الحقيقة مثل الأتراك المتغطرسين الذين يقول الواحد منهم.. «حسنة وأنا سيدك».. بل وتضيف الحكومة عليه: «وتاج رأسك».

لم يفكر فى العودة إلى مصر.. وإنما فكر فى طلاق زوجته.. وهو لا يعرف سبباً مباشراً لهذا القرار.. لكنه.. لم يسارع باتخاذه.. بل إنه لم يتردد فى استغلال زوجته فى نقل كل الأخبار عن معارضى السادات فى لندن.. لقد أراد ألا يقطع جذوره مع الدولة فى مصر.. وقد كانت لندن وباريس هما مركز المعارضة.. ويعيش فيها نجوم لامعة من الكتاب والصحفيين الذين اختلفوا مع السادات وهاجموه بضراوة.. مثل محمود السعدنى.. والفريد فرج.. وميشيل كامل.. وأحمد عبد المعطى حجازى.. وأنور عبد الملك.. وأحمد عباس صالح.. أما محمد حسنين هيكل فقد أصر على البقاء فى مصر.. وكان يرى أن الكاتب مثل الشجرة.. لو خلعتها من تربتها وجذورها أصبحت لوحاً من الخشب.. ثم إن خروج المعارض من وطنه يضعه تحت أضراس أجهزة الأمن فى البلد الذى سيلجأ إليه.. يستقبله مسئول كبير فى البداية.. ثم يسلمه إلى مسئول أصغر.. فأصغر.. حتى يصبح فى عهدة «صول».. وربما رتبة أقل.

واستدعوه فى القاهرة.. أو بدقة أكثر طلبوا أن يعرفوه.. ويناقشوه عن قرب.. وجهاً لوجه.. وهذه المرة هو ليس متهماً.. بل مرشد.. وربما صديق.. وإن كان يعلم جيداً أنه لا أصدقاء للسلطة.. ولا شكر منها.. إلا باللسان.. لكنه لم يستجب.. إنه رجل أعمال يقدم خدماته للسلطة.. ولا يريد أن يعامل معاملة المرشد الصغير.. هو يقدم السبت والأحد والاثنين لعله يجد عندها الثلاثاء.

لم يعد إلى مصر إلا بعد أن قتل السادات بعدة سنوات.. وتأكد من التقارير الدولية التى كانت تصل إليه عبر شبكات تجارة السلاح أن مصر مجبرة على

التحول إلى اقتصاد السوق.. وجاء إلى القاهرة وكيلاً لشركات كثيرة.. بعضها للسلاح.. والبعض الآخر للأطعمة المحفوظة.. شركات تقتل.. وشركات تطعم.. والبقاء لمن يحقق له الربح الوفير.

وفى شهور قليلة أصبح من النجوم اللامعة فى السوق.. وفى المجتمع.. وفى المؤتمرات الاقتصادية.. وفى خلال هذه الشهور انفصل عن زوجته.. وعاش بمفرده.. وعاد يفكر فى قرار الطلاق الذى لا يعرف له سببا.. وهذه المرة قرر تنفيذه.. وأرسل ورقة الطلاق على يد محضر.. ولم يقدر على المواجهة.. واستلمها الأب.. وأتصور أنه تحسر على قوته السياسية التى فقدها فى حياة جمال عبد الناصر.. وبعد موت أنور السادات.. وأتصور أنه تحسر أيضاً على غياب الوفاء حتى لدى أقرب الناس.. وتحسر كذلك على ضياع هيبة كل شىء أمام سطوة وقسوة وجبروت المال.. وقد رفض أن يكون طرفاً فى الحوار بين ابنته.. وزوجها السابق.. لقد كان حواراً بالورقة والقلم.. راح فيه تاجر السلاح الشاطر يقتل المرأة التى ذابت فى هواه بسكين بارد.. راح يحسب لها كل ما أنفقته عليه.. مع فروق الأسعار.. والفوائد والأرباح.. وراح يحسب لها نفقة المتعة.. ونفقات ابنه منذ أن وُلد.. ولم تحتمل أن تتحول المشاعر إلى حسابات.. وسقطت من طولها مغشياً عليها.. وعندما أفاقت وجدت نفسها فى المستشفى والأطباء يحذرونها من أمراض السكر والقلب وضغط الدم.. لكنهم لم يحدثوها عن أمراض قهر القلب.. قلبها الذى عرفت فى ذلك الوقت أنه أصبح مثل المخطوطات القديمة.

ولابد هنا أن تظهر امرأة جديدة.. ليس هذا فقط ما تفرضه ضرورات الدراما الأدبية.. وإنما هى أيضاً ضرورات الحياة التى اختارها رجل مثله.. يملك المال.. وما هو أكثر من المال.. ويعشق النساء.. وهى كذلك ضرورات مجتمع قرر أن يفتح نفسه عن آخرها.. ويبيع ويشترى كل شىء بالمال.

وقد كان يخطط أن يتعامل مع النساء على طريقته.. كل يوم امرأة لا يحبها.. ربما يدفع لها بطريقة سافرة.. أو بطريقة مهذبة.. يغير سيارتها.. يغير شقتها.. يغير ثيابها.. يدعوها لرحلة إلى خارج البلاد.. وقد نجحت سياسته كثيراً.. ليس فى كل مرة تسلم الجرة من الكسر.. فقد سقط فى المرة التى انكسرت فيها جرته فى حجر امرأة تعرف كيف تصل إلى ما تريده.. هى كانت تريده هو.. بنفسه.. وبكيانه.. وبممتلكاته.

هى رشيقة.. فارعة الطول.. عنيدة.. عواطفها ومشاعرها تقدر على توجيهها

فى الوقت المناسب.. للشخص المناسب.. مطلقة.. تركت أولادها لزوجها بعد أن فشل فى أن يحقق لها ما تريد.. وهى تعرف أن الرجل يسعده أن تطارده المرأة فى كل مكان حتى ينتفخ بالغرور.. فيطير كالبالون فى الهواء دون أن يدرك أن المرأة تمسك بالخيط المربوط فيه البالون.. طاردته فى كل مكان.. حتى أصبحت جزءا من عاداته.. والرجل ضعيف أمام المرأة التى تعوده على الأشياء.. الرجل أسير العادات.. هى فهمت ذلك.. فراحت تعوده عليها.. على عطرها.. وأنفاسها.. ولون شعرها.. وصهيل جسدها.. وألوان ملاءات فراشها.. وقهوة الصباح.. وطعام الغداء.. والسهر أمام الفيديو.. لقد احتلته بوصة.. بوصة.. وخلية.. خلية.. حتى حولته من رجل إلى زوج.. ولم تعد فى حاجة إلا لورقة رسمية.. شرعية.. وحصلت عليها.

وعرفت زوجته الأولى الخبر.. فراحت تتخبط مثل سيارة فقدت فراملها فى شوارع القاهرة المزدحمة.. إنها لاتزال تحبه.. ولكنها لا تقدر على أن تقاتل من أجل هذا الحب.. طبيعتها لا تقبل أن تهين نفسها.. وهى تعتقد أنها يكفى أن تحب وأن تخلص لمن تحب وتمنحه كل ما لديها فى القلب وفى اليد.. ولكن هذا القانون غاب مع غياب الزمن الجميل.. تبخر معه.. أصبح تراثاً.. وهى الآن تدفع الثمن.. هناك دائماً ثمن لكل شىء.. ثمن للحب الذى نعيشه.. وثمن للحب الذى نعيش بعيداً عنه.. هى الآن تعيش فى أحزان لا ضفاف لها.. وتتلقى شاحبة الطعنات فى أنوثتها.. وهى طعنات تشعر أنها قادمة من الجهات الأربع.. وكانت أشد الطعنات فى القلب الذى عرف الجلطة.. لم تكن جلطة دموية.. كانت جلطة عاطفية.

وفى غرفة العناية المركزة.. راحت تتأمل ما هى فيه.. كانت غارقة فى الخراطيم.. وشاشات صغيرة تتحرك عليها خطوط وذبذبات ترسم مصير حياتها.. لكنها لم تكن فى حاجة إلى هذه الأجهزة لتعرف أنها امرأة كتبت حياتها فوق الماء.. ورسمتها على الرياح.. ووقعت عليها فوق رمال الصحراء.. ليس فى حياتها ما تمسكه.. وما تتمسك به سوى ابنها.. لكنه بدأ يكبر.. وبدأ يتحول ناحية أبيه.. وهى لن تقدر على الدخول فى منافسة.. كيف تنافس الملايين التى يملكها الأب؟.. كيف تنافس سخاءه الذى يغمر به ابنه؟.. هى تعرف أنها ستخسر بعد سنوات ابنها.. سيأخذه ثراء الأب.. سيشعر أنه ثراؤه.. وسيتحول عنها.. وسيبرر للأب ما فعل.. وسيلومها فى النهاية.. وابتلعت قرصاً مهدئاً.. وراحت فى غيبوبة.

وخرجت من المستشفى لتدخله من جديد.. فقد مات الأب.. ورغم أن الصحف نعته فى مقالات مطولة.. ورغم أن الدولة نعته رسمياً.. فإنها شعرت أنها أصبحت وحيدة.. وشعرت ببرودة شديدة تلفها.. ونصحها الأطباء أن تترك القاهرة وتسافر إلى بيتها - الذى تركه الأب - فى قرية سيدى كرير.. لكن ابنها أصر على أن يسافر إلى مارينا.. فهناك أصحابه وطبقته الجديدة التى ينتمى إليها بحكم أنه ابن فلان الفلانى.. وليس بحكم أنه حفيد فلان الفلانى.

كان الابن قد انتهى من توصيل أحد أصدقائه فى فندق «عايدة» قبل مارينا بحوالى ٢٠ كيلومتراً عندما أصر أن يعود بسيارته بظهرها توفيراً للف والدوران.. بينما كانت هناك سيارة نقل متهالكة بلا أنوار تأتى فى الطريق الرئيسى.. ولأن الموت كان يقودها.. فقد جاءت بلا صوت يسمعه.. وفى ثوان ركبت السيارة الكبيرة على صدر وأنفاس الشاب الصغير.. وعندما نقلوه إلى المركز الطبى فى مارينا.. كان الطبيب الوحيد الموجود هو طبيب شاب لا يفهم سوى فى الأنف والأذن والحنجرة.. وقبل أن ينقلوه إلى الإسكندرية.. مـــات.

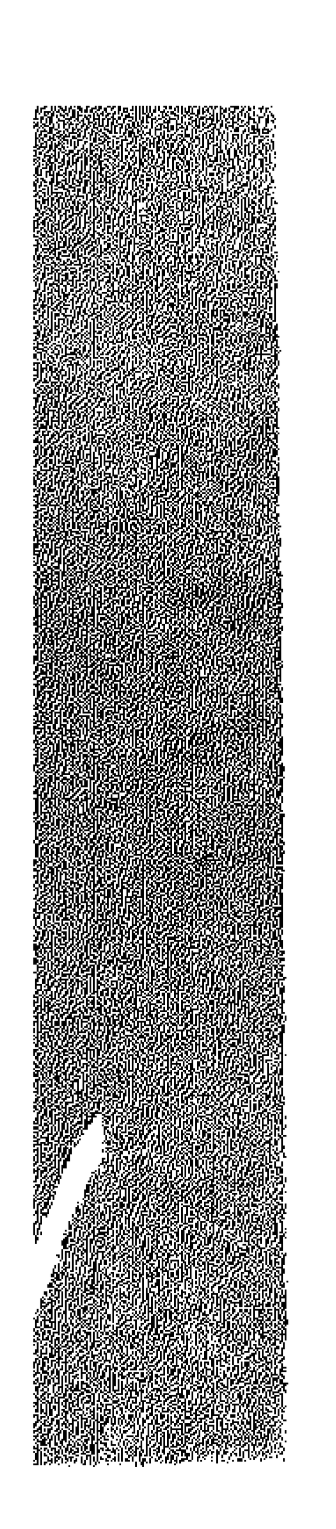
وحاولنا المستحيل للتخفيف عن الأم.. لكنها كانت فى عالم آخر.. عالم ما بين الموت والحياة.. عالم شفاف يرى ما لا نراه.. ويسمع ما لا نسمعه.. وينتظر دوره فى الصعود من الأرض إلى السماء.

فى شهر واحد فقدت الأب.. والابن.. ثم.. فقدناها.

وعندما عرف بالخبر.. كان فى اجتماع مع المسئولين فى أحد البنوك.. يفاوضهم فى تمويل مشروع جديد.. وقد توقف قليلاً.. ثم سحب نفساً من سيجاره.. وقال:

- أنا لا أوافق على هذا السعر المرتفع لفائدة القرض.. ما رأيكم أن يدخل البنك شريكاً معى فى المشروع.. ألسنا فى زمن المشاركة؟

****



جسد تمارس فيه الطقوس الوثنية

أنت فى العشرين تستطيع أن تحب.. وأنت فى الخمسين تستطيع أن تحب.. وأنت فى الثمانين تستطيع أن تحب.. هناك دائماً مناسبة للاشتعال.. فرصة للزلزال.. رغبة فى تزاوج المعقول واللامعقول.. فى أن يختلط الأمر على الإنسان.. فلا يعرف هل هو قاتل أم مقتول.. فى أن تتداخل فى حياته الفصول.. فيشعر بالدفء فى يناير.. ويرتعش من الوحشة فى أغسطس.. وتتفتح فى عينيه الحياة حتى ولو كان فى خريف نوفمبر.

الحب هو الجنون الوحيد الذى يجعلنا نحافظ على عقولنا.. ولكن الجنون فى عيون الآخرين جنون.. مهما كان مريحاً لأصحابه.. فالمجنون لا يعرف أنه مجنون.. ولا العاشق يعرف أنه مجنون.. العقلاء وضباط المباحث والذين جفت قلوبهم هم الذين يعرفون ذلك.

ولكن.. الحب فوق الخمسين.. يضعنا غالباً فى مفترق طرق.. السلامة.. أو الندامة.. أن نحلق مثل حمامة.. أو نرى يوم القيامة.. فنحن فى الخمسين نملك أشياء حصدناها وجمعناها وصنعناها.. قد تكون الثمن الذى علينا أن ندفعه لنحصل على الحب.. الثروة.. الشهرة.. القوة.. الأسرة.. الخبرة.. السمعة.. ربما كلها.. فهل يساوى الحب كل هذه التضحية؟.. هل تساوى العلاقة هذه الحماقة؟.. هل تساوى القشعريرة والفرصة الأخيرة.. واللحظات الجميلة.. التضحية الخطيرة.. الكبيرة؟

هى امرأة شجاعة.. اختارت الحب فى الخمسين.. وألقت وراء ظهرها بكل الألوان والموسيقى التى جمعتها فى حياتها.. الشهرة.. الثروة.. صورها على أغلفة المجلات وأفيشات الشوارع العريضة.. البارزة.. تركت كل شىء وراءها.. وتبعت الرجل الذى أحبته.. وهو عكسها تماماً.. هى الضوء وهو الظل.. هى الشهرة وهو الأبواب الخلفية.. هى النجومية وهو العتمة.. هى الحضور وهو الانصراف.. هى بوابة من بوابات المجد وهو باب من أبواب المطبخ.. هى الناس اللى فوق وهو الناس اللى فى الجنب... ولكن.. هى فوق الخمسين وهو تحت الأربعين.. هى القلق وهو الهدوء.. هى التوتر وهو السكينة.. هى الغضب وهو الحلم.. هى الرغبة وهو المتعة.. فمن يكسب.. ومن يخسر.. ومن يقدر حتى على التفكير فى إجابة؟

لم يكن أول رجل فى حياتها.. لكنها قررت أن يكون الأخير.. وربما ليست هناك فرصة لأن يكون قبل الأخير.. كل الرجال الذين عرفتهم فى حياتها كانوا من طراز مختلف عنه تماماً.. كانوا مشاهير.. ونجوما.. وأصحاب نفوذ.. وأثرياء.. أما هو

نكان واحداً من ملايين المصريين البسطاء الذى يكافحون من أجل أن تصبح لقمة لعيش المغموسة بالألم.. لقمة عيش مغطاة باللحم.. والستر.. وصافية من شوائب الخطأ والحرام والعيب.. لقد مشت مشوار حياتها عكس الاتجاه.. فالمرأة عادة تبدأ بالرجل المجهول لتصل إلى الرجل المعروف.. وتبدأ بالرجل المتواضع وهى فى طريقها للرجل المتربع على القمة.. وتبدأ بالرجل الذى تكافح معه حتى تصل إلى الرجل الذى يدللها يقدم لها كل شىء على أطباق من فضة.. هكذا.. تسير الحياة عادة.. ويندر أن تنقلب الآية.. ولكنها حققت ما يمكن أن يوصف بالندرة فى التجارب البشرية.. تركت المجد.. والشهرة.. والقوة.. والثراء.. وسارت وراء هذا الرجل الذى يملك ورشة لإصلاح السيارات.. وألقت تحت قدميه كل شىء.. وتبعته.. وتزوجته.. قبلت أن تكون زوجته الثانية.. وقبلت أن تعتزل الفن.. وأن تغطى رأسها بالحجاب.. وأن تقتسمه بينها وبين زوجته الأولى.. وأن تشارك فى تربية أطفاله الذين أنجبهم من زوجته الأولى وهى على ذمته.. ثم راحت تكسب ما تحتاج إليه من مال من بيع الأشياء البسيطة.. المناشف.. وأغطية الفراش.. وأدوات المطبخ.. وبيع الزهور.. وبدت أنها أكثر نساء الأرض سعادة وطمأنينة.

لقد اجتاحت الوسط الفنى «هوجة» فى بداية التسعينيات اسمها «الفنانات التائبات».. فارتدت شمس البارودى النقاب.. وارتدت سهير رمزى الحجاب.. وتبعتها شهيرة.. وعفاف شعيب.. وهالة فؤاد.. وسهير البابلى.. ومديحة كامل.. وهناء ثروت.. وياسمين الخيام.. ونورا.. وعدد لا بأس به من الراقصات مثل سحر حمدى.. وهندية.. وأخرى زعمت أن الرسول جاء إليها فى المنام.. وقد تحول بعضهن إلى الدعوة.. والدعاية.. وإلقاء الخطب الدينية فى المآتم.. وأصبحت هذه الظاهرة حديث الناس والصحافة.. وراح الجميع يفتش عن أسبابها.. فكان هناك من قال أن وراءها أموالا من دول النفط.. تدفع بالملايين.. وأن هناك وسطاء فى هذه الصفقات.. هم مشايخ ورجال أعمال وصحافيون.. وكان هناك من قال أن أغلب التائبات المعتزلات قد فقدن أسباب الشهرة.. فقررن أن يذهبن إلى الظل والظلام فى «زفة» إعلامية من نوع خاص.. وكان هناك من قال أن بعض الفنانات سعين إلى غسل أنفسهن بعد مشوار الرذيلة الذى قطعنه إلى آخره.. حتى قيل أن هذا البعض تاب عن الرذيلة التى قطع مشوارها إلى آخره.. وأنا لا أذكر اسم الفنانة التى وجدتها ذات صباح وسيارة بها بعض الشباب وهم يلقون بها من السيارة على أحد كبارى القاهرة.. بعد ليلة ليس من الصعب تخيل ما جرى فيها.. ولا أذكر اسم الفنانة التى كانت أمها

تزوجها كل يوم أميراً نفطيا يدفع لها.. ثم يجدها فى أحضان رجل آخر.. ولا أذكر اسم الفنانة التى كانت زبونة دائمة فى بوليس الآداب.. ولولا نفوذها لدخلت السجن.. ولا أذكر اسم الفنانة التى كانت تهوى العرى على الشاشة بصورة لم تحدث من قبل ولن تحدث من بعد.. ثم فجأة خجلت من نفسها.. وتغطت بأثر رجعى لتعوض كل العرى الذى جربته.. لكننى أذكر أن هالة فؤاد قد اعتزلت الفن بعد أن فشلت فى زواجها من النجم أحمد زكى.. وأصيبت بمرض خطير.. أوجع قلوبنا.. خاصة الذين كانوا يعرفونها منذ كانت طفلة صغيرة تأتى مع أبيها المخرج أحمد فؤاد – الذى مات بعدها حسرة عليها – إلى البلاتوه.. أو إلى كافتيريا «لاباس».. عندما كانت تجمعاً لأجيال كاملة من المثقفين والفنانين.. وأذكر أن سهير البابلى فكرت أكثر من مرة فى الاعتزال.. وفتح مشغل للخياطة.. وأن اعتزالها لم يكن مفاجأة لأقرب الناس إليها.. وكانت قبل الاعتزال تقاطع السهر.. ولا تقرب الخمر.. وتصلى بانتظام.. وتأخذ سيارتها بمفردها ليلاً إلى منطقة الأهرام – إذا ما شعرت بمشاكل نفسية – وتصرخ.. لتخرج ما فى صدرها من مشاكل.. ولا جدال أن تأثير ابنتها الوحيدة «نيڤين» – التى سبقتها إلى الحجاب – كان واضحاً عليها.

لكن بطلة هذه القصة.. كانت قصة أخرى.

لقد ذهبت إلى أحد المشايخ الذين حولهم التليفزيون إلى نجوم ينافسون نجوم السينما والكرة وسألته:

– هل الفن حرام يامولانا؟

فقال بلا تردد:

– نعم.

وسألته:

– وماذا أفعل بالنقود التى كسبتها منه؟

قال لها بلا تردد أيضاً:

– احتفظى بها.. فهى حلال.. لأنك لا تعرفين أنها حرام.. هى حرام من يوم عرفت أن الفن حرام.

ولم تشأ أن تناقشه فى هذه الفتوى الغريبة.. فلو كان الفن حراما فكل ما جاء منه حرام.. قبل أن تعرف.. وبعد أن عرفت.. وإلا انطبق ذلك على أموال المخدرات والسوق السوداء وتجارة الخمور التى لا يعرف أصحابها أنها حرام.

لكن من المؤكد أن هذه الفتوى أسعدت كل الفنانين والفنانات الذين احتفظوا بما جمعوه فى الدنيا وراحوا يفتشون عن الآخرة.. وقد راح كل منهم يبحث عن دور له فى حالته الجديدة.. فمنهم من راح ينتج المسلسلات الدينية.. ومنهم الفنان حسن يوسف.. ومنهم من وقف وراء ابنته وهى تشق طريقها إلى الفن.. مثل الفنانة شهيرة التى تساند ابنتها فى رحلة الصعود إلى الشهرة.. وتساند زوجها الفنان محمود ياسين للبقاء فى عالم الفن.. ومنهن من فكرت فى الزواج من رجل أعمال يتردد بين القاهرة وجدة.. ومنهن من فكرت فى الزواج من داعية دينى.. ثم اكتشفت أنه يميل أكثر للرجال.. وقد ضاعفت الصدمة من حالتها المرضية.. فأصيبت بالشلل.. ومنهم من راح يحرض غيره من الوسط الفنى على الاعتزال بطقوس من نوع خاص.. خاصة للنساء.. فيكون بالأدعية والزغاريد والثياب البيضاء.. ومنهم من اختفى فى صمت وراح يعيش حياته فى هدوء ودون تشنج وراح يربى أطفاله مثله مثل باقى خلق الله.. ومنهن من خلعت الحجاب وعادت مرة أخرى للتمثيل مثل فريدة سيف النصر ثم اختفت من جديد.. ومنهم من راح يسجل أمام كاميرات الفيديو رحلته فى الحياة.. وكان على رأس هؤلاء عفاف شعيب.. وقد وجدت منتجاً يطبع لها هذا الشريط الذى رأيته فى إحدى سهرات مارينا وسط مجموعة كبيرة من البشر.. لم تتردد فى أن تفتح حواراً لم يخل من الجدل والخلاف.. ولكنها على كل حال كانت سهرة مختلفة على ما اعتاد عليه الناس فى مارينا.. وقد لاحظ المعارضون لما فى الشريط أن المؤيدين له لم يتركوا زجاجات الخمر التى كانت معهم منذ اللقطة الأولى فى الشريط.

وفى نهاية الشريط جاءت سيرة بطلة القصة.. إنها كانت واحدة من سكان مارينا حتى اعتزلت واختفت عن الحياة العامة.. كانت قد اشترت فيللا بالقرب من بيت الدكتور هانى عنان.. فى المنطقة التاسعة.. ثم باعتها بثلاثة أضعاف ثمنها وتركت مارينا والقاهرة وقررت الحياة فى منطقة «كينج مريوط».. وهى منطقة قريبة من العجمى وسيدى كرير والعامرية.. وقد كان أول من لفت الأنظار إليها الملك فاروق الذى بنى لنفسه استراحة للصيد يقضى فيها أياماً كل عدة أعوام.. وهى منطقة سكنية تتمتع بدفء طوال العام.. وقد استقرت فيها بطلة القصة لتبتعد عن الأجواء

التى يعرفها فيها الناس الذين كانت فى يوم من الأيام واحدة منهم.. وراحت تصلى وتتعبد وتمارس الرياضة وتزرع الزهور والنباتات التى تبيعها.. كما أنها لم تتردد فى أن تستقبل فى بيتها هناك بعض الأصدقاء الذين خرجت بهم من العالم الذى قاطعته وهجرته.. وقد كنت أنا واحدا من هؤلاء الأصدقاء.. وهم يعدون على أصابع اليد الواحدة.

لقد قابلتها منذ سنوات فى بيروت.. كانت تصور فيلما فى الجبل.. وكانت قد بدأت تجنى ثمار مشوار كفاحها المرهق فى الفن والحياة.. وبدأت بلغة أهل السينما تجد نفسها على قمة المجد.. لكن الثمن الذى دفعته فى أيامها الطويلة كان غالياً.. بل ربما كان فادحاً.

فى ذلك الوقت عرفتها.. وعندما تعرف شخصاً فى الغربة.. يسهل عليكما قطع المسافات التى تستغرقها العلاقات فى الوطن الذى تعيشان فيه.. الغربة تقرب الأشخاص.. وتلغى الحواجز.. وتطلق الألسنة.. وتحرر أصحابها من القيود.. وكأنها فرصة للعلاج النفسى.. أو كأن الإنسان لن يعود إلى الوطن من جديد.. أو كأنه لن يحاسب على ما باح به عندما يعود إلى الوطن.. ولم تكن الغربة فقط هى التى فتحت خزائن الأسرار الخاصة.. وإنما الأزمة العاطفية الحادة التى كانت تمر بها.

كنا فى نفس الفندق.. كورال بيتش الذى يفتح على البحر مباشرة.. وأمام الأجساد المثيرة العارية التى تفعل كل ما يحلو لها.. علنا.. وبدون تردد.. كان من السهل أن أعرف خبايا هذه الأزمة.. أزمة نجمة تريد أن تعيش مع من تحب.. لكنها لا تقدر على أن تستمر معه.. كان أصغر منها فى العمر.. وفى بداية حياته الفنية.. وقد سقطت فى هواه.. وعشقته بجنون.. ولكنه لم يقبل أن يتزوجها علنا.. حتى لا يقال أنه يصعد على أكتافها.. وتزوجته سراً.. وكانت مستعدة أن تعتزل الحياة من أجله.. لكن من أين تأكل وتعيش وتنفق على نفسها.. وعليه.. وتحملت أن يقول الناس أنها تعاشره فى الحرام.. وتحملت فشله فى الحياة.. وتعثره وهو يصعد درجات السلم.. فى وقت كانت السينما تضع شروطاً صعبة للنجوم.. وفى وقت لم يكن فيه التليفزيون ينتج مسلسلات بهذا الكم الكبير الذى يحدث الآن.. ويعطى الفرصة لكل من هب ودب ليدخل بيوتنا دون استئذان ويصبح نجماً.. وهو ما حدث له.. فقد أصبح نجماً تليفزيونياً بعد أن تجاوز الأربعين من عمره.

فى مطعم أسماك شهير يطل على بحر بيروت عند «الروشة» رحت أتأملها..

كانت قد تجاوزت الأربعين.. لكنها ظلت ممشوقة القوام.. ساحرة الشخصية.. ساخرة اللسان.. خفيفة الظل.. حاضرة البديهة.. تعرف كيف تقع فى هواها إذا أرادت.. وتعرف كيف تطردك من حياتها لو أصابها الملل.. تعرف كيف تحرضك على الجنون.. وتعرف كيف تقنعك أن العقلاء هم السفهاء.. والأغبياء.. ثم فجأة.. تجدها أشد الناس عقلاً ورزانة وحكمة.. هى امرأة قادرة أن تضع فى يدها كل المفاتيح.. أو على الأقل قادرة على إقناع الرجال الذى يقعون فى شباكها بذلك.. دون أن تكشف لهم كم هى ضعيفة.. وكم هى معذبة.. وكم هى مستعدة أن تفعل المستحيل لتظل تحت أقدام من تحب.. ولكن الرجال لا يتعبون أنفسهم عادة فى اكتشاف المرأة التى يحبونها.. يأخذون بظواهر الأمور.. ولا يهتمون ببواطنها.. فالمرأة الضعيفة التى تخفى ضعفها يتصورونها قوية.. والمرأة القوية التى تخفى قوتها يتصورونها ضعيفة.. وهم لا تسعدهم ولا تريحهم المرأة التى تبدو قوية حتى لو كانت ضعيفة.. هم يفضلونها تابعة.. ساكتة.. ساكنة.. مستسلمة.. تعطيهم الإحساس بالقوة ولو كان هذا الإحساس وهمياً.

وقد كان يشعر بالضعف معها.. وكانت لحظات الإحساس الوحيدة بالقوة هى لحظات الفراش.. ولكنها لحظات بحكم طبيعتها لا تدوم طويلاً.. فكان إحساس القوة ينقلب بعدها إلى إحساس بالعدوانية والعنف والقسوة.. وكثيراً ما كان هذا الإحساس يتحول إلى ضرب.. كان ينقلها من المتعة إلى إهانة.. وفى نهاية كل مرة كانت تجد نفسها جريحة مثل مصابيح الشوارع المكسورة.. تتساند على نفسها وهى تبحر فى بحر الحب الضائع.. وهى لا تعرف لماذا غضب منها؟.. وما الذى أغضبه؟.. وكان عليها أن تعود إلى ملابسها وإلى نفسها وتنزل من فوق الصليب وحدها.. كانت تطلب منه أن يفتح لها مظلات الحنان.. وأن يعطيها شعوراً بالأمان.. لكنه كان يعاندها مثلما يعاندها الزمان.

قالت لى:

– كان فى كل مكان مشترك بيننا دمعة من دمعاتى.. وأغنية حزينة من أغنياتى.

هاجمتها الذكريات من جميع الجهات.. وشعرت وهى تستطرد أنها إحدى الساحرات التى فقدت قدرتها على صنع المعجزات.. أو أنها إحدى الملكات التى فقدت النطق بكل اللغات.. وضاعت منها أجمل الذكريات.

قالت:

– وفى يوم من الأيام جئت إليه وأنا أكاد أرقص فى الهواء.. كنت أحمل له فى يدى عقداً لدور مهم فى فيلم من بطولتى.. وكنت أحمل له فى قلبى ولسانى وأحشائى خبر طفلنا القادم الذى سيحقق أقوى رغباتى وأجمل أمنياتى.. لكنه مزق العقد.. ومزقنى.. أمسكنى بعنف من شعرى ومسح بى البلاط.. وراح يخبط جسدى بعنف فى كل جسم صلب يصادفه.. وراح يركل بطنى بحذائه.. وقبل أن ينتهى ألقى فى وجهى بيمين الطلاق.. ولم أجد مفراً من أن أجهض نفسى وأتخلص من أجمل أحلامى.. لقد ظللت طوال حياتى أجهض كل طفل يتسلل إلى أحشائى.. مرة لأننى فقيرة.. ومرة لأننى أريد أن أنجح.. ومرة لأننى أريده من رجل أحبه.. ومرة لأننى أصبحت نجمة.. ولم أصدق أننى فجأة يمكن أن أكون أماً.. وأن يكون ذلك من الرجل الوحيد الذى شعرت فى حياتى أننى أحببته أكثر.

كانت الرحلة إلى بيروت – بجانب الفيلم الذى تصوره – رحلة استشفاء لروحها المعذبة.. ولعواطفها المهشمة.. ولخلايا جسدها المرهقة.. ولعل هذه الحالة التى كانت فيها، قد ساهمت فى ألا تتردد فى أن تفتح خزائن قلبها بهذه السرعة المذهلة.

وقد طالت فرصة البوح فى مطار بيروت عندما تأخرت الطائرة أكثر من ثمانى ساعات.. ولكن ما لفت نظرى أنها دخلت السوق الحرة فى المطار.. وراحت تشترى له كل ما تعتقد أنه يسعده.. ويسكى.. وسيجار كوبى.. وكرافتات فرنسية.. وزجاجات عطر.. ولم أشأ أن أحرجها لا بنظراتى الفضولية.. ولا بعلامات الاستفهام المتوقعة فى مثل هذه الأحوال.. فأنا أعرف ما معنى أن يحب الإنسان حتى لو كان معذباً فى حبه.. إن الحب ولو فى الغروب يغفر الذنوب.. ويجعل من يعانى منه كالعشب الذى يمشى على الجدران.. ويقرأ مصيره فى الفنجان.. ويجعله متردداً بين الظلال والزلزال.

وسألتها:

– هل تخلطين فى حديثك بين التجميل والتمثيل؟

وفوجئت بها تقول:

- إننى أكره الآن التمثيل.

- تكرهينه فى الوقت الذى أصبح يعطيك كل شىء.. وبعد طول صبر.. ومعاناة.

ولم ترد.. فقد كان علينا أن نركب الطائرة إلى القاهرة.

ساعة واحدة بين بيروت والقاهرة لم تكن كافية أن أعرف عنها كل شىء.. ولكنها كانت المفتاح المناسب فى الوقت المناسب للدخول إلى أعماقها وأغوارها.. والتغلغل بحرية فيها.. دون تجميل .. أو تمثيل.

هى من أسرة متوسطة.. أغواها التمثيل.. فتركت أهلها.. وهامت على وجهها فى كواليس المسارح.. وبلاتوهات السينما.. وستديوهات الإذاعة.. ولكن موهبتها لم تكن وحدها تكفى لأنْ تصبح نجمة.. فكل نجمة وراءها علاقة قوية لا تقل عن قوة موهبتها.. علاقة زواج.. أو علاقة حب.. وغالباً ما كان وراء كل نجمة زوج يعمل فى الإخراج.. أو فى الإنتاج.. أما هى فقد اضطرت للزواج من تاجر أقمشة أحبها.. وسمح لها بالتمثيل.. ولكن عندما وجد أن فرقتها المسرحية تقضى أياماً كل شهر فى المحافظات خيرها بين الزواج والتمثيل.. واختارت التمثيل.. فوجدت ذات ليلة فى كواليس المسرح من يطلب منها التوقيع على ورقة طلاق.. وخرجت من المسرح إلى طبيب من أطباء الإجهاض لتتخلص من الجنين الذى فى أحشائها.. وكان من حسن حظها أن اليوم التالى كان إجازة المسرح.. وكان عليها أن تمثل دور غادة الكاميليا بعد ٢٤ ساعة من إجهاضها.. وكان إحساسها بالألم وهى على خشبة المسرح طبيعياً.. لم تكن فى تلك الليلة تمثل.. كانت تتوجع بصدق.. وبعد العرض انهارت ولم تحتمل النزيف.. فدخلت المستشفى.. وفقدت دورها.. ومصدر دخلها.. وراحت تعيش على إعانات من زميلاتها.. سناء جميل.. وعايدة عبدالعزيز.. وسهير البابلى.. وأمينة رزق.. كن جميعاً يعشن على جنيهات قليلة.. لكن كانت قلوبهن كبيرة.

وخرجت من المستشفى لتعيش فى بنسيون متواضع فى وسط القاهرة.. وانتقلت منه لتعيش فى بيت ممثل معروف.. تزوجها.. كان قد فقد شهرته.. وأمواله.. ولم يبق له سوى شقة يعيش فيها.. ودخل قليل من مبلغ فى دفتر التوفير ينفق منه على الخمور الرديئة التى يغرق فيها طوال اليوم.. لقد قبلت أن تتزوجه حتى تجد مكاناً محترماً تنام فيه.. لم تشأ أن تتشرد فى الشوارع وتنام فى مكان مختلف كل

ليلة.. لم تشأ أن تجد نفسها قطة من قطط الليل.

ويوما بعد يوم فقد الزوج السكير ما كان يدخره من أموال.. فقررت أن تدفع له نصيبها من إيجار الشقة.. زجاجات خمر.. ثم.. وجدت أن من الممكن أن يأتى إلى الشقة أصدقاؤها الذين تعرفهم جيداً.. كانوا يأتون بالخمر لزوجها الذى لم يكن يهمه سواها.. سوى الخمر.. وكانوا يتركونه غارقاً فيها.. أما هم فيغرقون معها.. مع زوجته.. فى غرفة النوم المغلقة الخاصة بها.. وبمرور الوقت لم يعد مهماً أن يغلقوا الباب.. ولم يكن الزوج يبالى.. فهو لا يريد من الدنيا سوى الخمر المجانية.. أما أصدقاؤها فقد كانوا من طرز مختلفة من الرجال.. وكيل وزارة كان ضابطاً فى الجيش يوم قامت الثورة وخلع الزى العسكرى بعدها وبعد أن أصبح ضباط الجيش فى كافة نواحى الحياة المدنية.. وتاجر أقطان يهوى المسرح.. لكن يهوى أكثر الكومبارس والممثلات.. ومخرج مسرحى كان يدرس فى الخارج.. لقد مر هؤلاء على الممثل البائس وهو غائب عن الوعى فى الصالة.. وتركوا إلى جواره زجاجة الخمر التى جاءوا بها إليه.. ودخلوا غرفة النوم.

ومات الممثل.. وحيداً.. ولم يكتشفوا الخبر إلا بعد أيام كانت فيها مع المخرج الشاب فى الإسكندرية.. مات وهى على ذمته.. وورثت الشقة.. وورثت أيضاً لقب زوجة المرحوم الذى كان يهز فى يوم من الأيام المسارح.. وقد تذكره الناس والصحافة ووزارة الثقافة، منحوه وسام العلوم والفنون تسلمته هى من جمال عبد الناصر فى أول احتفال بعيد العلم.. ومنحوه معاشاً استثنائياً اقتسمته مع من تبقى من أولاده.

وأحست بأنها تحب المخرج الشاب الذى ملأت أخباره الصحف.. وراح يتحدث عن الثورة القادمة التى ستحدث فى المسرح على يديه.. وطالب بسقوط الحواجز الوهمية بين الصالة وخشبة المسرح.. بين الممثلين والجمهور.. إن الثورة يجب أن تشمل كل شىء.. الفن والحب والعلاقات الخاصة.. وحتى سندوتش الفول الذى يعيش عليه المصريون.. وصدقت كلامه.. وطالبته بالزواج. إنه زواج طبيعى.. مخرج وممثلة.. ووافق.. وتحدد الموعد.. لكن بدلاً من أن يتزوجها فى ذلك اليوم.. تزوج فتاة عادية.. ليست من الوسط الفنى.. ولم يعرفها من قبل إلا بواسطة شقيقته.. خاف أن يتزوج ممثلة.. وممثلة كان يعرفها.. وسبق لها الزواج.. وشخصيتها قوية.. ولها تجارب سابقة.. إن كل ما يقوله لم يكن يؤمن به.. وفى لحظة القرار والاختيار لم يختلف عن أى شخص آخر.. إن المثقف العربى مهما اتسعت آفاقه وكثرت تجاربه تبقى

عقدة الجنس مدفونة فى أعماقه.. وتبقى المرأة مصدراً من مصادر الخجل والعار.. إن الفرق بين الرجل العادى فى مجتمعنا والرجل المثقف هو الفرق بين ضابط البوليس بملابسه الرسمية وضابط البوليس بملابسه المدنية.. كلهم مباحثيون.. لكن بعضهم مباحثى فوق الجلد.. والبعض الآخر مباحثى تحت الجلد.. والغريب أننى فيما بعد عرفت أن المخرج الذى أصبح لامعاً ظل على علاقة قوية بها بعد زواجه.. ولم أشأ أن أسألها عن السبب.. فالحب فى الوسط الفنى أقوى من أى علاقة أخرى.. ثم إنها أصبحت بطلة من أهم بطلات مسرحياته.. وفتح له المسرح الطريق العريض إلى السينما.. وتفوقت أكثر على الشاشة البيضاء.. لكن هذا التفوق - الذى جاء بكل شىء - جاء متأخراً.. وهى ليست ظاهرة غريبة.. فعادل إمام مثلاً ظل بعيداً عن النجومية سنوات طويلة لعب فيها دور السنيد.. وأحمد زكى أيضاً.. وسهير البابلى كذلك.. ومن ثم ليس غريباً ما جرى لها فى الفن وفى الحياة.

لكن يبدو أن الشهرة على كبر تأتى ويأتى معها الطمع والجشع.. كأن أصحابها يريدون أن يعوضوا كل ما فاتهم من شقاء وحرمان بأثر رجعى.. فقد راحت تشترى سيارة مرسيدس آخر موديل.. وفيللا فى مصر الجديدة.. وشاليه فى المنتزه.. وشقة فى الزمالك.. وشاليه فى العجمى.. وبيت فى كينج مريوط.. وسوبر ماركت.. وبوتيك للملابس المستوردة.. كانت تشعر بالقلق من أن تعود أيام الفقر والشقاء.. وراحت أيضاً تستغل شهرتها فى الحصول على الهدايا من الأثرياء.. والأمراء.. ولكن شيئاً ما فى أعماقها بدأ يرفض حياتها الممزقة.. إن الإنسان الذى يجرى لا يشعر بالتعب إلا بعد أن يستريح.. والإنسان الذى تصدمه سيارة لا يشعر بالألم إلا بعد أن يهدأ.. والإنسان الذى تعذبه الدنيا لا يشعر بهذا العذاب إلا بعد أن تعوضه الدنيا عن هذا العذاب.. ساعتها يحاسبها.. ثم يحاسب نفسه.. وهو فى هذا الحساب لا يكون عادلاً.. لأنه لا يضع الظروف السابقة القاسية فى حسبانه.

ساعة من بيروت إلى القاهرة عرفت فيها مفاتيحها.. وفى مطار القاهرة تصافحنا بحرارة.. على أمل أن نلتقى ونصبح أصدقاء.. ولكن يبدو أن الذين نعرفهم فى الغربة ننساهم فى الوطن.. فقد تاهت عن بالى.. ولم أعد أعرف عنها أى شىء سوى ما تنشره الصحف عن أخبارها.. وأعترف أنها حاولت أن تسأل عنى بعض الذين يعرفوننى.. لكنى لم أجد نفسى متحمساً لأن أعرفها مرة أخرى عن قرب.. حتى وجدتها فى مكتبى.. وجاءت تسبقها الضجة التى تصاحب النجوم.. وبعد أن انتهى الآخرون من توجيه أسئلة هى فى الحقيقة فرصة للبقاء معها أطول وقت ممكن..

التفتت ناحيتى معاتبة وهى تقول:

- كنت أتصور أنك من طينة أخرى.. لكنك مثل باقى البشر.. نار وتراب وماء وهواء.. على أنه باسم أحزانى التى خرجت أمامك وعلى يديك فى بيروت جئت أدعوك لحضور حفل زواجى.. لقد وقفت إلى جانبى فى أحرج الأوقات.. فى وقت شعرت فيه أن حياتى كلها مثل رغوة من رغاوى البحر الفائرة عند الروشة.. لقد استوعبتنى واقعيتك.. فلم تكن بعلام للغيب ولا بحلال العقد.. وإنما كنت إنسانا قادراً على أن تسمع إنسانا يريد أن يتحرر.. لم تحاكمنى.. لم تحاسبنى.. هل تتذكر كلمتك التى أضحكتنى.

- سبق السيف العزل.. انتهى الحب بالعسل.. وخرج من مسرح حياتك البطل.

قالت:

- أكثر من ذلك رحت تشرح لى ببساطة أذهلتنى ما عجزت عن فهمه من كتب كثيرة.. ومن مفكرين كبار كانوا يجلسون تحت قدمى.. هل تتذكر ما قلت؟

- لقد أخجلت تواضعى.

- لا أنسى أنك قلت أن الرجل عندما يعجز عن الحب يعود إلى عصر الحجر.. يصبح حالة ميئوساً منها.. مثل صحراء جافة لا تعرف المطر.. ولا القمر.. ولا الشجر.. ولا السفر.. ولا السهر.

- كنت معجباً بشجاعتك فى الحب.

- لم أعد من يومها أحب.

- لكنك جئت لتدعينى على حفل زواجك.

- أنا لن أتزوج رجلاً وإنما بنكا.

- ستفقدين نفسك.

- أنا أشترى شيخوختى.

- الثمن فادح .. فأنا أكثر من غيرى يعرف أنك امرأة لا تقدر أن تعيش بدون رجل.

– لقد كبرت ولم أعد أحتاج من الرجل سوى محفظته.

– أنت تريدين من الرجل.. رجولته.. عمرك لن يمنعك.. وحرمانك الطويل سيدفعك إلى التمزق.. بين الثروة واللذة.

– لا تزال قادراً على أن تقول أصعب الأشياء بلباقة وأناقة.. ستأتى الفرح.

– لن أتأخر.

تزوجت رجل أعمال معروفا فى عالم البيزنس بالاستقامة.. فلا هو يعيش على قروض بنوك لا يسددها.. ولا هو ينصب على المصريين على طريقة الريان والسعد وباقى شركات توظيف الأموال.. وهو قد ورث هذه الاستقامة من اسم أسرته المعروف منذ عشرات السنين فى عالم التجارة والمال.. لكنه كان على مستوى العشق يفضل المرأة القوية.. التى يجلس تحت قدميها مثل قط سيامى وديع.. هكذا.. كان اختياره لزوجته الأولى.. ولزوجته الثانية.. وهكذا.. كان اختياره لها.. ولا أحد يعرف السبب.. على أن واحداً من أصحابه القدامى الذين عرفوه منذ أيام المراهقة فى حى المنيل فسر الأمر على أنه ارتباط قوى بأمه.. والذى يرتبط بأمه هذا الارتباط المرضى يقع غالباً أسير المرأة القوية التى تعيد إليه سطوة الأم.. وقد وصل ارتباطه بأمه إلى حد أنه عندما طلق زوجته الأخيرة وتزوجها لم يبق معها طويلاً فى البيت وكان يفضل أن يبيت عند أمه.. وكثيراً ما كنت أسمعها ترد على تليفونه وتخبره أن يظل عند أمه.. وتعدد له ضيوفها من الكتاب والفنانين.

كان كل همها أن تحصل منه على أكبر قدر من المال.. أما حياتها الشخصية والفنية فقد سارت فى الطريق الذى رسمته.. وكأنها لم تتزوج. أو كأنها ليست فى عصمة رجل.. ولم تكن تقدر على الشكوى لى لأنها كانت تعرف رأيى مسبقاً قبل أن تتزوج.. لقد تزوجها مجرداً من أسلحة الرجل وخناجره.. ولم يستطع معها أن يمتطى جياد العشق.. أو يمسك بحرابه.. وقد رهن عندها كل شىء.. ولم يكن أمامه سوى أن يفتدى نفسه بالذهب والماس.

لقد عاشت وهى فى القمة فى تناقض نفسى لم تعشه وهى فى القاع.. أرادت الثروة من الزوج.. واللذة من العشاق.. انكسرت روحها.. انشرخت.. تهشمت.. ولم يعد لها المبررات القديمة التى كانت تحميها.. كان هناك الزوج الذى يغطيها بالمال.. والعشيق الذى يدعك جسمها الذى فى لون الثلج فيشتعل بالنار.. كان

يعجنه بجسده ويطرزه بالعلامات.. ويحوله إلى مهرجان للصوت والضوء.. ويضربه وكأنه يضرب عملة فضية أو ذهبية.. أو يضربه بالحليب والعسل.. ويبحر فيجسدها كسمكة قرش مفترسة.

وفى يوم طلبت منى أن أحضر إلى بيتها فى كينج مريوط لأقول لها رأيى فى رجل آخر تريد أن تتزوجه.. وكان من الطبيعى أن أصاب بالدهشة لأنها طلقت زوجها دون أن أعرف.. لكن الدهشة الأشد أنها لم تكن قد طلقت زوجها.. وتبحث عن زوج آخر.. أكثر ثراء.. أكثر شهرة.. وله مكانته الاجتماعية.. وسألتها فى استنكار:

– تبحثين عن زوج؟.. وزوجك؟

فوجدتها تقول فى استهتار لم أعهده فيها:

– هذه ليست المشكلة.

– ما هى المشكلة؟.. أن تبيعى نفسك.. أن لا تشعرى بأى نوع من الشبع.. أنت فى حاجة إلى طبيب نفسى.. لا إلى صديق.. لست من هذا النوع من الأصدقاء الذى يوافق على هذا الاضطراب.. أنت تكملين على ما تبقى من نفسك.. لا يكفى أن تنظفى جسدك فى الحمام فى اليوم ثلاث مرات.. ولا يكفى أن تؤدى الصلاة وتبكين بين يدى الله خمس مرات.. ولا يكفى أن تخرجى ما فى صدرك أمامى بين الحين والحين.. ثم تعودين إلى كل ما تفعلين.. وتندمين عليه.. إذا لم نتعلم من أخطائنا فلا مفر من مستشفى الأمراض العصبية.. التطرف الذى أنت فيه سيؤدى إلى تطرف معاكس.. لن يدهشنى أن تعلنى أن الفن حرام.. وأنت تعلمين أن ما تفعلين هو الحرام.

وطلبت الطلاق من زوجها.. ونطق الزوج بالكلمات التى تقال فى هذا الأمر.. لكن ما أن عاد إلى بيت أمه حتى أصيب بجلطة فى المخ.. نزيف حاد فيه أدى إلى وفاته بعد نقله إلى المستشفى بدقائق.. وقد عرفت أنها طلقت من أقرب صديقاتها فى الوسط الفنى.. وما أن رفعت سماعة التليفون لأتحدث معها حتى عرفت منها خبر وفاة زوجها.. فقلت لها:

تقصدين وفاة من كان ـ حتى ساعة واحدة ـ زوجك؟

فوجدتها تصرخ فى هيستريا:

– لا تقل ذلك.. لقد مات وأنا على ذمته.

ولم يكن من الصعب معرفة سبب هذه الهيستريا.. الرغبة فى أن ترثه.. وقد كان لها حق قانونى فى الميراث.. فلم تكن هناك ورقة طلاق.. فالطلاق كان بينها وبين زوجها فقط.. لكن.. لم يكن لها هذا الحق حسب شرع الله.. وقد أحلت لنفسها ما ليس من حقها.. وكانت المرة الأخيرة التى رأيتها فيها.

مرت سنوات حتى عرفت خبر اعتزالها الفن وإعلانها أنه حرام.. وقد تصورت أنها ستعيد الحقوق الشرعية إلى أصحابها.. وستتطهر من كل ما قالت عنه أنها كسبته فى الحرام.. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

ورأيتها بالصدفة فى عزاء أم إحدى صديقاتها.. ولم أشأ أن أصافحها.. فبادرت بجرأتها الشهيرة فى الاقتحام قائلة:

– تعرفنى فى الجاهلية ولا تعرفنى فى الإيمان.

فقلت:

– أنا أعرفك جيداً.. أعرف أن جسدك مثل معبد تمارس فيه كل الديانات.. مرة يدخله الوثنيون.. ومرة يدخله المؤمنون.. وفى كل مرة تضاء فيه الشموع.. وتدق فيه الأجراس.. أنت فى حاجة لأن تطهرى نفسك بنفسك.

والحقيقة لم أعرف من أين أتيت بالشجاعة لأن أقول لها مثل هذا الكلام الجارح.. وقد راحت تبكى.. فتصور من فى العزاء أنها تبكى على الفقيدة.. والحقيقة أيضاً أننى حزنت لأنها تمثل الآن دور رابعة العدوية.. فى النصف الثانى من حياتها.. وقد أجادت الدور.. وقد كنت أتمنى أن تصل إلى نفسها وتتعرف عليها وتعالجها وتداوى جراحها قبل أن تفعل ما فعلت.. لم أكن ضد أن تعلن أنها اهتدت بعد طول ضلال.. لكن كنت ضد أن تكذب حتى وهى تقول ذلك.

وقد بدأت القصة عندما طلبت من سائقها أن يضبط السيارة قبل أن تسافر من كينج مريوط إلى القاهرة.. وراح السائق يفتش عن ميكانيكى قريب فى العامرية.. فلم يجد سوى ميكانيكى سيارات نقل.. فتركها له.. وعندما عاد إليها وأخبرها بما فعل غضبت وثارت.. وسارعت معه إلى الميكانيكى فى سيارة ضيف كان عندها

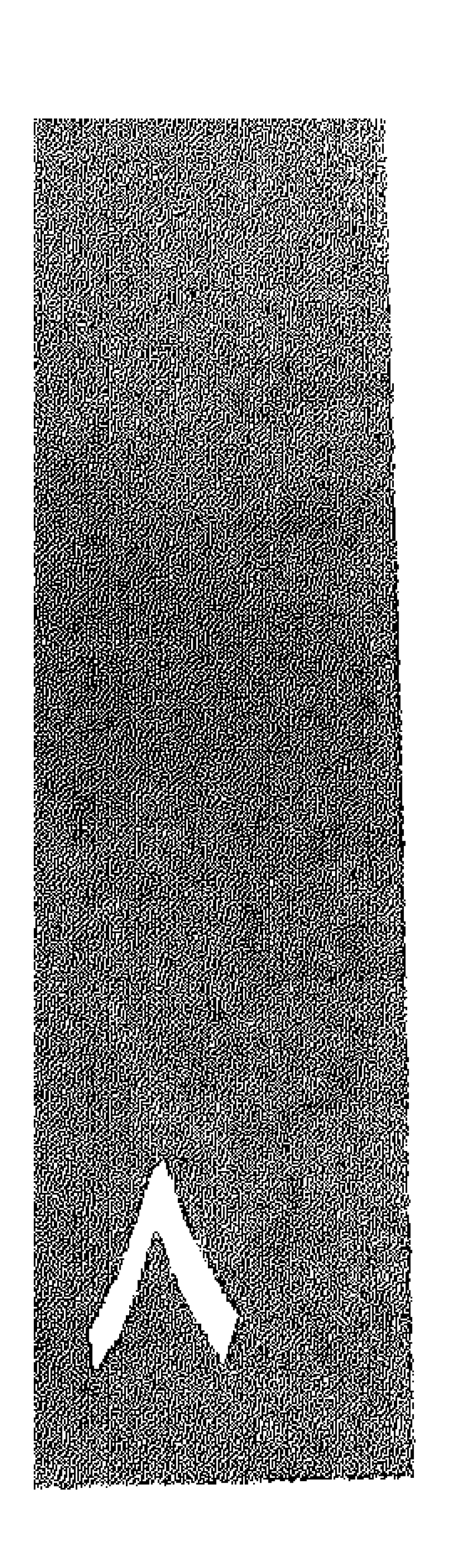
حتى لا يقرب السيارة.. ووصلت بعد فوات الأوان فقد وجدت السيارة مفتوحة ومفككة.. وصرخت فى وجهه، لكنها لم تستطع أن تكمل الصراخ.. كسرت الصراخ.. كان وجهه هادئاً.. جذاباً. وصوته أيضاً.. ولم تشعر بنفسها إلا وهى تجلس إلى جواره صامتة. بل وراحت ترتشف كوب الشاى الملوث بالشحم والزيوت.. فى استمتاع.. وبعد ساعة أخذت سيارتها وانطلقت إلى القاهرة.. لكن طوال الطريق كانت صورته لا تفارقها.. وحاولت أن تفعل المستحيل لتقنع نفسها أن ما تفكر فيه هراء وسخف.. فكيف تعرف – وهى النجمة الشهيرة – مثل هذا الرجل.. كيف تترك كل شيء وتتبعه؟.. وكادت وهى تقطع اللحم بالسكين فى بيتها أن تقطع أصابعها.. تماماً كما حدث للنساء اللاتى دعتهن امرأة العزيز ليرين جاذبية سيدنا يوسف بعد أن سخرن منها ومن جنونها وهيامها به.

يعرف عدد من الناس أنها تزوجته.. على زوجته.. وأنها اعتزلت الدنيا من أجله.. وتعاملت معه وكأنه ولى من أولياء الله الصالحين.. وهو يصغرها بسنوات كثيرة.. وقد أعاد لجسدها حضور البديهة.. وجعله كتابا مفتوحاً.. يمكن قراءته فى أى وقت.. ومن أى سطر.. وقد شعرت براحة نفسية لم تجدها فى رجل قبله.

وأصبحت قصتها لغزاً بين الناس.. هل تزوجته من أجل الجنس الشرعى؟.. هل وجدت فيه الرجل القوى القادر على السيطرة عليها؟.. هل شعرت أن من الصعب عليها أن تتزوجه وهى فى القمة فنزلت إليه فى القاع؟.. هل صحيح أنها وجدت فى علاقتها به فرصة أن تغسل نفسها طبقاً لقاعدة : سره فى أضعف خلقه؟.. هل كانت تنتظر فرصة ما لتعتزل الفن ووجدت هذه الفرصة على هذا النحو الذى لا تجده عادة إلا فى أفلام السينما المصرية التى تجيد تمثيلها والتى ينتصر فيها الحب على كل الظروف؟.. هل صدقت أخيراً ما تقوم به؟.. هل تمثل دوراً فى الواقع لم تعشه إلا على الشاشة؟.. هل حسم العمر التمزق الذى كانت فيه بين الجنس والصلاة.. بين الحلال الذى كانت تتمناه والحرام الذى كانت غارقة فيها؟.. هل جمعت من المال ما يكفى وأصبح عليها أن تجد رجلاً؟.. مليون علامة استفهام لا تجد حلا..والغريب أنه كلما عرفت المزيد عنها كلما زادت علامات الاستفهام.. ولا أملك سوى أن أقول أن المرأة التى كانت كل خطوة فى حياتها قنبلة مدوية ليس غريباً أن تكون نهايتها قنبلة نووية.. أو يبدو أن علينا أن نكرر أن لله فى خلقه شئون.. أما البشر فلهم الشجون.

****





امرأة إسرائيلية بطعم الحرمان

كان يرفض أن يبقى فى المنطقة الوسطى.. الحرام التى لا يعرف فيها الإنسان هل يحب أم يكره.. هل يوافق أم يعترض.. كان باستمرار فى حالة اشتباك شريف بين كراته الحمراء.. وكراته البيضاء من أجل الحقيقة.

كان لا يقبل النوم.. ولا الإقامة فى القوالب الجبسية الجاهزة.. فهو مرة بحار.. يصارع الموج.. والمجهول.. وهو مرة صحفى يقيم الدنيا ولا يقعدها.. وهو غالباً كاتب روائى.. يعرف كيف يحبس أنفاس الناس.. خاصة عندما تتحول رواياته إلى أفلام.. مثل «الصعود إلى الهاوية» .. أو «الكذاب» .. أو «زقاق السيد البلطى» .. أو تتحول إلى مسلسلات كانت السبب فى انفجار شهرته.. مثل «رأفت الهجان» .. و«الحفار» .. وغيرها من المسلسلات التى تدور فى كواليس الصراع بين المخابرات المصرية.. والمخابرات الإسرائيلية.

وقد كنت أنا وصالح مرسى صديقين.. كنا نشترك فى هوى الإسكندرية.. وفى كراهية إسرائيل.. وفى الكلام بلغة اليد عندما يحتد النقاش السياسى.. لكنه كان يزيد عنى.. حركته الدائمة.. وتدخينه للسجائر والغليون والسيجار معاً.. وفى ضحكته التى تخرج من حنجرة مشروخة بالسهر والدخان وعشق الحياة.. فقد كان يكبرنى بأكثر من ١٥ سنة.. لكنى.. كنت أشعر أنه أكثر شباباً.. وحيوية.

فى القاهرة كانت تبتلعنا الحياة.. ويأكلنا الزحام.. وتعزلنا التفاصيل اليومية.. فكان نادراً ما نلتقى.. وإذا التقينا فعلى عشاء وسط أصدقاء يتحدثون فى غضب عن كل ما يجرى.. وهو غضب كان يفترسنا نحن.. ويترك الذين يسببونه على قيد الحياة.. لهذا يموت الكُتّاب من القهر.. ويبقى الواقع على ما هو عليه.. لكن.. الأيام الحرة التى كنت أعرف فيها صالح مرسى كانت أيام الصيف فى الساحل الشمالى.. حيث كان صالح مرسى يقضى شهور الصيف فى قرية.. «مينا» .. قبل مارينا بحوالى ١٢ كيلومتراً.. كان يسبح.. ويدخن.. ويكتب.. ويسهرحتى الصباح مع أصحابه.. كان يشوى اللحم... ويحل مشاكل الصغار.. ويشترى حلوى المولد للفقراء من عمال القرية.. ويشرف على الزراعة والخضرة فى القرية.. وهى آخر مهمة تولاها فى القرية.. فى نهاية صيف ٩٧.. قطع تذكرة نوم فى اتجاه واحد.. بلا عودة.. فقد ذهب فى النوم ولم يعد منه.. لم يعد للحياة.. كان ذلك فى الفجر.. الوقت الذى ينام فيه الناس عادة فى الساحل الشمالى.. ورحت وأنا أجلس فى صالة بيته الصيفى أتأمل بقاياه.. البايب.. أوراق الفلوسكاب.. حلقات الرواية الأخيرة التى لم تكتمل

والتى كانت تجرى فى مصر.. فى الأربعينيات.. فى الحرب العالمية الثانية والتى كان أبطالها يتحركون ويتآمرون ويمارسون الحب فى أماكن مختلفة مثل القاهرة والإسكندرية.. والعلمين.. بالقرب من مارينا.

كل الأصدقاء.. وغير الأصدقاء مشوا فى جنازته.. لكن.. لا أحد تقريباً عرف من هو هذا الرجل الذى كان يبكى بحرقة.. حتى فى الوقت الذى تراجعت فيه دموع الأصدقاء.. وقد لفت حزنه الشديد الانتباه.. لكن كل الذين تساءلوا همسا عمن يكون لم يعرفوا الإجابة.. وفى العزاء.. وجدت هذا الرجل يجلس إلى جوارى.. وقد كنت فى حاجة أن يذكرنى.. أننا التقينا فى بيت صالح مرسى فى مينا.. ولكنى لم أعطه الاهتمام الكافى إلا عندما قال لى:

– أنا الذى طردت البنت الإسرائيلية من مارينا.

وعندما أبديت دهشتى أضاف:

– وصالح مرسى يعرف كل التفاصيل.

هنا أعطيته كل ما أملك من انتباه.

كان صالح مرسى قد دخل فى حروب شرسة مع المخابرات الإسرائيلية فى أعقاب نجاح مسلسله التليفزيونى عن العميل المصرى فى إسرائيل رأفت الهجان.. وهو اسمه الفنى.. أو رفعت الجمال.. وهو اسمه الفعلى.. أو جاك بيتون.. وهو اسمه الإسرائيلى.. فقد استخدمت الموساد صحيفة معاريف العبرية فى محاولة تحطيم الأسطورة.. ونشرت أن الهجان كان عميلاً للموساد.. وأنها استخدمته فى توصيل معلومات خاطئة.. خادعة إلى المصريين.. كانت السبب فى هزيمة يونيو ١٩٦٧.

بدأت معاريف القصة بالحوار الذى جرى فى المغرب بين نائب الرئيس السادات وهو حسن التهامى ووزير الخارجية الإسرائيلى الأسبق موشى ديان فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٧.. قبل الرحلة الشهيرة التى قام بها السادات للقدس.. قال التهامى:

– إنه يعرف أنه كان لمصر عميل فى إسرائيل على درجة كبيرة من الخطورة.. ظل هناك لأعوام طويلة.. قد أرسل لمصر تقارير مفصلة عن الهجوم الإسرائيلى المتوقع على الجيش المصرى فى الفترة ما بين ٣ – ٦ يونيو ١٩٦٧.

ثم سأل التهامى ديان وقتها قائلاً:

– قل لى بالأمانة.. هل كان جمال عبدالناصر شريكاً لكم فى تلك الفترة؟.. وإلا كيف وقعت الهزيمة وهو يعرف بموعد الهجوم الإسرائيلى؟

وارتعشت شفتا التهامى وقال لديان:

– ذلك الرجل المجنون دفع مصر لحافة الهاوية.

وحسب رواية معاريف فإن ديان لم يجب لأنه كان يعلم الحقيقة وهى أن انتصار إسرائيل فى ١٩٦٧ تحقق بعملية مخابرات محكمة شارك فيها عميل مزدوج.. لعب دوراً ضد المخابرات المصرية منذ عام ١٩٥٧ وحتى عام ١٩٦٧.. ورغم ذلك وُجد فيما بعد العديد من الوثائق الهامة فى خزائن المخابرات المصرية تدل على أن عملية جاك بيتون كانت من أهم وأكبر عمليات المخابرات الحربية المصرية.. بل وعالم الجاسوسية عامة.. وقد أعلنت مصر بعد ١٠ سنوات على حرب ١٩٦٧ عن بطل قومى جديد هو رفعت الجمال.. عمل فى إسرائيل لمدة ٢٠ سنة.. وصل فيها إلى قمة صناع القرار السياسى مع ضباط الجيش الكبار.. ومنهم عميد فى سلاح الطيران الإسرائيلى.. وكلهم أصبحوا من أهم مصادر معلوماته التى أرسلها إلى المخابرات المصرية.. ولقد وصفت الصحف المصرية عملية ذلك العميل بالتفاصيل.. وتحولت القصة الصحفية بعد ذلك إلى كتاب من عدة أجزاء.. كما تحولت إلى مسلسل تليفزيونى نجح نجاحاً فاق كل التصورات والتقديرات.. ورغم ذلك كله لم يشعر ضباط المخابرات الإسرائيلية بالخجل.. بل إنهم شعروا بالارتياح الشديد لمعرفتهم الحقيقة.

وتواصل معاريف:

– وقد بدأت القصة فى مايو ١٩٥٥ عندما وصل لإسرائيل يهودى باسم جاك بيتون.. مهاجر جديد من مصر على ظهر السفينة القادمة من مرسيليا ومعه أوراق مصرية.. وعاش بعدها لمدة عام فى إسرائيل محاولا فتح طريق لأعماله المختلفة.. وفى أثناء ذلك سافر عدة مرات إلى روما.. كان يحصل فيها على أموال.. ثم يعود ثانية إلى تل أبيب.. وفى ليلة ممطرة وباردة اندفعت فرقة من المخابرات الإسرائيلية إلى منزل جاك بيتون فى شمال تل أبيب.. وحاصرت القوات المنزل.. وانتظرت حتى حل الظلام.. وفى منتصف الليل أعطيت إشارة الهجوم.. وفى هدوء صعد الرجال

الشقة ودقوا الباب.. وبعد عدة ثوان فتح الباب جاك بيتون وهو نصف عار فدفعه الرجال لداخل الشقة التى امتلأت بعملاء المخابرات فى الزى المدنى.. وهنا أعلنوا له أنه مقبوض عليه.. ومن حجرة النوم جاء صوت فتاة ترتعش خائفة وهى بملابس شفافة.. واندفع الرجال يجذبونها من الفراش.. وبعد أن ارتدت ملابسها أخرجوها إلى الطريق.. وبعد تحقيق قصير ممزوج بالتعذيب انكسر جاك بيتون وبدأ يحكى حياته وتفاصيل عملية إدخاله لإسرائيل كعميل للمخابرات المصرية.. وقال أنه ولد فى عام ١٩٢٧ فى القاهرة.. أسرته مسلمة.. مؤمنة.. وعندما أنهى دراسته الثانوية التحق بمدرسة البوليس ولكنه تركها بعد عدة أشهر.. وبدأ رفعت - وهذا هو اسمه المصرى - يعمل فى أعمال مختلفة.. منها العمل فى قهوة والده.. حيث تعرف هناك على رجل عمل من قبل فى البوليس السرى المصرى.. وقد طلب منه أن يقدم له تقارير مستمرة عن الشبان اليهود المشتركين فى شبكات صهيونية.. ويتجمعون فى القهوة دائماً.. بدأ جاك يقوى صداقاته مع هؤلاء الشبان اليهود.. ثم طلب ضابط تشغيله المصرى الذى تحدث إليه طويلاً أن يرسلوه بهوية مزيفة إلى إسرائيل كى يصبح عميلاً لمصر بغطاء يهودى.. وحمل اسم جاك بيتون مع تذكرة سفر وتأشيرة إلى روما التى أبحر إليها.. بعد أن تم تحديد أماكن اللقاء بينه وبين ضابط تشغيله المصرى.

وفى روما ذهب إلى القنصلية الإسرائيلية وحصل على تأشيرة مهاجر يهودى جديد إلى إسرائيل.. ومن إسرائيل إلى روما سافر جاك لتسليم تقاريره السرية لرجال المخابرات المصرية الذين زودوه فى كل مرة بالتعليمات الجديدة المطلوبة منه.. وفى حيفا حيث سكن أول وصوله لإسرائيل بدأ يقص لرجال مكتب المهاجرين عن حياته فى مصر.. ثم انتقل إلى تل أبيب واستأجر شقة صغيرة.. وبدأ ينفق الأموال التى حصل عليها من المخابرات المصرية على النساء.. واللهو.. والمتع الأخرى.

وبعد القبض عليه تعاون جاك بيتون بسرعة مع محققى المخابرات الإسرائيلية.. وظهر فى التحقيق ذكاؤه ونبوغه وكفاءته فى عقد الصداقات مع الجميع.. وهنا بدأ المحققون فى استغلاله كى يصبح عميلاً مزدوجاً.. لكنه أبدى تخوفه من أن تقوم المخابرات المصرية بكشفه.. وفى تلك الحالة تتعرض أسرته للخطر فى مصر.. لكن رجال المخابرات الإسرائيلية أمنوا له عمله بكل الوسائل.. وبدأ جاك بيتون يعمل بين مصر وإسرائيل.. وينقل المعلومات الخاطئة التى زودته بها الموساد.. وفى روما

بدأت عملية نقل المعلومات للمصريين الذين كانوا يستجوبونه طوال الليل والنهار.. ثم يطلبون منه كتابة كل ما عنده.. وعندما ينتهى بنجاح - مثل كل مرة - كان يحصل على مبلغ كبير من المال من المخابرات المصرية.. وكان يحصل أيضاً على مبلغ آخر من المال من المخابرات الإسرائيلية.. لينفقه على النساء واللهو.

لكن المشكلة الوحيدة التى قابلت رجال المخابرات الإسرائيلية هى شخصية ذلك العميل غير المستقرة.. ولذلك استعانوا بالمحللين النفسيين أثناء استجوابه.. ونظراً لأنه كان يحترم نفسه.. ويتقمص شخصية البطل.. فقد كان على رجال المخابرات الإسرائيلية إرضاء ذلك فيه.

وفى أكتوبر ١٩٥٦ اشتدت عمليات إرسال المعلومات من جاك إلى مصر.. وقبل بدء معركة (حرب السويس) بأيام، أرسل تقريره عن قرب المعركة.. وعن إعلان حالة الطوارئ فى إسرائيل.. وعن الجنود البريطانيين والفرنسيين الذين شوهدوا فى شوارع تل أبيب وحاناتها.

وطلبت المخابرات المصرية منه الحضور إلى روما.. حيث سئل بشكل مكثف عن تلك المعلومات.. وأخذ يطالب المصريين بمبالغ أكبر.. ولذلك كانت العلاقات بينه وبينهم تسوء جداً من وقت إلي آخر.. لكنهم اضطروا للدفع نظراً لأهمية المعلومات التى يقدمها وعند عودته إلى إسرائيل قال لرجال المخابرات الإسرائيلية: «لقد امتصوا دمى» .. وقدم تقريراً مفصلاً عن أسئلة المصريين وإجاباته عليها.. وبعدها تم الهجوم.

انتهى.

كان صالح مرسى فى الساحل الشمالى عندما طلبنا منه فى روز اليوسف أن يرد على ما قالته معاريف.. وعبر جهاز الفاكس جاء الرد الذى كتبه ونشرناه.. وتصورنا أن بالونة الموساد قد انفجرت وأصبحت أشلاء من المطاط.. لكن.. واصلت الموساد - عبر معاريف - محاولة تحطيم الصورة البطولية التى رسمها المصريون لرفعت الجمال.. أو رأفت الهجان.. وكان أن طلب منا ضابط المخابرات المصرى السابق محمد نسيم.. أو نديم قلب الأسد - وكان المسئول الأول عن عملية الهجان - أن يقول ما عنده.. فهو الوحيد الذى يملك القدرة على الرد.. وفى مكتبى فى «روز اليوسف» قال:

– لو كانت هذه الرواية حقيقية لكشفت عنها إسرائيل فى يونيو ١٩٦٧ بعد لهزيمة مباشرة.. فى ذلك الوقت كانت نفوسنا مكسورة لا يمكن جبرها أو تلصيقها.. وكانت قلوبنا ممزقة لا يمكن ترقيعها.. إن الهزيمة كانت ثمرة شديدة المرارة.. لو كشفت إسرائيل فى ذلك الوقت ما تدعيه الآن لكانت قد أجهزت على ما تبقى منا.. وخاصة أن إسرائيل تفضل استخدام مثل هذه القصص الدعائية لإظهار مخابراتها فى صورة خارقة.. وكان من الممكن نشر هذه القصة – لو كانت حقيقية بعد حرب أكتوبر.. فإسرائيل كانت فى حاجة لرفع روحها المعنوية التى تحطمت فى تلك الأيام.

إن إسرائيل تتحرك الآن كرد فعل لما أحدثه نشر قصة رأفت الهجان.. ذلك البطل المصرى.. الرفيع الكفاءة والمستوى.. الذى عاش فى إسرائيل ٢٠ سنة دون أن تعرف إلا بعد أن أذاعت المخابرات المصرية القصة بنفسها.. ولو كان الهجان عميلاً مزدوجاً كما يدعون فلماذا ظل فى إسرائيل؟.. لماذا لم ينتقل للإقامة فى مصر أو فى إحدى الدول العربية؟.. كيف يكون عميلاً للموساد وهو يعيش فى إسرائيل؟.. إنها أسئلة لا تجرؤ المخابرات الإسرائيلية على الإجابة عنها.. وليست عادة المخابرات الإسرائيلية هذا الانتظار الطويل قبل كشف العملاء المزدوجين..

والدليل على ذلك قصة الجاسوس المصرى كيفوركى يعقوبيان الذى كُشف فى الستينيات فحولوه إلى مهرجان دعائى ضخم ونشروا عنه كتاباً بعنوان «الذئب الوحيد».

كان كيفوركى مصرياً أرمينياً تم إعداده لمدة سنة ونصف السنة وعُرف باسم زكى سليم كيتشوك وبأنه يهودى تركى وعائلته موجودة فى مصر من أيام الحكم العثمانى.. وقد جهزنا كل ما يثبت ذلك.. ثم أرسلناه إمعاناً فى التغطية إلى أمريكا اللاتينية وهناك أقنعه الملحق العسكرى الإسرائيلى فى البرازيل بالهجرة إلى إسرائيل.. وقد قمنا بعملية ختان له فنجح فى التغلغل داخل المجتمع الإسرائيلى.. إلى حد أنه اختير لحمل باقة ورد فى جنازة أحد الشخصيات اليهودية الكبيرة.. وهذا دليل على أنه خدعهم.

لكن زكى سليم كيتشوك أحب فتاة إسرائيلية أخوها ضابط فى الأمن.. وكانت هذه نقطة ضعفه.. وبعد عام ضيقوا عليه الخناق.. وعرفوا أنه الجاسوس.. وبعد

التحقيقات أعلنوا القصة ونشروها وأغروه بالعيش فى إسرائيل بالمال مقابل أن يعمل جاسوساً لإسرائيل.

وفى الكتاب الذى أصدرته إسرائيل عن العملية فى عام ١٩٦٤ اعترفت بأنها عملية تشرف المخابرات المصرية التى واجهت المخابرات الإسرائيلية، وكنا سعداء بهذا التقييم.

والمقصود.. أن إسرائيل لا تتأخر فى الكشف عن العملاء المزدوجين.. أو العملاء الذين يسقطون فى شباكها.. وقد كان رأفت الهجان موجوداً فى إسرائيل قبل كشف قصة كيفوركى بسنوات طوال، فلماذا لم يعلنوا قصته وأعلنوا قصة من جاء بعده.. إذا كانوا قد كشفوه كما يدعون مبكراً؟.. وإسرائيل تفضل كشف العميل عن استعماله كعميل مزدوج.. ولم يكن رأفت الهجان الجاسوس المصرى الوحيد فى إسرائيل فى ذلك الوقت.. وقد تسلمنا كيفوركى يعقوبيان بعد ١٩٦٧ وصارحنا بما جرى له.. وقد حدث لبس متعمد بينه وبين رأفت الهجان.. وهذا اللبس هو العمود الفقرى لرواية معاريف الملفقة.

وكانت الموساد قد طلبت من كيفوركى يعقوبيان العمل لحسابها فى العريش لكن العملية كانت بالنسبة للمخابرات المصرية واضحة.

وقد استغلت الموساد قصة التغطية المصرية ليعقوبيان ونفذتها حرفياً مع جاسوسها إيلى كوهين الذى جاء من أمريكا اللاتينية ونجح فى أن يصبح صديق أمين الحافظ.. ولم يكشف بعد ذلك إلا بالصدفة.

والمعنى أن المخابرات المصرية كان لها السبق فى أساليب تغطية كررتها إسرائيل فيما بعد.

وإسرائيل لا تحتمل الهزيمة.. وكانت قضية الهجان هزيمة.. وفضيحة.. ولو كان الهجان رجلهم فلماذا سافر من إسرائيل إلى ألمانيا.. ومنها إلى مصر ليكون شركة بترول مع بعض الألمان.. لماذا قرر أن يستثمر أمواله فى مصر لو كان عميلاً إسرائيلياً؟.. هل هو مجنون ليضع أمواله فى عرين الأسد؟.. الإجابة قطعاً بالنفى.

وبالنسبة لما يقال عن المعلومات التى سربها لمصر – من خلال الإسرائيليين

– عن حربى ١٩٥٦ و١٩٦٧.. الهجان لم يكن المصدر الوحيد لنا فى إسرائيل كما يتخيلون.. كانت لنا مصادر كثيرة منها ٣ مصادر – أحدها كان الهجان – قدمت لنا المعلومات.. واتفاق هذه المصادر يعنى أن ما أرسلته من معلومات كان صحيحاً.. فكيف يمكن أن تعطى المخابرات الإسرائيلية لأحد عملائها معلومات صحيحة؟

وقد كان الهجان متوتراً أثناء وجوده فى إسرائيل.. وكان يريد العودة.. وطلب ذلك أكثر من مرة.. لولا ضغطى عليه.. وجهاز المخابرات المصرية نفسه عامله ببعض الشك.. لكن كل هذا ثبت أنه غير صحيح.

والسؤال الآن: لماذا سكت الإسرائيليون طوال هذه السنوات؟.. والإجابة المؤكدة أنهم لم يكونوا يعرفون تفاصيل العملية.. كما أنهم اضطروا إلى مزيد من الصمت بعد أن انفجرت القصة.. وزادت قوة الشحن فى الوطن العربى.. وزادت قوة الغضب فى المجتمع الإسرائيلى.. وكان من الصعب أن يردوا فور انفجار القضية.. وكان عليهم الانتظار حتى تهدأ الأمور فيقدموا قصتهم بالصورة التى تحلو لهم.

إن ما يضعف موقف المخابرات الإسرائيلية هو أنه رد فعل.. ولو كانوا قد جندوا الهجان وحققوا معه واعترف.. ألم يسجلوا اعترافاته فى فيلم أو شريط فيديو؟.. لماذا لا يقدمون مثل هذه الوثائق الحية للرأى العام الإسرائيلى ليحسموا الأمر؟..

لدينا قناعتنا ومستنداتنا فى هذه العملية.. ولا أريد أن أتحدث عن حجم المعلومات التى سربها الهجان من إسرائيل إلى مصر.. أريد أن أتساءل: كيف يعيش مصرى كل هذه السنوات فى إسرائيل دون أن يكشفوه؟.. هذه هى قيمة وخطورة الهجان.. وهذا هو سر جنون وغضب إسرائيل.

إنهم لا يمكن أن يعترفوا بأن جاسوساً مصرياً عاش بينهم ٢٠ سنة.. فلا يوجد جهاز مخابرات يمكن أن يعترف بذلك.. ويكفى ذلك لتحطيم هذه الرواية التى أتصور أنهم لن يتوقفوا عن اختراع المزيد من تفاصيلها.. ومهما قالوا بعد ذلك.. لا حاجة بنا للرد.

انتهى ما قاله رجل المخابرات المصرى – الذى أصبح نجماً من نجوم المجتمع – محمد نسيم.. لكن.. ظلت القضية تشغل مجتمع الصفوة والنميمة فى مارينا.. وضاعف من حيويتها وجود صالح مرسى الذى كان ضيفاً يرحبون كثيراً بوجوده

بينهم.. لقد صنع صالح مرسى نجومية رأفت الهجان.. ثم اقتسمها معه.. وفى المقابل حصل على نصيبه من المتاعب التى سببتها الموساد لهما.. فقد راحوا يرسلون له العملاء والصحفيين الإسرائيليين الذين حرفوا كلامه.. وحاولوا تشويه صورته.

لكن.. صالح مرسى ظل يحاربهم حتى النفس الأخير.. إما بالكتابة.. أو بالنصيحة.. النصيحة للرجل الذى كان يبكى عليه بحرقة فى جنازته.. الرجل الذى طرد الفتاة الإسرائيلية من قلب مارينا.

هو رجل هادئ.. رزين.. يتكلم بحساب.. يبتسم أكثر مما يتكلم.. قصير.. يبدو مدكوكاً.. وكأنه كان مصارعاً فى شبابه.. جده كان فلسطينياً.. قتله الإسرائيليون - الذين لا يكف عن وصفهم بالكلاب كلما جاءت سيرتهم - فى حرب ١٩٤٨.. واستولوا على مزرعة الموالح التى يملكها فى حيفا.. واستولوا على البيت الكبير أيضاً.. وهاجر أبوه إلى مصر.. حيث أسرة زوجته التى أحبها وهو طالب فى الجامعة.. جامعة «فؤاد الأول» التى أصبح اسمها بعد الثورة جامعة «القاهرة».. وتخرج فى كلية الآداب.. قسم اللغة الإنجليزية.. ولكنه راح يعمل فى التجارة.. وتصدير الحاصلات الزراعية إلى أوروبا.. الثوم والبصل والبطاطس.. وكان بارعاً فى عمله.. وكثيراً ما كان يضطر للسفر بسببه إلى أوروبا.. ويبقى هناك لبعض الوقت.. ونجح فى خلق علاقات وصداقات قوية مع أشخاص مهمين.. فى معظم العواصم العربية.. وكان من الطبيعى أن يلفت نظر المخابرات المصرية فيما بعد.. وقد راحت لسنوات طويلة تراقبه.. فى مصر.. وفى خارجها.. حتى تأكدت أنه شخص وطنى.. يمكن الوثوق فيه بدرجة كبيرة.. وعندما وجد من يفاتحه فى التعاون معهم.. كاد أن يطير من الفرحة.. فهو يتمنى أن يحرر أرض أجداده.. ويسترد ما نهبه اليهود من عائلته التى تشردت فى أربعة أنحاء الكرة الأرضية.. من السعودية إلى أمريكا اللاتينية.. وهو يحب مصر التى منحته الجنسية.. والزوجة.. والأسرة.. والثروة.. وهو يؤمن بجمال عبدالناصر.. ومستعد أن يموت فى سبيله.. كان يؤمن أنه أخرج العرب من حفلات الزار التى كانوا يعيشون فيها.. وكان يردد أوصافه التى وصفه بها نزار قبانى.. مثل.. جبل الكبرياء.. آخر قنديل زيت كان يضىء فى ليالى الشتاء.. آخر سيف من سيوف القادسية.. الهرم الرابع.. صديق الشمس.. والمعلم الكبير.

لقد قدم خدمات لا تقدر بمال لبلاده فى مواجهة المخابرات الإسرائيلية التى كان

خبيراً بها.. وكانت خبرته تتجاوز خبرة الهواة.. وتتجاوز أحياناً خبرة المحترفين.. وقد أدهشني وهو يتحدث بمعلومات مذهلة عن الموساد.. معلومات لا يعرفها إلا من عاشها.. لا من قرأها.. وقد أعطيته كل ما أملك من اهتمام وهو يقول:

- يوجد الموساد في مبنى إدارى في شارع الملك «سول» في تل أبيب.. في مدخله بنك على اليمين.. وفي الدور الثاني كافيتريا.. ومحلات تجارية أخرى أعطت المبنى صفة المباني العادية.. لكن الموساد كانت مبنى داخل مبنى.. وهو في الدور الأرضي على اليسار.. مسدود بحائط به مدخل صغير يحرسه الأمن.. ولكن الدخول من هذه البوابة الصغيرة يؤدى إلى عالم من الغموض والأسرار.

وتعد الموساد برنامجاً تدريبياً لدفعة جديدة من رجالها كل ٣ سنوات.. ومن بين ٥٠٠٠ شخص يختارونهم.. لا يضمون إليهم إلا ١٥ شخصاً فقط.. ويتم التدريب في أكاديمية خارج تل أبيب عند تل منحدر ينتهي ببوابة يقف عليها حراس.. وتتكون من طابقين.. وفي الموساد كومبيوتر تحتوى ذاكرته على مليون ونصف المليون اسم.. وهو من النوع الذي يسمى البورو.. أما أي شخص يدخلون اسمه في ذاكرته فيسمونه «باها».. والسلاح الرسمي لرجال الموساد هو من طراز «بريتا» عيار ٢٢.. وللموساد مصنع صغير لتزوير المستندات.. جوازات السفر.. العملات.. بطاقات الائتمان.. ورخص القيادة.. وجزء من برامج التدريب محاضرات هامة عن الإسلام والحياة اليومية.. مذاهب الإسلام المختلفة.. وتاريخه.. وعاداته.. وأعياده.. وأتباعه.. والحلال والحرام. حسب شريعته.. باختصار كل شيء عنه وعن أتباعه.. من باب معرفة كل شيء عن العدو.

وتحصل الموساد على ٦٠٪ - ٦٥٪ من المعلومات من وسائل الاتصال المفتوحة.. الصحف والراديو والتليفزيون.. مثلاً.. وحوالي ٢٥٪ من المعلومات يحصلون عليها من الأقمار الصناعية والتلكس والفاكس واللاسلكي.. و٥ - ١٠٪ يحصلون عليها من السفارات.. وما بين ٢ - ٤٪ فقط يحصلون عليها من الهومانت أو العملاء.. والنسبة الأصغر الباقية هي مسئولية المخابرات.

وأهم ما في الموساد هم السايانيم.. أو اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل.. ويساعدون الموساد بالرغم من أنهم ليسوا مواطنين إسرائيليين.. وبسبب السايانيم لا تحتاج الموساد في أي محطة خارجية إلا ستة أو سبعة أفراد فقط.. بينما تحتاج

المخابرات الروسية مثلاً إلى حوالى ١٠٠ فرد فى محطة مثيلة.

بل إن هذا الرجل الذى لا يطيق الإسرائيليين حتى لو كان سيكسب من ورائهم الملايين يعرف كل فضائح قيادات الموساد.. بالاسم .. والتاريخ.. ففى نهاية شهر أغسطس عام ١٩٨٤ .. كان قيادات الموساد الكبار عرايا حول حمام السباحة هم والمجندات الملتحقات بالأكاديمية.. وأعمارهن تتراوح ما بين ١٨ و٢٠ سنة.. وكانت الحفلة تتضمن اللعب فى الماء والرقص والنوم على ملاءات بيضاء يميناً ويساراً فى حالة نشوة فى مشهد يصعب تخيله.. ويبدو أن منطقة حمام السباحة هى أكثر الأماكن أمناً فى إسرائيل .. فلا أحد يذهب إلى هناك إلا إذا كان من الموساد.. والغريب أن مثل هذه الحفلات كانت تجرى فى وجود جواسيس تحت التمرين.. يجلسون أمام هذه القيادات فى اليوم التالى لتلقى الخبرات والدروس.

وكانت هناك فضيحة أخرى.. ففى شمال تل أبيب منطقة تسمى بارباك تنتظر فيها العاهرات الرجال الذين يأتون بسياراتهم ويلتقطونهن ثم يذهبون خلف التلال الرملية يقضون وقتهم ثم يرحلون.. وقد قرر بعض ضباط الموساد أن يأخذوا أجهزة التصوير الليلى ويجلسوا على القمة بالقرب من التلال الرملية.. ويصوروا بنات الهوى فى السيارات.. مستخدمين المعدات الحديثة وعدسات الزووم القوية.. ثم يقومون بالابتزاز.. وكان ضباط الموساد قد تعلموا الدخول على كمبيوتر الشرطة دون علمهم وأتاح ذلك معرفة صاحب السيارة وعنوانه بمجرد معرفة أرقام اللوحات المعدنية.. وبهذه الطريقة يمكن ابتزاز صاحب السيارة أو الاتفاق معه على مبلغ معين مقابل أن يأخذ الصور.

وكانت هناك فضيحة ثالثة.. ولكنها هذه المرة كانت فى الطابق الرابع عشر فى المركز الرئيسى للموساد.. فى «غرفة الصمت» .. وهى الغرفة التى تستخدم فى استدعاء العملاء.. ونظام التليفون فيها يجعل ضابط العمليات الخارجية يطلب عميلاً له فى لبنان مثلاً.. ولكن من يتتبع المكالمة يعتقد أنه يتصل بأى بلد آخر.. غير لبنان.. النمسا.. أو إيطاليا.. مثلاً.. وعندما تكون الغرفة فى حالة استعمال يضاء الضوء الأحمر.. وهو ما يجعل الغرفة مكاناً مناسباً للغزوات الجنسية.. فلا أحد يمكنه الدخول.

وقد خرق أحد قيادات الموساد القواعد وأحضر سكرتيرة إلى هذه الغرفة ومارس

معها الجنس.. وأوهم الآخرين أنه يتحدث مع عميل له فى لبنان.. لكن.. من دخل الغرفة بعده اكتشف وجود ملابس المرأة الداخلية فى مكان ما بالغرفة.. فأمسكوا بها وألقوها فى وجهه.. فكان أن قال: أنه فعل ذلك كى يختبر الطلبة الجدد الذين عليهم الآن معرفة من هى صاحبة الملابس الداخلية.. وبالفعل.. تحولت الملابس الداخلية إلى مادة امتحان.. وتبارى الطلبة لمعرفة صاحبتها.. وقد نجح أحد الطلبة – الذى كان على وشك التخرج –فى التوصل إلى معرفة المرأة.. فكان أن وضع الملابس الداخلية على مكتبها.. وهو يقول لها: هذه لك.. وقد نجح هذا الطالب بتفوق.. وأرسلوه إلى مكتب الموساد فى سفارة القاهرة.

وأصبح هذا الجاسوس فى القاهرة واحدا من الكوميميوت وهى تعنى بالعبرية «الاستقلال والرأس المرفوعة».. وهو قسم سرى جداً فى الموساد ويتعامل مع الجواسيس «المهاجمين» الذين ترسلهم البلاد العربية تحت غطاء محكم.. وفى داخل هذا القسم توجد وحدة صغيرة تسمى كيرون أو السنكى مقسمة إلى ٣ فرق كل فرقة ١٢ فرداً.. إنهم القتلة.. ويسمونهم «الذراع الطولى لعدالة إسرائيل».. وفى العادة يوجد فى إسرائيل فرقتان للتدريب.. وتتوزع الثالثة على الدول المعادية فى الخارج.. ومنها مصر.

ويكاد هذا الرجل أن يعرف كل قصص العملاء العرب الذين يعيشون بيننا.. ولعل أشهر هذه القصص.. قصة دوراق قاسم سائق ياسر عرفات وحارسه الشخصى عندما كان فى بيروت.. لقد جندته الموساد فى عام ١٩٧٧ عندما كان يدرس الفلسفة فى لندن.. ويقال أنه كان رجلاً بشعاً.. جشعاً.. وكان يخبر الموساد يومياً بكل المعلومات من خلال جهاز راديو.. ويتسلم ألفين من الدولارات عن كل تقرير.. وكذلك كان يقوم بتبليغ المعلومات بواسطة الاتصالات التليفونية.. وكان يرسل التقارير بالبريد.. وقد ظهر فى غواصة إسرائيلية كانت مركز الموساد فى بيروت.. وفى الواقع كان دوراق قاسم مع ياسر عرفات كظله.. وكثيراً ما كان يتصل بالموساد من داخل مركز من مراكز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

ويكاد هذا الرجل أن يجزم أن الموساد هم الذين قتلوا رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق إسحق رابين.. صحيح أن متطرفاً دينياً هو الذى أطلق عليه النار.. لكن منذ متى والذى يطلق النار فى قضايا اغتيال الكبار هو القاتل الحقيقى؟.. إن الموساد لم تكن تحب رابين.. فقد كان وهو رئيس وزراء يطلب منهم معلومات طازجة غير

المعلومات المخمرة التى عادة ما تقدم.. وهذا ما جعل موقف الموساد صعباً للغاية فى كثير من الأحيان.. وفى انتخابات ١٩٧٧ لعبت الموساد ضد رابين ودعمت مناحم بيجن.. وذلك بأن فجرت لرابين فضيحة حسابه بالعملة الصعبة فى بنك أجنبى.. إن القانون فى إسرائيل يمنع أن يكون لأى مواطن حساب فى بنك أجنبى فى بلد آخر.. وكانت زوجة رابين لها حساب بمبلغ ١٠ آلاف دولار.. تسحب منه عندما تسافر بالرغم من أنها زوجة رئيس الوزراء وكل مصروفاتها تدفعها الحكومة.. وكانت الموساد تعلم بهذا الحساب.. وكان رابين يعرف أنهم يعرفون.. لكنه لم يأخذ الأمر مأخذ الجد.. وفى الوقت المناسب قدمت الموساد المعلومات والمستندات الدامغة للصحفى المعروف مارجاليت.. وبعد نشر الفضيحة كان من السهل على بيجن أن يسحق رابين.

إن هذا الرجل يعرف الكثير.. وقد أفرطت فى المعلومات التى كان يرويها عن الموساد.. ليس فقط لأنها معلومات مثيرة.. مفيدة.. ولكن حتى تكون صدمته وصدمتنا كبيرة فيما فعله أحد أبنائه الذى كان على أبيه أن يطرده هو والفتاة الإسرائيلية التى جاء بها إلى مارينا.

كان الصيف على وشك أن يبدأ.. وكانت مارينا لا تزال خالية من البشر.. قليل من أصحابها جاءوا يمارسون مغامرات عاطفية خاطفة لا يقدرون عليها فى زحام الصيف.. وكثير من العمال والمقاولين يقومون بالصيانة.. وأعمال المبانى التى يحظر القانون فى الساحل الشمالى القيام بها بعد نهاية مايو.. وكان عمال وموظفو مطعم «سيجال» يلعبون «البلياردو».. وبين ضربات الكرات الملونة كانوا يخدمون زبائن المطعم الذين كانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة.. وعلى بعد أمتار كان سوبر ماركت «باسم» يبيع ويجدد فى نفس الوقت.. إن صاحبه طبيب صيدلى.. له صيدلية فى الإسكندرية يديرها فى الشتاء.. وفى الصيف يدير السوبر ماركت هو وأسرته.. وقد حاول أن يفتح فرعاً آخر فى قرية «جرين بيتش» قبل مارينا بحوالى عشرة كيلومترات.. لكنه لم يجد زبائن يدفعون مثلما يدفع زبائن مارينا.

على شاطئ البحر كان مجموعة من الأجانب يستحمون ويقرءون وقد خلعوا معظم ملابسهم.. أما النساء فقد استلقين على بطونهن.. وخلعن مشبك الجزء

العلوى من المايوه البكينى.. حتى يحصلن على سمرة دون علامات وسمحت أجسادهن الرشيقة.. النحيفة لهن بأن تكون القطعة الأخرى من البكينى فى حجم ورقة البوستة التى تربطها خيوط رفيعة من القماش.

ولا تجذب مارينا الاجانب إلا نادراً.. وفى الشتاء.. تجذبهم أكثر شواطىء العجمى.. وشرم الشيخ.. والغردقة بعيداً عن عيون المتطفلين التى تعرى ما يغطونه.. وتفضح ما يفعلونه.. وتنظر إليهم نظرة لا تخلو من تصورات الانحلال.. فقد أصبح الناس فى مصر يعيشون فى حالة ازدواجية وانفصام فى الشخصية.. يفعلون فى السر ما يستنكرونه فى العلن.. ثم إنهم يريدون سياحاً يعمرون جيوبهم.. لكنهم يتصورون أن دورهم هو هداية هؤلاء السياح وتأديبهم وإصلاحهم حتى يسيروا على العجين دون أن يلخبطوه.

وحدهما كانا يرقدان على الرمال.. كانت ترقد على ظهرها.. وكان هو يرقد على بطنه.. وقد رفع صدره قليلاً واقترب بوجهه من وجهها.. كانا يبدوان للأعمى أنهما فى حالة عشق من النوع الثقيل.. وهو نوع من الغرام يفقد العقل.. والتمييز.. وينسى أصحابه الناس من حولهم.. وكأنهم فى جزيرة منعزلة ليس فيها بشر سواهم.

كانت تشبه نادية لطفى فى فيلم «النظارة السوداء».. الشعر المهمل.. الوجه الجذاب المثير المرهق بالرغبة والسهر.. الجسد المتفرغ للمتعة.. ويبدو حائراً: هل الفم للقبلة أم للطعام.. هل الأصابع للعمل أم للمس.. هل العيون للرؤية أم للنداء.. هل الصدر للمشى أم للضم.. هل الجسد كائن مستقل أم تابع لجسد آخر.

أما هو فكان يشبه أحمد رمزى فى الفيلم نفسه.. لكن كانت شخصيته مختلفة.. فهو لا يكتفى فقط بالمتعة.. وإنما هو يعرف قيمة العمل والنجاح.. وقد رفض أن يواصل العمل فى تجارة الحاصلات الزراعية التى يمارسها أبوه.. واختار العمل فى السياحة.. هو يفهم فى البشر أكثر من الثوم والبصل.. ويعرف كيف يخرج منهم الأموال.. وهم سعداء.. وهذا هو فن السياحة.. كيف تجعل بشرا حريصين على المال ينفقون ببذخ وبلاهة وهم مسرورون.. فإذا عادوا إلى بلادهم.. كان لكل شىء بسيط اشتروه ذكريات جميلة.

تخرج فى الجامعة الأمريكية.. واقترض من أبيه مليون دولار.. ودخل شريكاً فى فندق صغير فى شرم الشيخ.. وراح فى أوروبا يتعاقد على الأفواج السياحية.. وفى خلال سنتين أعاد القرض. إلى أبيه دون فوائد.. اعتبر الفائدة هدية.. وابتسم الأب.. لكنه سرعان ما اكفهر الوجه عندما وجد ابنه يعتذر عن الزواج للمرة العاشرة.. إن الابن لا يحتاج إلى الزواج.. فهو فى عمله مثل البحار.. كل ميناء امرأة مختلفة.. ووجبة مختلفة.. فهو مرة يأكل امرأة سويسرية مثل الشيكولاتة.. ومرة يأكل امرأة فرنسية مثل الجبن.. ومرة يأكل امرأة أفريقية بطعم الموز.. ومرة يأكل امرأة مصرية بطعم الملوخية.. فلماذا لا يأكل سوى نوع واحد من الطعام.. أو من النساء.. هو يريد أن يعيش فى عالم «أوبن بوفيه» من النساء.

ولكنه.. لم يستمر فى ذلك كثيراً.. فقد وجد نفسه فى شباك امرأة إسرائيلية.. كانت بطعم الحرمان.. وجدها فى فندقه.. ثم فى حجرته.. ثم فى حجره.. دخلت كسمكة وحيدة إلى مياهه الدافئة.. وبقيت فيها.. إنها ابنة يهودى من أصل أمريكى.. عرف كيف يحول إسرائيل إلى منجم ثروة من خلال بورصة الماس الصغير الذى تشتهر تل أبيب بقطعه وتصديره إلى العالم.. وقد تزوجت صغيرة.. ثم دفعت الكثير حتى استردت حريتها.. فقررت أن تستمتع هى الأخرى بطعم الرجال.. رجل بطعم القوة.. ورجل بطعم القسوة.. ورجل بطعم الحنان.. لكنها وجدت فيه كل هؤلاء الرجال.. فبقيت أسبوعاً.. ثم شهراً.. ثم سنة.. وهو أدمنها كما أدمنته.. وتفرغ لها كما تفرغت له.. ولم يكن يخشى فى هذه العلاقة سوى أبيه.. إنه يعرف أن أباه لا يطيق سيرة الإسرائيليين. ولا تأتى سيرتهم إلا وينعتهم بأحقر الأوصاف.. كلاب.. أنجاس.. سفلة.. قتلة.. وهو يعرف أن بين أبيه وبينهم ثأراً قديماً.. ودماً لم يجف رغم مرور السنين.. لكنه يشعر أن الإسرائيليين ليسوا كما يصورهم أبوه.. هو لم يحاربهم.. ولم يقاتلهم.. لكنه يعرفهم من خلال الفندق الذى يشارك فيه.. ثم إن هناك سلاماً.. ربما كان سلاماً بارداً.. لكنه سلام.. والسلام.. وربما أزعجه كثيراً أن الإسرائيليين يشعرون بالندم لأنهم انسحبوا من سيناء.. وهم يعبرون عن ذلك بصراحة معلنة.. ويسعدهم أن يدخلوا سيناء بدون تأشيرة.. وينتقلون إليها بالسيارات وكأنهم فى إسرائيل.. ولكنه فى الوقت نفسه يراهم يأتون لسيناء من أجل تدخين الحشيش.. البحث عن رجال سواء لنساء يعانين من الوحدة.. أو لرجال يعانون من الشذوذ.. وربما كان النوع الأخير هو الأكثر شيوعاً.. وقد يأتى

الإسرائيليون إلى سيناء فى جماعات تحتفل بالجنس أو بالزواج أو بالبكاء على سيناء احتفالاً مغلقاً عليها.. ولكن معظم السياح الإسرائيليين لا ينفقون كثيراً فى سيناء.. فهم يحضرون كل ما يحتاجونه معهم من إسرائيل.. وأحياناً يستخدمون دولارات مزورة.. وأحياناً يبيعون بعض ما يحضرونه من أشياء لتغطية نفقاتهم فى سيناء.

لكنه يشعر أنها إسرائيلية من نوع خاص.. مميز.. ولكنه.. لا يقدر على أن يبوح بعلاقته بها لأبيه.. ولكن خصومه فى الفنادق الأخرى فهموا نقطة ضعفه.. فقرروا القضاء عليه منها.. فراحوا يصورونه معها فى أماكن مختلفة.. وأرسلوا الصور لأبيه.. وليس من الصعب أن نتخيل ثورة الأب.. وغضبه.. لكننا قد لا نتصور أن الثورة وصلت إلى حد المطالبة بأن يترك شرم الشيخ.. ويبيع نصيبه فى الفندق.. ولا يذهب إلى سيناء مرة أخرى طالما يذهب اليهود إليها.. ويتنفسون فيها..

ولم يقدر الابن على الوقوف فى وجه غضب الأب.. وأقنعه أنه سيأخذ إجازة بعيداً عن شرم الشيخ.. سيقضيها فى مارينا.. وسافر الأب معه إلى مارينا.. وبقى هناك أكثر من شهر.. ثم ترك ابنه بمفرده.. لكنه لم يبق بمفرده سوى ١٥ ساعة فقط.. فقد جاءت إليه امرأته الإسرائيلية التى كانت تنتظر الاستدعاء.. ولا أحد يستطيع أن يجزم هل كانت هى أول إسرائيلية تدخل مارينا.. أم سبقتها غيرها؟.. لكن المؤكد أن الناس الذين كانوا فى ذلك الوقت فى مارينا لم يميزوا جنسيتها.. وقد كانت فى غاية السعادة أنها تجاوزت الحدود المسموح بها فى سيناء وجاءت إلى الإسكندرية.. ومنها إلى مارينا.. وقد أصابها الذهول مما رأت من قصور.. وشواطىء.. وترف لا يوجد مثيل له حتى فى الشواطىء التى يسكنها الأثرياء فى فرنسا.. ولم تتردد فى أن تخلع ملابسها وتنزل البحر بعد دقائق معدودة من وصولها مارينا.. وفى البحر أحست أنها تملك كل شىء فى مصر.. حلم اليهود الذى لم يمت منذ خروجهم أول مرة أيام النبى موسى.. وقد ادعوا أنهم هم الذين بنوا الحضارة الفرعونية.. وروجوا لادعاءاتهم بالكتب والأفلام والتصريحات السياسية.. لقد كذبوا وصدقوا أنفسهم.. وصدق العالم معهم.. ولم يبق سوى أن نصدق نحن ذلك.. فكثير من أكاذيبهم صدقناها.

ليس من الصعب أن نستنتج أن الأب عرف أن عشيقة ابنه الإسرائيلية قد وصلت مارينا.. أراد أن يمنعها عنه فى شواطىء البحر الأحمر.. فجاءت إليه فى شواطىء

البحر الأبيض.. جاءت من البعيد إلى القريب.. ومن منطقة لا يعيش فيها المصريون إلى منطقة يسكنها أقرب الناس إليه.. إن القيامة يجب أن تقوم.. أو الذبحة الصدرية يجب أن تخنق قلبه.. أو الجلطة يجب أن تسد شرايينه وتصيبه بالشلل.. لماذا لا يموت قبل هذا اليوم؟.. لكنها لم تكن المرة الأولى التى تمنى فيها الموت.. لقد تمناه يوم سافر السادات إلى القدس.. ويوم وقعت مصر معاهدة الصلح مع إسرائيل.. ويوم رفع علم الدولة العبرية فى سماء القاهرة.. فى مواجهة تمثال نهضة مصر.. لماذا لا يأتى الموت عندما نريده.. لماذا لا يأتى لأسباب وجيهة؟

ولم يشعر الأب بنفسه وهو يقود سيارته بسرعة جنونية إلى مارينا.. وبين وقت وآخر كان يطمئن على أن مسدسه فى جيبه.. يجب أن تخرج هذه العاهرة من مارينا فوراً.. وبالعافية.. ولو اضطر أن يقتلها ويقتل ابنه لن يتردد.. لكننا نحن قد أخطأنا أيضاً فى حقوق أبنائنا.. فقد قلنا لهم أن السلام سيحل كل مشاكلنا.. وسيطعم الجائع.. ويحيى الموتى.. ويشفى الأبرص.. ويغرق الفقراء فى بحار من الحليب والعسل.. لم نقل لهم أن إسرائيل مجتمع خشن مثل القنفذ البرى.. لا يفتح للسلام بمجرد الطرق على الأبواب.. ولم نقل لهم أن مشاكل السلام أصعب من مشاكل الحرب.. وأن الذين التهموا الأرض يفكرون فى التهام الزرع والحرث.. لكن كل ذلك لا يهم.. ما يهم هو تاريخه الشخصى.. كفاحه.. أدواره.. أحلامه.. كيف يمكن أن تشطبه عاهرة إسرائيلية فى لحظات غيبوبة تدخلها هى وابنه؟.. لقد فشل فى كل شىء.. هو يستحق الموت قبل أى شخص آخر.. هو الذى فشل فى نقل مشاعر الكراهية والعداء إلى ابنه.. هل ابنه هو ابن حرام.. أم هو أب فاشل.. أم أن الدنيا تغيرت؟

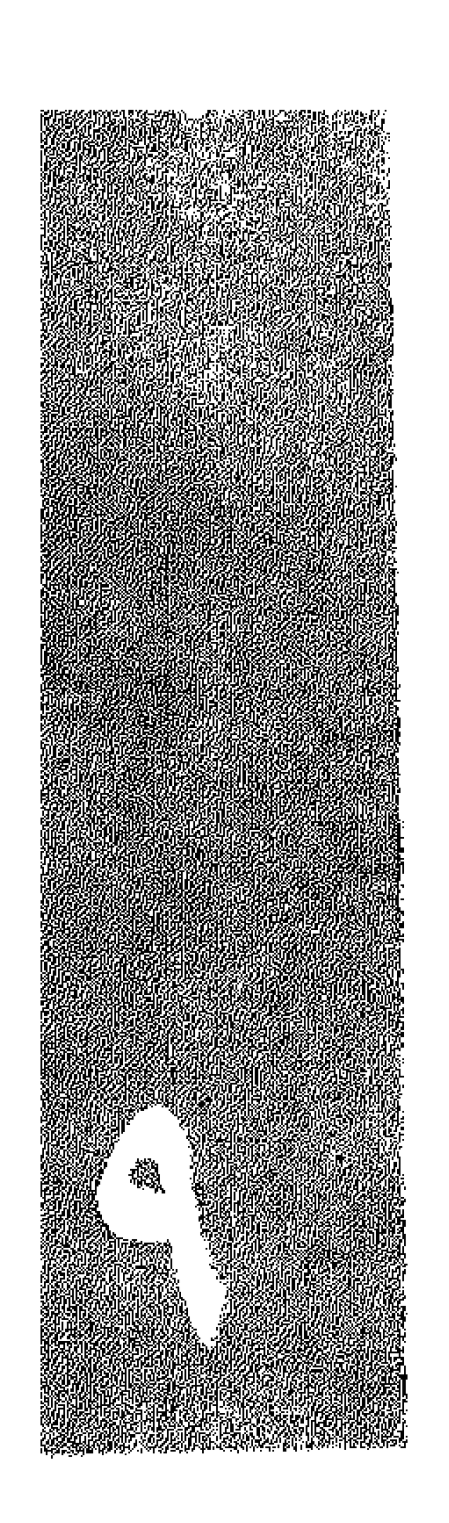
وشاهد عمال النظافة فى مارينا مشهداً لم يروه من قبل.. شاهدوا هذا الرجل الوقور.. الكريم.. الطيب الذى لا يسمعون حسه وهو يجر فتاة عارية تقريباً من شعرها.. ويسحبها.. ويجرجرها حتى السيارة.. وشاب بالمايوه يجرى خلفهما.. وهو يحمل بين يديه سجادة يحاول بها أن يغطى المرأة العارية.. ويسترها.. ولكن عندما اقترب الشاب من الرجل الوقور والمرأة العارية وكاد أن يغطيها.. أخرج الرجل الوقور من جيبه مسدساً.. وهدد الشاب بالقتل لو لم يبتعد عن وجهه فى هذه اللحظة.

ووضع الأب المرأة فى المقعد الخلفى للسيارة.. وكأنها جثة هامدة.. وقاد السيارة بسرعة مذهلة.. وكاد أن يحطم بوابة الخروج من مارينا لولا أن فتحوا له البوابة دون تردد.

وجرى الابن ليركب سيارته.. وليلحق بأبيه قبل أن يتهور.. ويرتكب جريمة قتل.. لكن أغلب الظن أن الأب كان يعرف بحسه الأمنى أن الابن سيلحق به.. فاتجه إلى طريق مرسى مطروح.. لا إلى طريق الإسكندرية.. وبعد أن تأكد أن الابن فقد أثره.. عاد إلى الإسكندرية.. ووضع الفتاة اليهودية فى مكان آمن.. أو «سيف هاوس» بلغة المخابرات.. ثم استخدم كل ما يعرف من علاقات.. وما يملك من تاريخ ونفوذ فى ترحيلها خارج البلاد.

لكن ذلك لم يكن السبب الذى جعله يبكى بحرقة على صالح مرسى.. كان هناك سبب آخر أصعب وأشد.. سبب يرقى إلى مرتبة الصدمة فوق الصدمة.. والكارثة فوق الكارثة.. والمصيبة فوق المصيبة.. فقد اكتشف الرجل الوقور الذى عاش حياته على ذكريات قتاله الإسرائيليين بالطرق السرية أن ابنه.. فلذة كبده.. نهاية مشوار عمره قد أنجب من هذه المرأة الإسرائيلية طفلاً فى الحرام.. يعيش الآن فى إسرائيل.

....



الجنس في صفيحة قمامة

يهوى الناس فى كلامهم صيغة أفعل التفضيل.. فيقولون.. الأكبر.. والأخطر.. والأعظم.. والأغنى.. والأقوى.. والأجمل.. والأشطر.

إنها صفات مطلقة لبشر هم بالطبيعة محكومون بالعجز والقصور وعناصر الفناء.. لكنه الإنسان الذى يوهم نفسه بأنه سيد الكون.. ولو كان الأمر بيده لقال أنه الواحد القهار.. الذى لا يشق له غبار.. وحاكم الليل والنهار.

ليست هذه فلسفة.. ولكنها مقدمة جادة لسهرة ساخرة من سهرات مارينا.. لم نجد فيها ما يقتل الملل سوى أن نطرح سؤالاً لا إجابة واحدة عليه هو: من هو أسوأ شخص فى مصر؟.. كنا فى بيت هانى عنان.. أصدقاء قدامى من أيام الجامعة.. نرى فى العلاقة القديمة علاقة متينة.. ونشعر ونحن نتعامل مع بعضنا البعض أن الزمن الجميل الذى التقينا فيه يخفف عنا قسوة الزمن الردىء الذى نعيشه الآن.

كنت أنا وهانى عنان قد تعارفنا فى سنوات الغليان التى عرفها شباب مصر بعد هزيمة يونيو.. هو فى كلية الطب وأنا فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. جمعتنا الأحزان المشتركة لجيل كان على موعد مع الانتصار فوجد أمامه وفى انتظاره الانكسار.. كان فى حالة انبهار.. فغطاه الغبار.. جيل كان يؤمن بأن الإنسان الذى لا يعرف متى يثور.. وكيف يثور.. هو حجر ملقى على كتف الطريق.. لم نكن نلبس ثياب الأئمة والوعاظ.. ولم نتغرغر بخطب تبدأ بنصف دستة حكم مأثورة تحمل رطوبة التوابيت.. وإنما كنا نؤمن فى أذهاننا الصغيرة بأن من حق هذا الوطن أن نموت فى سبيله دون طعن أو نقض أو اعتراض.

كنا نحلم بأن يخرج العسل من البصل.. والريحان من الجنان.. والخير من الشر.. والحرية من الفاشية.. والحب من جبهات الحرب.. وأن يمتزج الرغيف بالشرف العفيف.. كنا نحلم أن ننفع الدنيا.. بشىء.

وقد فرقتنا الأيام.. رحت أرنو إلى بلاط صاحبة الجلالة بخشوع.. كاشفاً صدرى للخناجر.. وقد تعلمت من الطعنات أكثر مما تعلمت من القبلات.. ووجد هانى عنان نفسه فى تحديث العيادات والمستشفيات بالأجهزة الطبية المتطورة.. وراح

يعمل فى هذا البيزنس الذى كان فى حاجة إلى جيل جديد من رجال الأعمال يفهم فى السياسة قبل الثروة.. سنوات طوال فرقتنا ربما حوالى ٢٥ سنة.. وعندما التقينا بعد كل هذا الزمن لم تكن أشياء كثيرة قد تغيرت.. أو على الأقل كان من السهل أن نتفاهم – بحكم التاريخ القديم – أسرع.

وقد عوضت الأيام الضائعة بيننا رحلة لا أنساها إلى شرم الشيخ فى نهاية نوفمبر ١٩٩٦ قبل ساعات من تفجير واحدة من أشهر معاركى الصحفية.. معركة «فضيحة على النيل».. وهى التى عرفت أيضاً باسم قضية «ممدوح الليثى».. كنت متردداً فى تفجير القضية.. الفضيحة.. والسباحة ضد التيار فى بحار عميقة تمتلىء بالدوامات والحيتان وأسماك القرش.. ولكنى.. كنت فى نفس الوقت لا أستطيع تجاوزها.. فأنا أومن أن الكتابة إذا نزعت عنها صفتها التحريضية تحولت إلى رغاوى صابون.. الكتابة تحرضنى على نفسى.. وعظامى.. وواقعى.. وعلى أوكار الوطاويط التى تعشش فى حياته.. الكاتب يأتى ليغير وجه المجتمع.. فإذا بقى المجتمع على حاله المر فما الفائدة من الكاتب؟.. إن أى كرسى من الخشب الرخيص يكون عندئذ أهم ألف مرة منه.

وحتى أحسم الصراع وجدتنى أقبل رحلة بالسيارة مع هانى عنان إلى شرم الشيخ.. وفى الطريق كان علينا تقريب المسافات التى تباعدت.. فرحنا نتذكر كيف حاولنا بعد الهزيمة أن نحطم الأصنام.. وكيف أن الأصنام لم تتحطم وإنما تغيرت.. فلم يبق لنا سوى الحنين إلى ماكان دون أن نفقد الإيمان بأن التغيير قد يبدأ من الأشياء الصغيرة.. فالبحر الكبير أصله نقطة.. والزمن الطويل أصله ثانية.. والفكر العميق أصله كلمة.. والتغيير الحاد أصله حركة فردية. والضوء المبهر أصله شمعة أو عود كبريت علينا أن نشعله بدلاً من أن نلعن الظلام.

وقد ساعدنى ذلك على قبول المعركة.. لكن ما حسم ترددى هو أننا رحنا نختبر ذاكرتنا التى حفظت منذ زمن بعيد رباعيات صلاح جاهين.. قال هانى واحدة:

ولدى.. إليك بدل البالون ميت بالون

انفخ وطرقع فيه على كل لون

عساك تشوف بعينيك مصير الرجال

المنفوخين فى السترة والبنطلون.

وقال هانى واحدة أخرى:

كروان جريح مضروب بشعاع من قمر

سقط م السموات فؤاده انكسر

جريت عليه قطة عشان تبلعه

أتاريه خيال شعرا ومالوش أثر.

وقلت أنا واحدة:

إنسان .. يا إنسان ما أجهلك

ما أتفهك فى الكون وما أضألك

شمس وقمر وسدوم ملايين نجوم

وفاكرها ياموهوم مخلوقة لك؟

وعندما نطقت بهذه الكلمات التى أنقذنى بها صلاح جاهين كان الكون من حولنا فى حالة صلاة.. ليست الجبال متشابهة.. ولا النجوم مثل حبات الأرز.. والبحر يفرض ألوانه كما يشاء.. والخضرة قادرة على فرض إرادتها على الصحراء والعطش أحياناً.. وعلى هذه الرمال التى لا تنتهى عاش أنبياء وجنرالات قالوا كلمتهم ومضوا.. أو قاتلوا معاركهم وذهبوا.. وتحولت دماء الشهداء إلى عيون مياه.. فلماذا لا نقول كلمتنا.. أو نكتبها وليكن ما يكون.. ما فى قلبى من كلام يجب أن يخرج.. وحالة الخوف يجب أن تتوارى.. والفضيحة التى جرت على النيل يجب أن تدوى.

وهكذا.. شاركنى هانى عنان المعاناة النفسية التى سبقت تفجير القضية.. ولا يزال هو يحتفظ بالنسخة الأصلية من المقال الذى أرسلته للنشر.. بالفاكس.. وفى الصيف التالى كانت القضية حديث مارينا.. والموضوع الرئيسى فى سهراتها.. كذلك.. كانت كل القضايا الأخرى التى فجرناها فى روز اليوسف.. مثل قضية المهندس عبد الوهاب الحباك التى استخرجت منها لفظ الحباكون.. أى الذين ينهبون

المال العام.. وقضية المعارضة فى الكنيسة المصرية التى ساهم فى تنشيطها الدكتور ميلاد حنا.. إن فى مارينا جماعات كبيرة من الناس تهتم بكل جراح وأفراح الوطن.

لكننا فى تلك الليلة التى كان يسيطر فيها الضجر.. رحنا نسلى أنفسنا بالسؤال عن أسوأ شخصية فى مصر.. وكان الذين يجيبون هم مجموعة من الشخصيات العامة التى تملك ذلك.. منهم هالة سرحان.. وميلاد حنا.. وهالة صدقى.. ونصيف قزمان.. وطارق حجى.. ومحمد هانى.. وعمرو خفاجى.. وأطباء.. ورجال قانون.. ورجال أعمال.. وربما نسيت فى زحمة السهرة أسماءهم.

وراح كل واحد يختار اسماً معروفاً ويرشحه للقب الأسوأ فى مصر.. وزير بقى فى السلطة طويلاً.. صحفى يكتب بقلب يقطر عدمية وإهانة للشعب المصرى.. ورجل من الرجال الذين يتشحون ويتاجرون فى الدين.. ونجمة سينمائية أعلنت عن أن من يريدها يجب أن يدفع فيها الملايين.. ومنتج تليفزيونى كان يتاجر فى اللحم الأبيض.. ويصدره إلى بلاد النفط.. ورجل أعمال استخدم الدين فى الحصول على صفقة كبيرة.. كسب من ورائها مئات الملايين.. وممثلة سينمائية اقل ما توصف به هو أنها كريهة.

وجاء الدور علىّ لكى أختار.. واخترت محامياً شهيراً.. لا يوجد شىء مهين فى حياته الخاصة ولا فى حياتنا العامة لم يرتكبه.. أو لم يفعله.. وانفجر الجميع بالتأييد.. إلا سيدة رقيقة.. جذابة.. لم تتكلم طوال السهرة.. هى وحدها التى لم توافق.. لكنها.. أيضاً لم تعترض.. وكل ما فعلت هو أنها انسحبت فى هدوء.. ولم يلحظ سوى قليل جداً من الحاضرين أن الدموع برقت فى عينيها.. وكان من سوء حظها أن كان القمر أقرب إلى الاكتمال.. ففضحها.

لم يفتنى مشهد الانسحاب.. وشعرت بغريزتى الصحفية أن وراء هذه المرأة قصة هى فصل فى السجل الأسود لذلك الأسوأ.. لكننى لم أتقبل هذا التصور بسهولة.. فهى من النوع الذى يقول للحب.. كن.. فيكون.. وهى من النوع الذى لا يجرؤ رجل مهما كان قاسياً على أن يمارس معها القمع العاطفى.. وهى من النوع الذى تسارع عندما تراه إلى ضبط تقويمك العاطفى على مشاعره.. هى امرأة تتبختر

لو وجدت نفسك فى أحضانها.. وتصر لو أحببتها أن هناك حباً أكبر تستحقه.. وعمرا أطول معها لم تعشه.

على أن الزحام لم يتح لى أن أتأملها أكثر.. ودفعنى الحظ أن أراها وهى تستحم بالقرب من منطقة نادى السيارات.. لكنها أعطتنى ظهرها.. فتصورته حياء.. ولم أتصوره هروباً.. واستمرت على هذا الهروب كلما تقابلنا صدفة.. دون أن أعرف سبباً.. أو تفسيراً.. وهو أمر لا تملك سوى أن تحترمه حتى لو لم تتفهمه.. ثم إنه يجب فى النهاية أن تنساه.. وتنسى صاحبته.. وتنسى كل ما أحاط به وبها.

لكن.. ما كاد الصيف يلملم أحواله ومتاعه وحاجاته ليسلم عهدة الدنيا للخريف حتى وجدتها أمامى.. عشرات التليفونات التى لا ترد سبقت هذا اللقاء.. خطوة للأمام وأخرى للوراء.. حتى كنا وجها لوجه.. كانت مختلفة هذه المرة.. فى كامل أناقتها.. كانت تعرف كيف يتناسب أحمر الشفاه مع لون الفستان.. وكيف يجرى لون الجفون حواراً مع تسريحة الشعر.. وكيف تتحرك أصابع يدها مع طول فستانها.. عطرها كان ناعماً.. لكن يصعب نسيانه.. وصوتها يبدو مرتعشاً.. وعيناها فيهما نوع من الخجل لا تراه إلا فى عيون المرأة الصغيرة التى فى طريقها إلى أول تجربة فى حياتها.

كانت تريد أن تعرف حيثيات حكمى على هذا الرجل بلقب الأسوأ.. وكنت أريد أن أعرف لماذا شعرت بالانقباض والتوتر عندما جاءت سيرته.. ما هى علاقتها به.. وكيف يمكن لامرأة بهذا الرقى أن تعاشر رجلا بهذه الوقاحة؟

إنه لم يترك رذيلة واحدة لم يستمتع بارتكابها.. فهو قواد للأمراء العرب.. ونصاب يستخدم القانون ببراعة.. ويورد البنات الصغيرات لمدير البنك الأجنبى الذى يعمل مستشاراً قانونياً له.. يقوم بكتابة عقود الزواج السرية.. ثم يقوم بتمزيقها.. وغالباً لا يكتبها إلا من نسخة واحدة ويستغل التوكيلات فى الإثراء على حساب موكليه.. ويمكن أن يبيع مستندات القضايا لمن يدفع أكثر.. ويستغل كل ثغرات القانون وحيل المحامين فى كسب القضايا.. ولا يتردد فى أن يحرر عقود الشركات الإسرائيلية التى حاولت اختراق السوق المصرية.. وكان يتنافس على قضايا الجواسيس

الإسرائيليين.. لكنه لم يحظ بواحدة منها.

وهو يفخر بأنه شارك فى إحدى حفلات الجنس الجماعية التى يقيمها الإسرائيليون فى جنوب سيناء.. وقد فضحته صحفية إسرائيلية كانت هناك.. ووصفت ما جرى.. وكررت اسمه أكثر من مرة.

لقد نظم الرحلة من إسرائيل يهودى عمره ٣٥ سنة اسمه جادعونكسى.. وهو خبير فى التدليك وعلاج الضعف الجنسى بالوسائل الطبيعية.. وكان معه طبيب نفسى اسمه سول.. وكان المقابل ١٠٠٠ دولار لكل رجل وامرأة يأتيان معاً.. وذلك لمدة ثلاثة أيام.. تقضيها المجموعة فوق سجاجيد بدوية مفروشة على رمال الصحراء ويتدلى من فوقها قماش الخيام الذى كان يصدر أصواتاً بسبب اصطدامه بالرياح.. لكن لا أحد كان ينصت لهذه الأصوات.. لأن كل شخص كان مشغولاً بالأجساد العارية الممددة – مثل أكوام اللحم – حوله.. ومشغولاً بتعليمات التدليك والعلاج النفسى.. إن خبير التدليك يبدأ بنفسه ويطالب الآخرين بأن يلمسوه بأى جزء من أجسادهم.. وأن يستمتعوا بذلك.. ويعبروا عما يشعرون به علنا وبصوت مرتفع.. ثم يتركونه ليعيدوا التجربة مع بعضهم البعض.. ومن التدليك إلى الملامسة.. ومن الملامسة إلى القبلات.. ومنها إلى ما هو أبعد.. ويتكرر السيناريو.. لكن مع شخص آخر.. ليس شرطاً أن يحبه أو يعرفه أو يريده.. الشرط الوحيد أن يكون الجنس على أرض صلبة حتى يشعر الجميع باللذة التى تشعر بها الثعابين.. وبين المساج والمساج يجلسون ليتحدثوا بشكل جماعى وهنا يأتى دور الطبيب النفسى الذى لا يكف عن ترديد: أن الحب بدون ملامسة لا يمكن أن يكون حباً.. ثم طلب منهم أن يرقصوا بطريقة «البيودانس» وهى طريقة يقول أنها تنشط الهرمونات عند الرجال والنساء.. وقبل أن تبدأ حفلة جنسية أخرى يروى كل شخص أجمل تجربة عاشها فى الجنس.. ويتمنى أن يكررها الآن.. ويجرى كل ذلك بينما يقوم صاحب الخيمة – وهو بدوى مصرى – بإعداد الطعام.. ولف السجائر المحشوة بالحشيش.

لقد عاش هذا المحامى المصرى التجربة التى كشفتها صحيفة يديعوت أحرونوت.. لكنه لم يشعر بالفضيحة مما قرأ عنه.. بل إنه كان يفخر به.. وصوره أكثر مع صورة وزعها مع ترجمة إلى العربية على أصحابه.

ارتعشت ملامحها وهى تسمع التفاصيل.. لكن المفاجأة أنها قالت:

– هذه قصة حقيقية.. وقد سمعتها منه بنفسى.

وأُسقط فى يدى.. وشعرت أنا بالارتباك هذه المرة.. بل وشعرت بالخجل أيضاً. لقد ذهبت إلى مكتبه فى جاردن سيتى بعد أن توفى زوجها بسنوات طوال فشلت خلالها فى حل مشاكلها التى خلفها لها ميراث زوجها.. كانت هناك مشاكل قانونية صعبة بينها وبين أشقاء زوجها.. ونصحها أقاربها باللجوء إليه.. فهو محام لبعض المشاهير ونجوم السينما والصحفيين الكبار.. وله علاقات قوية.. وهامة.. وهى أشياء لا يمكن الاستهانة بها فى بلد تتعامل مع القانون كما تتعامل مع كل شىء قابل للبيع والشراء.. ودخلت عليه مكتبه.. المكتب فيه صور بناته وأولاده.. وصورة للكعبة.. وصورة للمسجد الأقصى.. ولوحة من لوحات الفنان سيف وانلى أخذها بقية أتعاب من امرأة رفضت أن تدفع الثمن من جسدها.. وراحت تتأمله.. هو فارع الطول.. يدخن السيجار.. شديد الأناقة.. يسرح شعره إلى الوراء.. يضع خاتماً من الماس فى أصغر أصابعه.. أملس الوجه.. والصوت.. صوته مثل فحيح الثعبان.. يتناول الويسكى فى أقداح صغيرة بدعوى أنه مريض بالقلب.. ويقول أنها نصيحة الأطباء حتى لا يصاب بجلطة.

قلت لها:

– لقد وقعت فى شر أعمالك.

أحنت رأسها.. وهمست:

– لقد ترددت كثيراً فى أن أبوح لك بما فى صدرى.. إننى أشعر برغبة فى فقدان الذاكرة.. بنسيان هذه العلاقة القذرة.. أعرف أنك قادر على اختراق قلب الأشياء.. وكشف معادنها.. وأعرف أنك لا تأخذ بظواهرها.. وأنك لن تسارع بإطلاق الأحكام المتسرعة التى يهواها ويحترفها الناس عادة دون أن يفكروا.. أو يتأملوا.. ودون أن يعطوا المذنبين فرصة الدفاع عن أنفسهم.. وتبرير تصرفاتهم.. هم يفرضون أقصى العقوبة.. وأنا أطالب بالرحمة.

حاولت أن أهرب من هذا المأزق النفسى الذى وجدت نفسى فيه.. كان على الهروب من الحكم بالبراءة فى جريمة تؤدى إلى حبل المشنقة.. كان على إصدار هذا الحكم قبل أن أفحص القضية.. فقلت فى سخرية عابرة:

– يبدو أن لغته القانونية أثرت عليك؟

فقالت:

– أنا لم أتعلم منه سوى لغة العاهرات وأفلام البورنو.

وسكت.

لكنها استطردت:

– لغة القانون.. ولغة الحياة.. تعلمتها من زوجى الأول.

ونطقت باسمه.

وبهت .

زوجها كان واحداً من أشهر المحامين الناصريين.. كان يؤمن بأن الله فى السماء.. وجمال عبد الناصر فى الأرض.. كان من القلائل الذين ظلوا يصفونه بالزعيم الخالد بعد أن مات وأصبحت سيرته تهمة وجريمة.. وقد واجه الانقلاب الحاد الذى قاده أنور السادات فى مايو ١٩٧١ ووضع بعده كل رموز ورجال عبد الناصر فى السجن.. ثم وجد نفسه يغادر القاهرة إلى بيروت وكانت هى معه.. وكان معهما بناته الثلاث.. وكن أطفالاً.. وكانت الصغيرة لا تزال رضيعة.. وفى بيروت مارس المحاماة والسياسة.. لكن.. بيروت سرعان ما بدأت تفقد طبيعتها المتسامحة والمتفتحة.. فقد كان هناك من يحقنها فى الخفاء وتحت الجلد بحقن التعصب والكراهية والطائفية.. حتى أدمنت الخلاف الذى تحول إلى قتال.. ثم انقلب القتال إلى حرب أهلية.. ولم تعد بيروت «ست الدنيا» كما كتب نزار قبانى.. وغنت ماجدة الرومى:

«ياست الدنيا يابيروت.. من باع أساورك المشغولة بالياقوت.

«إنا أطلقنا النار بروح قبلية.. فقتلنا امرأة.. كانت تدعى (الحرية).

«فى عينيك. خلاصة حزن البشرية.. وعلى نهديك المحترقين.. رماد الحرب الأهلية.

«لا أفهم أبداً يا بيروت.. كيف نسيت الله.. وعدت لعصر الوثنية.

«ها أنت دفعت ضريبة حسنك مثل جميع الحسناوات.. ودفعت الجزية عن كل الكلمات.

لقد كانت بيروت «الوعد الأول.. والحب الأول».. والعشق الأول للعرب.. ولكنهم كانوا يحبونها «كالبدو الرحل».. يأوون لفراشها طول الليل.. وعند الفجر يتسللون هاربين.. ولكن.. كانت بيروت أيضاً حبلى بالتناقضات.. الجوع الكافر.. والشبع الكافر.. وحماقات الإنسان.. «من الشريان إلى الشريان».. فكان لابد من الجنان. كان لابد أن أسألها:

- هل كنت تحبين زوجك؟

وتعجبت للسؤال.. لكنها أدركت مغزاه:

- تقصد فارق السن.. نعم كنت أحبه.. لقد كان فارق العمر بيننا حوالى ٢٠ سنة.. لكننى كنت معجبة به.. لا تصدق امرأة تقبل الزواج من رجل لا تعجب به.. الزواج هو علاقة اجتماعية.. والرجل الناجح.. البارز.. هو رجل يكبش النجوم بأصابعه.. فكيف لا تقبل المرأة أن تشاركه فى الإقامة فى القمة.. أنا أشعر أن كيانى لا يفتح أبوابه إلا لمن يطرقه وهو مسلح بالنجاح والبريق.

كانت هذه فى الحقيقة نقطة الضعف التى جرت عليها كل المصائب فى حياتها.. الاحتراق بالضوء.. مثل الفراشة.. الضوء يشعرها بالدفء.. والدفء قد يجذبها

أكثر للنار.. وفى لحظات النشوة.. أو الغيبوبة قد تحترق.. وهى كثيراً ما احترقت.. وكانت أكثر مرات الاحتراق هى التى عاشتها مع ذلك الرجل الذى أجمعنا على أنه الأسوأ.. لقد كانت مثل المجوس تعبد النار.. وفى لحظات الوجد وتقديم القرابين لم تكن تنتبه إلى أن النار قد أمسكت فى ثيابها الداخلية.. ثم تجاوزت جسدها.. لكنها أحرقت قلبها.

كانت تفقد سيطرتها على نفسها أمام المشاهير.. ورغم خجلها الذى لا يمكن تجاهله فإنها كانت تجد قوة شيطانية تستولى على كيانها كلما وجدت نجماً من نجوم الحياة.. كاتباً.. ممثلاً.. صحفياً.. وزيراً.. طبيباً.. محامياً.. لا يهم مجاله.. المهم شهرته.. وتدفعها القوة المجنونة إلى أن تعرفه مهما كلفها الأمر.. هى فراشة تجمع عينات الضوء.. تجربها.. تدمنها.. تثيرها.. تفتح خلايا الرغبة فى جسدها.. تجعلها تنطلق.. وتجد فيها نفسها.

وهى تشعر أن جسدها قد خلق لهؤلاء الصفوة فى الحياة.. وتعرف أنه لا يفتح فمه بالرغبة إلا إذا جاء الصوت من واحد من هؤلاء.. وجسدها يأخذ الكثير من عنايتها.. فهى تعرف كيف ترعاه.. كيف تحافظ عليه.. لا أتصور امرأة على وجه الأرض تتعامل مع جسدها كما تتعامل هى مع جسدها.. تدلكه بالبخار.. وبكريمات متنوعة.. وتعطره بحرص شديد حتى لا يجرحه العطر.. وتغطيه بقطع صغيرة ملونة من الثياب الداخلية المستوردة.. وهى تعرف ما يناسبها.. وما يحرضها.. وما يمتعها.. ولا تتردد لحظتها فى أن تنقلب من امرأة أرستقراطية إلى امرأة فى كباريه.. فالرغبة يجب أن نعبر عنها بكل اللغات.. بكل الكلمات.. ليس عيباً أن نصرخ.. أو نهمس.. أن نقفز.. أو نرقد.. وهى تعرف كيف تصبح امرأة متغيرة.. تعرف كيف تغير رائحتها.. وطعمها.. إن هناك عطوراً وكريمات تباع فى مصر الآن تغير طعم النساء.. وتحول الواحدة منهن من امرأة حلوة سريعة الذوبان مثل الشيكولاتة إلى امرأة حادة وساخنة وملتهبة كمسحوق الشطة.. وفى المسافة العريضة بين الشطة والشيكولاتة ستجد امرأة بطعم الموز.. أو بطعم النبيذ.. أو بطعم الفراولة.. وهذه ليست تشبيهات أدبية وإنما هى حقائق تباع فى برطمانات صغيرة فى الصيدليات.

وحتى تكتمل ثقافتها الجنسية.. لا تتردد فى أن تشترى كل الكتب والمجلات

العربية والأجنبية التى لا هم لها سوى أن تطيل عمر الذوبان بين الرجل والمرأة.. ولو كانت تحتفظ فى خزائن ثيابها بكل هذه الثقافة النظرية.. فإنها تحتفظ فى خلايا جسدها بكل الثقافة العملية.. ولكن.. ما يشد الرجال إليها ليس فقط جسدها.. ولا ملامح الرغبة التى لا تستطيع إخفاءها.. ولا قدرتها على الاحتواء.. ولكن.. براعتها فى أن تدير حواراً جذاباً بينها وبين من تحب.. أو تريد.. أو تعرف.. وأتصور أن هذه القدرة اكتسبتها من الرجال الذين عرفتهم.. ومن ثم يمكن القول أنها تعرف أكثر مما تعرفه النساء عادة فى القانون والسياسة والصحافة والكتابة والسينما والطب والديكور.. وليس من الصعب أن تعرف الآن نوعية الرجال الذين مروا فى حياتها.

على أن أخطر ما فيها أنها من النوع الذى يشرح القلب.. ويضع من يعرفها فى حالة فجائية من البهجة.. وفى الوقت نفسه تجعله شهريار زمانه.. بشرط أن يعاملها أمام الناس بما تستحق.. أو بما تتصور أنها تستحق.. يعاملها كملكة متوجة.

من بيروت سافروا إلى لندن.. إن لندن فى ذلك الوقت كانت عاصمة من عواصم المعارضة السياسية المصرية للسادات.. وقد وجد معارضو السادات فى الحرية الممنوحة هناك فرصة لمواجهته.. لكن هذه الفرصة الوحيدة التى استغلوها هى إصدار صحف ومجلات تهاجم تصرفات السادات.. وتنتقدها بعنف.. وتسخر منها.. وقد كان الحدث الذى أثار غضب السادات هو صدور مجلة «٢٣ يوليو» التى كان يرأس تحريرها محمود السعدنى ويديرها ويسيطر عليها محمود نور الدين.. وهو مغامر مصرى كان مع النظام ثم انقلب عليه.. وهو الذى أسس فيما بعد تنظيم «ثورة مصر» لاغتيال الدبلوماسيين الأمريكيين والإسرائيليين فى القاهرة.. وقد وشى به شقيقه للسفارة الأمريكية.. فحكم عليه بالسجن المؤبد.. وفى شتاء ١٩٩٩ مات وحيداً فى السجن.. قهرته الوحدة.. والأشواق.. ولم تسعفه نزعة الصوفية التى سيطرت عليه فى آخر أيامه.. مات مثل أسد أخذوه من الغابة ووضعوه فى القفص.

على أن بعض المعارضين للسادات فى لندن حولوا مواقفهم السياسية إلى أسهم وسندات طرحوها فى البورصة لأعلى سعر.. وكسبوا من ورائها الكثير.. لكنهم

خسروا أنفسهم.. فراحوا يقضون أيامهم فى الغربة والمنفى فى الكباريهات والحانات ونوادى القمار.. وفى كل صباح كان عليهم أن يسددوا الفواتير السياسية والنفسية من تاريخهم وكيانهم.. وأحزانهم التى لا تنتهى.

لم يبع زوجها نفسه.. ولم يقبل أن ينكسر وينهزم من داخله.. إن الجحيم أن نضحك على أنفسنا.. ونوهمها بأن ما نفعله هو الصواب.. أو لا مفر منه.. أو لا بديل عنه.. الجحيم أن نلاعب أنفسنا لعبة البوكر.. بكل ما فيها من توتر وخداع.. فمهما كسبنا فالمؤكد أن الخسارة من نصيبنا.

قال لهم:

– سجون السادات أحب إلى نفسى مما تدعوننى إليه.

وقرر العودة إلى القاهرة.. فالشجرة عندما تقتلع من جذورها تتحول إلى لوح خشب.. ومصير أى لوح خشب – مهما كانت جودته – هو أن يصبح قطعة صماء.. لا حياة فيها.. ولا حرية لها.. ويسهل كسرها.. أو نقلها.. أو وضعها بدلاً من الفحم فى المدفأة لمواجهة برد وصقيع ضباب لندن.

لكن.. بمجرد أن أعلن قرار العودة تعرض إلى حملة تشهير ظالمة ممن شعروا بالعرى والحرج.. فراحوا يشوهون تاريخه.. وراحوا يتهمونه بأنه مدسوس عليهم من أجهزة الأمن المصرية.. وأنه كان يتجسس عليهم.. ويرسل التقارير عنهم إلى المخابرات وأمن الدولة.. فجأة وجد نفسه جاسوساً.. سحبوا منه كل شهادات النضال.. وأوسمة البطولة.. ونسوا كل ما قدمه من تضحيات.

إن آفة اليسار المصرى أنه كان دائماً عاجزاً عن مد جسوره وجذوره إلى الآخرين.. فقد راحت جماعاته وتنظيماته المختلفة تحارب بعضها البعض.. وتتهم بعضها البعض.. وكانت التهمة الجاهزة هى تهمة العمالة للأمن.. فكل من ليس مع هذا التنظيم فهو ضدهم.. وكل من هو ضد هذا التنظيم هو مع الأمن.. لقد بدأ التفكير الوطنى فى صفوف اليسار.. ثم تحول إلى تكفير دينى فى ظل التنظيمات الإسلامية.. وقد حارب اليسار بعضه البعض أكثر مما حارب اليمين.. إنها حروب أهلية.. فكرية.. أخرج فيها

اليساريون عقدهم السياسية.. والعقائدية.. ومارسوها بضراوة.. وقسوة.. وضيق أفق.. وكان سلاحهم الأساسى هو التشهير.. فهذا مباحث ومدسوس عليهم ويجب الحذر منه.. وهذا مصاب بالشذوذ الجنسى ولا يصلح للقيادة.. وهذا يترك زوجته بين أحضان غيره.. ويذهب إلى أحضان زوجة رفيق آخر.. وقد حدث أن كان أحد قيادات اليسار فى اجتماع سرى.. ثم استأذن لأسباب خاصة.. وعندما هبط إلى الشارع وجد مباحث أمن الدولة فى طريقها إلى مكان الاجتماع للقبض على من فيه.. فصعد بسرعة ليقبض عليه مع باقى الرفاق حتى لا يتهم بأنه هو الذى أبلغ المباحث عنهم.. فالسجن أهون من أن يظل باقى عمره متهماً بما لم يرتكب.. الخيانة.. والتعاون مع الأمن.. مع أن الذكاء السياسى يفترض أن يبقى أعضاء من التنظيم خارج السجن لتقوية التنظيم والحفاظ عليه ومساعدة أسر المسجونين والمعتقلين.. ولكنها حكمة اليسار المصرى.. وموهبته الفذة التى ساهمت فى سرعة القضاء عليه.

وحدث أن اغتاظ عضو قيادى فى تنظيم اليسار من يسارى نشط فى إحدى مدن الصعيد.. وكانت الطريقة الوحيدة لعقابه وإزاحته هى اتهامه بأنه «مباحث».. وكان أن صدقوا التهمة.. وأهملوه.. ونسوه.. وفى أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ - التى وُصفت بمظاهرات الطعام وهددت نظام السادات - لعب اليسارى المتهم بالعمالة للمباحث دوراً فى مكانه لم يستطع غيره أن يلعبه.. ولكن اليسار لم يتعلم.. وأكل نفسه بنفسه قبل أن تأكله الحكومة وقوى اليمين المتربصة به.

كانت التهمة جاهزة بمجرد أن رفض ما تفعله المعارضة المصرية فى لندن.. تهمة العمل مرشداً فى الخارج للأمن المصرى.. لكن.. كانت هناك تهم أخرى أشد قسوة.. تطعنه فى شرفه.. لقد استغلوا فارق السن بينه وبين زوجته.. واستغلوا جاذبيتها المفرطة فى تلفيق قصص ومغامرات وهمية عن عجزه الجنسى.. وحاجة زوجته لمن يروضها.. ويهدىء من فوران الفرسة الجامحة فيها.. وكانوا يتعمدون أن تصل إليه هذه الشائعات المرة.. وأن يطعنوه بها فى صدره.. لا فى ظهره.. حتى تكون الطعنات قاتلة.. ورغم أنه كان يثق فى زوجته فإنه لم يخف اضطرابه وقلقه مما يسمع ويقال.. وهو ما جعله يعجل بالعودة إلى مصر.

إنه يحبها بجنون. بل لم يحدث فى حياته أن أحب بهذا العمق. لم يحدث أبداً أن سافر مع امرأة غيرها إلى بلاد الشوق.. كان يقول لها دائماً:

– أنا لم أعشق امرأة قبلك.. كنت أمثل دور العشيق.

وفى أعماق أعماقه كان يؤمن بأنه لم يوصله حب فى حياته إلى الشنق كما فعل حبها فيه.. هى المرأة الأولى فى حياته التى غلبته.. وأخذت أسلحته.. وهزمته وهو فى مملكته.. ونزعت عن وجهه كل الأقنعة.. ولكنه كان فى الوقت نفسه يرى أنها لم تنظر بطرف عين إلى رجل آخر غيره.. على أنه كلما وجدها تتدفق بحيوية وجرأة وجنون فى الفراش.. كلما أحس بأنه سيأتى يوم ولن يقدر عليها.. وسيفقدها.. إن فارق السن كان يشعره بالقلق من امرأة تعرف كيف تتحول فى الفراش من غزالة وديعة إلى قطة شرسة.. ومن قطعة جاتوه إلى طبق جيلى.. كان يشعر أنهما يسيران فى عكس الاتجاه.. وأنها تصعد وهو يهبط.. وأغلب الظن أن هذا هو السبب الذى جعله يتردد على مستشفى «لندن كلينيك» ليطمئن على حيويته.. ومستقبل رجولته.. وابتسم الطبيب وهو يهدىء من مخاوفه وهواجسه.. وسر الابتسامة أن الطبيب الإنجليزى يعرف أن الرجل الشرقى يختصر الرجولة والحياة كلها فى قدراته الجنسية.. إنها جنسيته.. هويته.. بطاقته الشخصية.. ولو فقدها شعر أنه بلا وطن.. وبلا أرض ثابتة.. مستقرة.. يتحرك عليها.. فالمرأة هى الوجه الآخر للوطن بالنسبة له.

لكن.. المشكلة لم تكن مشكلة قدراته الجنسية.. وإنما كانت مشكلة فى الكبد الذى بدأ يتضخم بأورام السرطان.. ويخنق الحياة فى جسده.. وشعر بالهزيمة تتسرب إلى نفسه وجسمه وروحه ومنفاه.. السرطان يحاصره من جميع الجهات.. سرطان النظام فى مصر.. وسرطان المعارضة فى بريطانيا.. سرطان الرفاق.. وسرطان الكبد.. سرطان القلق على أولاده.. وسرطان القلق على زوجته.. وكل نوع من هذه الأنواع كان كفيلاً باختصار جزء كبير مما تبقى من أيامه القليلة.. وكتب كل ما يملك لأولاده وزوجته.. وفى لحظة الفراق والرحيل.. همس لها:

– أنا واثق أن آلافا غيرى سيحبونك.. ولكن لن تجدى بعدى رجلاً يحبك بهذا

الصدق.. لا هنا.. ولا هناك.. لا فى الشرق.. ولا فى الغرب.

وحملت جثمانه فى تابوت مبطن بالرصاص حملته فى بطن الطائرة إلى القاهرة.. وفى المطار لم يحترم أحد حرمة الموت.. وقضت أياماً فى أمن الدولة.. وكان من الممكن أن تكون الأيام ساعات والساعات دقائق لو أنها تعاونت معهم وأرشدتهم عن كل ما تعرفه عن المعارضة المصرية التى عاشت بينها فى الغربة.. وفكرت فى الانتقام مما فعلوه بها وبزوجها.. وكادت أن تشى برموزها.. لكنها تماسكت.. وفوضت أمرها إلى الله.. وتحملت معاناة التحقيق والاستجواب حتى خرجت سالمة.

لم تستطع أن تنسى زوجها بسهولة.. فهو فى كل الأشياء.. فى ثيابها.. وعطورها.. وأولادها.. ولم تكن تكف عن الحديث عنه.. هذا الكاتب كان كاتبه المفضل.. هذا اللون هو لونه المفضل.. هكذا كان يدخن.. بهذه الطريقة كان يتكلم .. ولذلك لم تحزن عندما قتل السادات.. فقد عبرت عن اغتياله بلسان زوجها.. وقد تحملت الكثير وهى تربى بناتها.. وتحملت ما هو أكثر وهى تتعذب بالوحدة.. وبالرغبة.. ولم يكن أمامها سوى أن تمارس اللذة مع نفسها.. لم يكن أمامها سوى أن تتفرج على الأفلام العارية.. وتغوص وهى عارية فى غيبوبة من الوهم والخيال.. فما الذى تفعله امرأة فى حالتها تريد أن تربى بناتها وتزوجهن وهى فى كامل سمعتها.. لم يكن أمامها سوى اجترار الذكريات واللمسات والهمسات.. وفكرت مرة فى الانتحار فى طريق السيارات.. وفكرت مرة فى أن تمارس الجنس مع صبى صغير من أبناء الجيران.. إنها تريد أن تلمس رجلاً.. حتى لو كان صبياً.. وفكرت مرة فى السائق.. وفى الشاب القوى الذى يساعد البواب.. لكنها فى كل مرة كانت تتماسك.. وتنقذ نفسها.. وكانت دموعها هى التى تدفع الثمن.

ثم وجدت نفسها ترفع سماعة التليفون وتكلم كاتباً شهيراً.. ولم يكن من السهل أن يرد.. على أنها زعمت أنها سكرتيرة نجمة شهيرة.. فوجدت الكاتب على السماعة.. وفى ثوان كان عليها أن تقنعه بمواصلة الحديث معها.. فالقارىء الذكى يعرف مفاتيح الكاتب.. ويعرف كيف يصل إليه من خلالها.. إن الكتّاب وغيرهم من المشاهير يسكرهم الثناء ويصابون بالدوار من الإعجاب.. خاصة إذا كان الإعجاب من امرأة.. وامرأة يبدو من صوتها الناعم أنها جذابة.. صحيح أن الصوت كثيراً ما يخدع..

ولكن ما الذى يمكن أن يخسره الرجل - حتى لو كان مشهوراً - من لقاء امرأة معجبة به.. وقد كان.

إنها تقول أنها أحبته.. والصحيح أنها أحبت صورته التى يرسمها لنفسه فى مقالاته وحملاته القوية ضد الفساد والتطبيع.. وصورته التى رسمها له الناس.. وصورته التى تنشرها له صفحات المجتمع فى حفلات وسهرات النجوم والمشاهير.. وكان رأيها أن وراء هذه الصورة رجلاً يفهم فى الحياة.. ومن ثم يفهم فى النساء.. فالرجل يلمع لو كانت علاقته بالمرأة قوية.. ويتحول إلى لوح خشب أو مسمار لو أصبحت هذه العلاقة روتينية.

جاءت إليه فى كامل أناقتها.. وفى كامل رغبتها.. بل إن الرغبة ضاعفت من أناقتها.. وكأنها كانت تعلم أن الرجل.. أى رجل لا يقدر على مقاومة امرأة تريده.. امرأة تفضحها عيناها بالرغبة.. ولأن الرغبة تيار كهربائى يسرى من العين إلى العين.. ومن الجسد إلى الجسد.. فقد سافرا معاً فى نفس الليلة.. كل منهما فى سيارته إلى مارينا.. وفى الشاليه الذى تملكه ظلا ثلاثة أيام دون أن يخرجا.. ولم تشعر بالقلق.. فقد كانت مارينا فى الشتاء قرية مهجورة.. خالية من البشر والحياة.

إنها لا تنسى هذه الأيام الثلاثة التى أعادتها إلى الحياة.. إنها لم تشعر بالخيانة.. فقد منحت جسدها بعد طول صبر لمن يستحقه.. ولمن تعب فى حياته حتى ناله.. وهى لم تكن فى حاجة لكبريت أصابعه حتى تشتعل.. كانت جاهزة الاشتعال.. لكنها كانت فى حاجة إلى أن تشعر أنها صغيرة أمام رجولته.. وراحت تتأمل عروقه الزرقاء النافرة فى ظهر كفيه.. ونحول أصابعه.. وتعابير أطرافه المغطاة بآثار التدخين.. وفى هذه اللحظات كانت حريصة أن تثبت فراستها كامرأة قادرة على أن تكشف أعماق رجل لا يعرفه الناس كما يجب.. رجل يبدو جاداً.. حاسماً.. قاطعاً.. باتراً.. لكنها.. كانت تراه عاشقاً للمرأة.. مجنوناً بها.. على عكس ما يبدو.. قالت له:

- لقد تابعت حواراتك فى التليفزيون.. لم أصدق أن جرأتك فقط فى الحياة والقضايا العامة، لا أحد يمكنه ذلك ما لم يأخذ مكافأة على شجاعته.. أنت لا تهتم بالثروة.. ولا بالسلطة.. ولا بالشهرة.. فما هى المكافأة التى تنالها سوى المتعة..

والمتعة هى المرأة.. وأنت تفضح نفسك بالدفاع عنها.. والذى يدافع عن المرأة لا يخافها.. ويثق فى نفسه.. ويعرف كيف يحصل منها على مزيد من الثقة فى نفسه.

وهى تعتبر علاقتها به أغرب علاقة بين رجل وامرأة.. هى كانت تحبه.. لكنه نجح فى أن يحول الحب إلى صداقة قوية.. فهو طبيبها النفسى.. وهى لا تخجل من أن تعرى نفسها وجسدها ومشاعرها أمامه.. وهو معلمها فى الحياة.. تصدق كل ما يقول.. وتؤمن بما يروج له.. ولكنه لم يكن قادراً على الحب بعد تجربة لم تكن سهلة.. فليس ممكناً أن نخرج من امرأة لنحب امرأة أخرى لكن من الممكن أن نخرج من امرأة كنا نحبها إلى امرأة أخرى نصادقها.. ونتفاعل معها.. ونتحدث معها بصراحة.. نكاشفها بكل ما يمر بحياتنا.. وبما نفعله ونمارسه مع غيرها.. هى علاقة حب مكتملة ولكن دون ملكية.. والحب بدون ملكية هو ليس حباً.. هو حب منزوع الدسم.. هو مع الصراحة والحاجة.. صداقة.

كانت تؤمن بما يؤمن به.. لا تفعل ما تخجل منه.. لا تفعل ما يمكن أن تخفيه.. لا تفعل ما لا تقدر على البوح به.. وقد شعرت بالخجل عندما عرفت ذلك المحامى الذى اخترناه الأسوأ فى مصر.. لم تقدر على أن تقول أنها عرفته.. وأعجبت به.. بل وتزوجته.

كان ناعماً.. أملس مثل الحرير.. لكن تحت الحرير كان ثعباناً لم تكتشفه إلا بعد أن وقعت الفأس فى الرأس.. وتزوجته.. لم تقبل أن تمارس معه الحياة.. فوضع أمامها إغراء الزواج.. إن الفتاة تفقد نصف عقلها إذا ما سمعت كلمة الزواج.. وتفقد المطلقة والأرملة كل عقلها لو سمعتها.. إنها لا تتصور أن من الممكن أن تسمعها مرة أخرى.. بل ولا تصدق أنها سمعتها.. ومن ثم فهى تقبل الزواج دون فحص أو تردد حتى تثبت لنفسها أنها قد سمعت كلمة الزواج.. وقد نطق بها وهو يعرف أنها المستند الدامغ الذى سيكسب به هذه القضية.. ولكن فى الوقت الذى تأكدت فيه أنها سمعت فيه كلمة الزواج.. تأكدت أيضاً أنها تزوجت مهرجاً عجوزاً.. يقذفه الجمهور بالصفير والشتيمة.. وشعرت فى علاقتها به أنه سارق.. سطا على لؤلؤة كريمة.. وأن زواجها منه جريمة.. وأن ما تصورته استقراراً هو فى الحقيقة هزيمة.. وأن ما تصورته شهرة هو فى الواقع فضيحة فى جريدة صغيرة.

قالت لى:

– كان أكثر من رأيت من الرجال أناقة.. ونظافة.. لكنها كانت أناقة خارجية تخفى إحساساً فى أعماقه بالفوضى والمهانة.. والنظافة التى كان يبالغ فيها كانت تخفى قذارة لا حدود ولا ضابط لها فى السلوك.. إنه رجل كما تقول يقبل أى شىء.. ويفعل أى شىء.. إن حياته عار.. وقمار.. ولا يمكن لأى إنسان طبيعى أن يقبلها.. سيفضل عليها الانتحار.

لم أر زوجته.. لكننى رأيت عشيقته.. وعشيقته هى زوجه مستشار سابق طردوه لسوء سلوكه ولعدم صلاحيته.. وكانت هذه المرأة التى افتتح لها مصنعاً للملابس الجاهزة هى أداته فى تسهيل انحرافاته القانونية.. وأيضاً الأخلاقية.. هى مركز الشبكة التى كونها ليصل إلى ما يريد.. لو كانت القضية تحتاج رشوة.. دفعتها.. ولو كانت تحتاج امرأة.. أرسلتها.. ولو كانت تحتاج هدية.. اختارتها.. ولو كانت تحتاج حفلا ماجنا.. صاخباً.. أعدته.

وفى المقابل كانت تحصل منه على المال والجنس والحماية.. وقد شعرت أن هذه العشيقة تتقرب منها بشكل أثار اشمئزازها.. كانت تريد أن يلعب ثلاثتهم اللعبة التى لعبها فى سيناء مع الإسرائيليين.. لعبة الجنس الجماعى.. وشعرت بالقرف.. إنها لا تتخيل الجنس إلا فى صورته الطبيعية المحترمة.. ولا تتخيل الرجل الذى يشاركها الفراش من هذا الطراز الذى يفرض على من يتعامل معه الغثيان.. وعندما رفضت أن تفعل ما يريد.. راح يعذبها بالحرمان.. كان يوصلها إلى حد الرغبة ويتركها وحيدة فى الفراش.. ويمارس العادة السرية.. أو يمارس الجنس بصوت مرتفع فى التليفون مع عشيقته.. كان صوتهما بكل مؤثرات الرغبة يملأ البيت بمكبرات صوتية وضعها خصيصاً ليستمع ضيوفه للمكالمات التليفونية التى يجريها مع الشخصيات المهمة ليقتنعوا بقوته ونفوذه ويوافقوا على أن يتولى قضاياهم أو صفقاتهم.. وكثيراً ما كان يتركها فى هذه الحالة ويخرج من البيت.. وقد تحملت كل ذلك.. وراحت تفكر فى الطلاق.. وتدبر للحصول عليه.. لكنها حسمت تفكيرها بقرار عاجل بعد أن وجدته فى أحضان رجل.. وليس امرأة هذه المرة.. والمذهل أنه صرخ فيها وطالبها أن تترك غرفة النوم وتخرج.. ولم تصدق ما وجدت نفسها فيه..

وتركت بيته وهى مهشمة تماماً وعادت إلى بيتها.. وكان أول شىء فكرت فيه هو بناتها.

كانت ابنتها الكبرى قد تزوجت وسافرت مع زوجها إلى لندن لاستكمال دراساته العليا.. وتزوجت الثانية..'وسافرت لتعيش مع زوجها الضابط البحرى فى الإسكندرية.. أما الثالثة فقد كانت تكمل تعليمها الجامعى.. وكانت تعيش مع خالتها.

لقد فضلت أن تعيش رغباتها مع نفسها ومع الأفلام العارية على أن تعيش مع رجل على هذا النحو من القذارة.. وقد فعلت المستحيل حتى حصلت على الطلاق.. تنازلت له عن كل شىء.. وتنازلت له أيضاً عن القضية التى رفعتها ضد أشقاء زوجها.. واقتسم معهم الغنيمة.. وفى اليوم الذى حصلت فيه على الطلاق راحت تجمع كل ثيابها التى لمسها وأحرقتها.. وفكرت أن تحرق نفسها أيضاً.. شعرت أن النار – التى اختارها الله عقابا لنا فى الآخرة – هى الشىء الوحيد الذى يمكن أن يطهرها.. ولكنها فضلت أن تذهب إلى طبيب نفسى.. واستمرت تتردد عليه أكثر من عامين.. حتى شعرت بالتحسن.. لقد قال لها الطبيب النفسى أن علامة الشفاء أن تشعر بالرغبة فى الرجال مرة أخرى.. لكنه أضاف: أنها لن تصل إلى هذه العلامة إلا إذا كانت قادرة على أن تبوح لأى إنسان بعلاقتها مع هذا الشخص الذى سبب لها كل ذلك.. ووجدتها فرصة أن تروى لى أنا هذه العلاقة.. فقد كانت تريد أن تشفى تماماً.. كانت تريد أن تسترد علاقتها الطبيعية بالرجال.

****

الفهـــرس

بنات مارينا

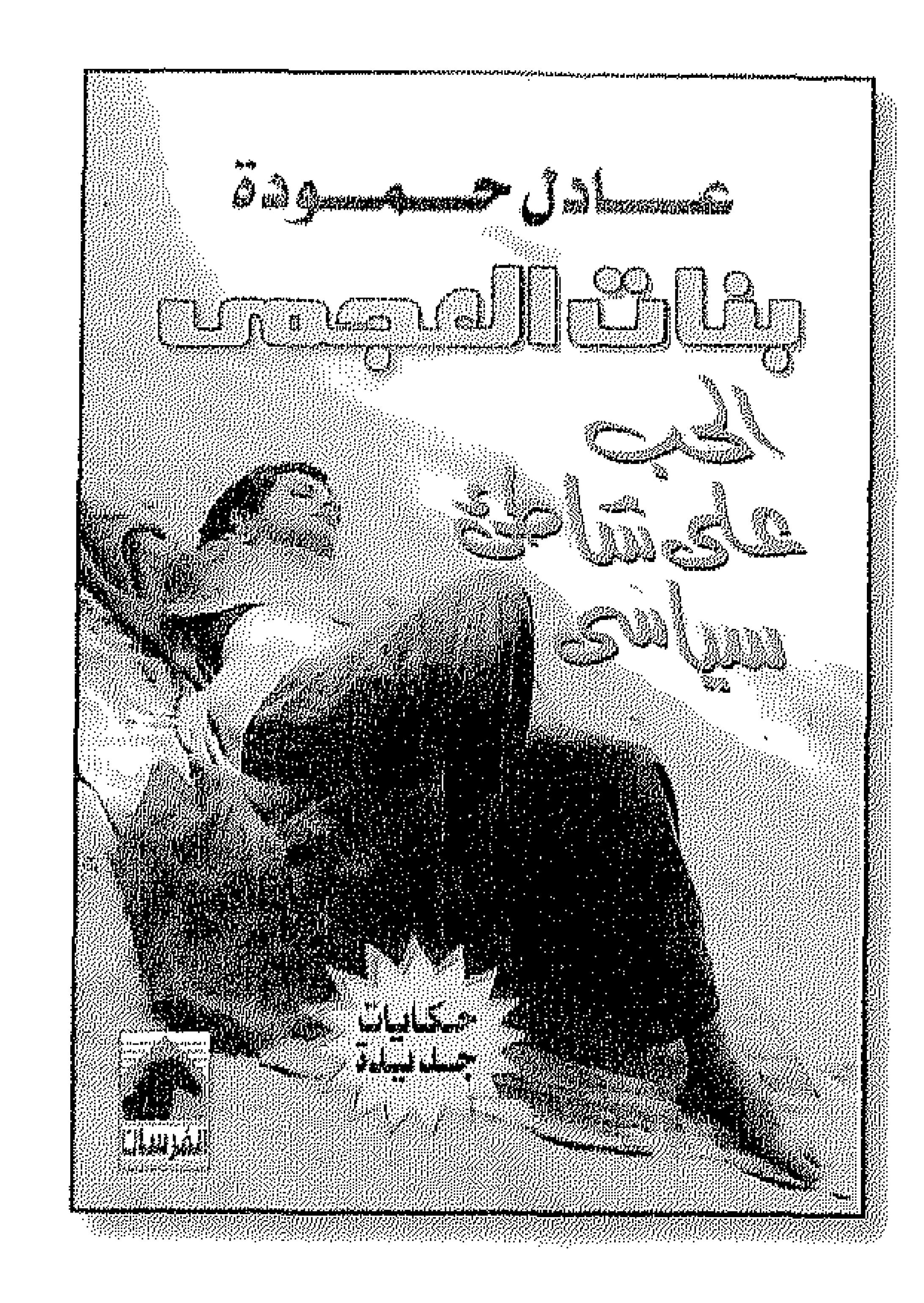
نساء الفساد والموساد



هـــذا الكـتـاب

هذه صور أدبيـة .. فيها الخيال .. وفيها الواقع .. تصور عالماً ينفرد به البعض .. وينجو منه البعض لحالات تراكمت فيها الثروة وحاولت بها فرض إرادتها على باقى القوة فى المجتمع .
لكن .. ليس كل مارينا هذا الطراز من الناس .. فالغالبية العظمى توصف بأنها أغلبية سوية .. طبيعية .. طي
انها نماذج تعد على أصابع اليد .. لكنها لا تمنع
الشريفة من النجاح والازدهار .. فضوء الشمس أقوى
وهى فى النهاية نماذج ليست موجودة كما ستة
فالخيال دائماً أقوى من الواقع .. والحلم غالباً ما

الـ







الفرسان للنشر